مجلـــة الإيسيسكو

ثقـــافية فصليـــة شـــاملة | العدد 4 ◆ أكتوبر 2025

الإيسيسكـو في دمشق

د. علي بن تميم
نحتاج للمزيد من الفهم والاستيعاب للمفاهيم النقدية الحديثة

بغداد في عيون الرحالة

بلاريجيـــا
مدينة تـسكنهـا الـذاكرة

المنظمات والتعليم
في ضوء توجهات الأمم المتحدة

السرديات وسؤال الهوية
ملف العدد

التراث المغربي
بعيـون إسبانـية

من الحوار بين الحضارات
إلى الدبلوماسية الحضارية

الإيسيسكو
والذكـاء الاصطناعي

الندوة الدولية للترجمة والأمن: دور الترجمة في تعزيز الأمن الوطني والدولي - مقر الإيسيسكو - 2-3 يوليو 2025

هيئة التحرير

المشرف العام
الدكتور سالم بن محمد المالك
المدير العام للإيسيسكو

رئيس التحرير
روضة الحاج

مدير التحرير
د. أنس النعيمي

أعضاء هيئة التحرير
أ. عادل بوراوي
د. زيد أبو شمعة
أ. رنا الأصبحي

الإخراج الفني
مركز الترجمة والنشر

رقم الإيداع القانوني
2025PE0012

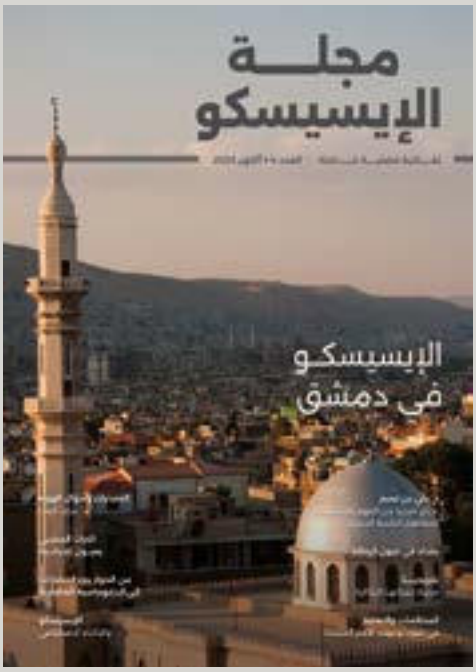

صورة لمدينة دمشق

مجلة الإيسيسكو

ثقافية فصلية شاملة

العدد 4 ◆ أكتوبر 2025

عنوان منظمة الإيسيسكو
شارع الجيش الملكي، حي الرياض
ص.ب. 2275، ر.ب. 10104، الرباط، المملكة المغربية

الموقع الإلكتروني للمنظمة
www.icesco.org

البريد الإلكتروني للمنظمة
Contact@icesco.org

البريد الإلكتروني للمجلة
icesco_magazine@icesco.org
+212-5375-66052
+212-5375-66012/13

www.icesco.org
info@icesco.org

الآراء الواردة في هذه المجلة لا تعبر بالضرورة عن رأي منظمة الإيسيسكو

في هذا العـــدد

سعادة د. علي بن تميم
نحتاج للمزيد من الفهم والاستيعاب للمفاهيم النقدية الحديثة 8

السرديات وسؤال الهوية
ملف العدد 16

المنظمات والتعليم
في ضوء توجهات الأمم المتحدة 42

التراث المغربي
بعيـون إسبانـية 52

بلاريجيـــا
مدينة تـسكنهـا الـذاكرة 56

62 **الإيسيسكو**
والذكـاء الاصطناعي

68 **بغداد في عيون الرحالة**

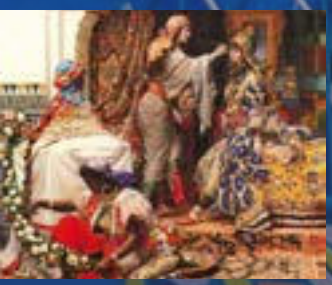

70 **مُتحف شانغريلا بهاواي**
نافذةٌ على عظمة الفنّ الإسلاميّ

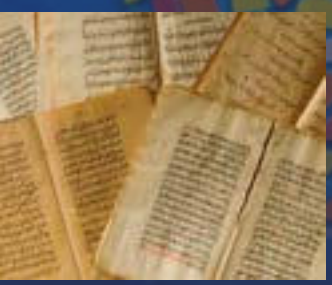

74 **الإيسيسكو في دمشق**

84 **مخطـوطٌ فقدَه مؤلِّفُه**
الاستمساكُ بأوثق عُرْوة في الأحكام المُتعلِّقة بالقَهْوة

بعلبك - لبنان - قائمة الإيسيسكو للتراث في العالم الإسلامي

كلمة العدد

د. سالم بن محمد المالك
المدير العام

هذا هو آخر أعداد هذا العام من مجلة الإيسيسكو الثقافية الفصلية الشاملة

لقد كان عاماً مشهوداً من أعوام المنظمة، خطّتْ فيه بفضل الله وبدعم الدول الأعضاء، ومثابرة وجهد العاملين بها؛ خطواتٍ واثقةً ومؤثرةً نحو تثبيت رؤيتها الهادفة للارتقاء بالإنسان في العالم الإسلامي في المجالات الحيّة، التي نعتقد أنها عماد النهضة والنماء والتطور؛ مجالاتِ التربية والعلوم والثقافة والعلوم الإنسانية. معززة حضورها في العالم الإسلامي كافة، ومستشرفةً آفاقاً أوسع من خلال بناء المزيد من الصلات والعلاقات مع دول وثقافات العالم أجمع. ولعل زيارة وفد الإيسيسكو رفيع المستوى إلى الصين مؤخراً ولقاء المسؤولين هناك؛ خير دليل على هذا التواصل الحضاري العابر للقارات والثقافات لهذه المنظمة.

في مجال التربية حرصت الإيسيسكو بالتعاون مع شركائها؛ على ترسيخ مفاهيم التعليم للجميع، والمساواة بين الجنسين، وتطوير المناهج وطرق التعليم، والحث على بناء المدارس الذكية، ومواكبة التطورات التي يشهدها العالم في مجالات التقنية الحديثة والذكاء الاصطناعي، وذلك عبر عدد من المبادرات والمشاريع.

أما في مجال الثقافة فقد ابتدر القطاع هذا العام بانعقاد مؤتمر وزراء الثقافة في العالم الإسلامي والذي استضافته مدينة جدة برعاية كريمة من سمو الأمير بدر بن عبدالله بن فرحان آل سعود والذي شرفنا بافتتاح المؤتمر وشهود جلسته الافتتاحية. ويقوم قطاع الثقافة على تنفيذ جملة من المشروعات الهادفة لتعزيز حضور الثقافة وسيلةً مثلى للحوار والتفاهم الإنساني، وتشجيع الصناعات الثقافية الإبداعية، وتنمية وتطوير الاقتصادات الثقافية.

وفي قطاع العلوم الإنسانية والاجتماعية يتصدر الأمن والسلام والمواطنة قائمة الأسس والركائز التي يقوم عليها القطاع، دعماً للفئات الهشة، واهتماماً بقطاعات المرأة والشباب والأطفال، خصوصاً في مناطق الصراعات والأزمات؛ وفي رصيده أكثر من مائة سفير وسفيرة للسلام من شباب العالم الإسلامي.

أما قطاع العلوم والبيئة والذي يعد أحد أهم قطاعات المنظمة فيواصل جهوده الرامية إلى دعم التعاون بين دول العالم الإسلامي في مجالات التقنية والعلوم والبيئة، وبناء قدرات الشباب في هذه المجالات، والعمل على تشجيع الدول الأعضاء على تضمين المناهج التربوية قدراً مناسباً من المعرفة البيئية والعلمية والتقنية.

وقد انضم مؤخراً قطاع الإعلام والاتصال إلى مجموعة قطاعات المنظمة محملاً بالكثير من آمال وتطلعات كل القطاعات والمراكز لعكس الحراك والعمل الدؤوب بالمنظمة وتقديم مبادرات خلاقة بالخصوص.

أما المراكز المتخصصة فهي أذرع الإيسيسكو الفاعلة والمؤثرة، فها هو مركز الحوار الحضاري يحقق بالتعاون مع قطاع العلوم الإنسانية والاجتماعية نجاحاً كبيراً بحصوله على جائزة مركز الملك عبد العزيز للحوار الحضاري، ماضياً نحو ختام العام برصيدٍ وافر من المبادرات والمطبوعات، بينما تمكّن مركز الترجمة والنشر من الحصول على شهادة الآيزو كأول مركز متخصص في منظمة دولية يحصل على هذه الشهادة. فيما واصل مركز الإيسيسكو للاستشراف والذكاء الاصطناعي تحقيق رؤية المنظمة الهادفة إلى تعميم ثقافة الاستشراف وإشراك الشباب ودعم السيادة الرقمية للدول الأعضاء.

أما مركز الإيسيسكو للغة العربية للناطقين بغيرها؛ فقد تواصلت عطاءاته في مجال دعم وتطوير مناهج اللغة العربية، مصدراً العديد من المطبوعات المتخصصة. وكذلك الأمر فيما يلي مركز الإيسيسكو للتراث وفي رصيده 237 موقعاً مسجلاً على قائمة الإيسيسكو للتراث في العالم الإسلامي، وكذلك مركز الكراسي والمنح والجوائز؛ بالإضافة إلى مركز الخط والمخطوط والذي يباشر مع شركائه العمل في مشروع المعجم التاريخي المصور لفن الخط العربي وهو أول معجم من نوعه في تاريخ اللغة العربية، ومركز الشعر والأدب الذي يصدر هذه المجلة وينفذ عدداً من المشروعات منها مشروع «عشرون قمراً في سماء القصيدة» الهادف لتعزيز حضور المرأة الشاعرة في العالم الإسلامي.

هل هذا هو كتاب الإيسيسكو خلال عام؟ الإجابة قطعاً لا، فأنّى لمساحة كهذه أن تحوي عملاً متصلاً ومبادرات متسارعة ومشاريع يمسك بعضها بزمام بعض؟ إنما هي إضاءات فقط لسِفرٍ كبير خطّه عزمُ وابتدار كل العاملين في هذه المنظمة والذين يواصلون جهودهم لتحقيق رؤى الإيسيسكو الرامية إلى دعم كل دول العالم الإسلامي وصولاً لمستقبل أفضل لها في مجالات عمل المنظمة.

قصور وادان وشنقيطي وتشيت ووالاتا القديمة - موريتانيا - قائمة الإيسيسكو للتراث في العالم الإسلامي

كلمة التحريـــر

عددٌ خريفيٌ جديد، هو آخر أعداد هذا العام، استطاعت خلاله هذه المطبوعة الصادرة عن منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو؛ أن تحجز لها مكاناً في ذاكرة القراء والمثقفين والأدباء، وأن تفسح لنفسها مقاماً متميزاً مطبوعةً جادة ملهمة.

ما كان لهذا النجاح أن يتحقق لولا دعمكم وإشادتكم وحفاوتكم بها، فلكل من تواصل معنا أو تفاعل مع هذه التجربة الشابة، مقوِّماً أو مقترحاً أو مشيداً؛ كل التقدير والثناء والشكر، وستجدوننا عند حسن ظنكم بنا دائماً بحول الله.

في هذا العدد استطعنا أن نترجم أحد أهداف صدور هذه المجلة ليكون واقعاً معيشاً، وهو تقاسم ثمار وعطاءات الإيسيسكو مع أكبر قطاع ممكن من عضوية المنظمة في العالم الإسلامي، تنفيذاً لتوجيهات معالي المدير العام ورغبةً في هذا التبادل والتشارك والتثاقف بين المنظمة وعضويتها الواسعة الشاسعة؛ فملف العدد الجديد هو ملخص الأوراق القيمة التي قدّمها نخبة من أبرز المفكرين والنقاد والفاعلين في المشهد الثقافي، في احتفاء المنظمة بالأسبوع العالمي للرواية والذي اخترنا أن يكون ندوةً بعنوان «السرديات وسؤال الهوية».

ستجدون طي هذا الملف تأملات المفكر العراقي الدكتور عبد الله إبراهيم صاحب موسوعة السرد العربي حول السرد والهوية والتهجين السردي، ثم ستعرجون على المدخل الذي اختاره الناقد والأكاديمي المغربي محمد الداهي والذي فضل الحديث عن الهوية المتحركة أو المترحلة عبر سيرة «جان-ماري لوكليزيو»، وستأخذكم الكاتبة العراقية الدكتورة إنعام كجه جي في رحلتها مع الهوية وصراعاتها وهي المقيمة بباريس منذ ما يزيد عن أربعين عاماً، وقد اختارت لها عنواناً لافتاً هو «قيظ في الزمهرير»، ومن ثم ستقرأون للدكتور الناقد محمود الضبع حول «هوية السرد في مواجهة السيولة والذكاء الاصطناعي»، ونختتم الملف بصاحبة «مسرى الغرانيق»؛ الروائية السعودية أميمة الخميس وهي تقدم رؤيتها حول موضوع السرد بورقة اختارت لها عنوان «السرد أرض امومية»، نعم يا عزيزتي السرد أرض أمومية!

حوار العدد هذه المرة مع شخصية عالية الحضور والأثر في المشهد الثقافي والأدبي والنقدي والإعلامي، سعادة الدكتور علي بن تميم رئيس مركز أبو ظبي للغة العربية، تتابعون عبر الحوار معه العديد من القضايا والشؤون الثقافية، علاقته بالمتنبي، رأيه في حضور الشعر، حرصه على اللغة العربية، تجربته الإعلامية، رؤيته لبرنامج أمير الشعراء، وغيرها من المحاور.

روضة الحاج

يحضر المغرب عبر مقالين أحدهما للزميل علي أبطال عن المغرب كجسر للتواصل والثقافة والفنون بين ضفتي المتوسط، والآخر للأكاديمية الدكتورة لطيفة لبصير وهي تنقلنا إلى لوحات الرسام الإسباني العاشق لمدينة طنجة «خوسية طابيرو» وتوثيقه الدقيق عبر لوحاته للتراث المغربي.

وعلى قلة حظ العلوم في مجلتكم إلا أننا في هيئة التحرير نذكر أنفسنا دائماً بضرورة إيجاد مساحة لها؛ باعتبارها أحد أركان المنظمة. في هذا العدد حضرت العلوم عبر مقال متميز للدكتورة مريم المعاضيد أستاذة الفيزياء نائبة رئيس جامعة قطر للبحث والدراسات العليا؛ وفيه من الجدة ما يستحق انتباه المهتمين وقد خصصته للحديث عن علم المواد.

يشرفنا بالكتابة للمجلة للمرة الأولى الدكتور عبد السلام الجوفي من مكتب التربية العربي لدول الخليج، فمرحباً بقلمه الرصين وهو يكتب عن المنظمات والتعليم في ضوء توجهات الأمم المتحدة، وكذلك الدكتور المحجوب بنسعيد وهو يقارب الحوار الحضاري والدبلوماسية الحضارية.

وقد كان للزملاء الأعزاء خبراء الإيسيسكو إسهاماتهم الثرية فها هو الدكتور قيس الهمامي يوثق لرحلة الإيسيسكو والذكاء الاصطناعي، فيما يحقق الدكتور أحمد عبد الباسط المخطوط الذي فقده صاحبه، ويختار الزميل الدكتور بلال الشابي الخبير بمركز التراث أن يعرّفنا على بلاريجيا.

تطالعون العديد من المواد والمقالات المتنوعة والقصائد، إضافةً إلى مختاراتنا من قائمة الإيسيسكو للتراث في العالم الإسلامي وغيرها.

لا غنى لنا عن متابعتكم وملاحظاتكم، فبكم تكتمل رسالة هذه المجلة.

ICESCO_MAGAZINE@ICESCO.ORG

حـوار

سعادة الدكتور علي بن تميم

رئيس مركز أبوظبي للغة العربية

نحتاج للمزيد من الفهم والاستيعاب للمفاهيم النقدية الحديثة

حاورته: رئيسة التحرير

اختار الأدب بدروبه الوعرة الجميلة، واللغةَ بعوالمها الفسيحة الرحيبة، عكف على محرابيهما باحثاً وناقداً ومسافراً في عوالم الكلمة والحرف والمعنى، بنى خلال سنواتٍ من الحضور الثقافي المشرق؛ علاقاتٍ امتدت عبر كل بلاد العالم العربي والإسلامي؛ لتتجاوزها إلى العالم كله مع المثقفين بمدارسهم واتجاهاتهم كافة، ومع المؤسسات والمنظمات الثقافية، فهو الحاضر في مؤتمرات ومهرجانات الأدب، المشارك في ندوات اللغة والشعر، والمبادر بمد جسور التواصل بين المؤسسات التي يقوم عليها وبين المثقفين في كل مكان.

نال ثقة بلاده التي أولته قيادة عدد من المبادرات الثقافية والإعلامية، وكلفته بالعديد من المسؤوليات، فأسس فكرتها، وبنى قواعدها الأولى، ثم انتقل إلى مهمته التالية.
يتولى حالياً رئاسة مركز أبو ظبي للغة العربية، مع مهام أخرى، إلى جانب ما يرفد به المكتبة من أعمال نقدية وأدبية.
التقته مجلة الإيسيسكو، فكان هذا الحوار...

شغفك بالمتنبي إلى أي الحقائق أوصلك حول هذه الشخصية المتفردة؟

شغفي بابن الطيب، ناتج عن أسباب عدة، أهمها، أنه بينما يساهم بعض الشعراء في نشر الوعي لدى المتلقي، جاء أبو الطيب ليعيد وعي الشعر ذاته. وعلى الرغم من أنه جاء في زمن فيه إرثٌ عظيم امتدّ من امرئ القيس حتى البحتري. لكنه لم يكن أبداً مجرّد وريث، بل مخترعاً مبتكراً اختار أن يكون نسيجا وحده، بشاعريته وبلاغته ونزعته الفلسفية.

> **ما شهدته الرواية العربية من انتقالات بارزة على صعيد الفن وعلى صعيد القضايا التي تتناولها يضعها في مصاف تجارب العالم السباقة في هذا الفن**

وقد أشرت إلى ذلك في كتابي «عيون العجائب في ما أورده أبو الطيب من اختراعات وغرائب»، الذي تجنبت فيه التناول التقليدي بالشرح والتفسير، وعمدت إلى إبراز قدرته على الاختراع، وابتكار عوالم لغوية جديدة تتجاوز المألوف. ومن الحقائق حول ابن الطيب، أنه إلى جانب إبداعه الشعري واللغوي والفكري، تمتع بقدرة فريدة على رؤية العالم والتعبير عنه بطرق لم تعهدها العرب، ما جعل شعره عبقرياً وفريداً. كما أن تأثير المتنبي لم يتوقف في زمنه، بل تجدّد عبر العصور، ليؤثر في الشعراء والقراء والباحثين، وأيضاً في القادة والمفكرين.

> **أصبح النقد شكلاً من أشكال الابتكار والتفكير الإبداعي**

ومن الحقائق أيضاً، أن علاقة المتنبي ببلاط سيف الدولة الحمداني شكّلت عنصراً مهماً، وجد فيه المتنبي مُتلقياً عظيماً ساهم في ازدهار شخصيته المتفردة، وانتشار شعره المبتكر.

برنامج أمير الشعراء شكّل نقلة شعرية وإعلامية ضخمة، والجميع يعرف ميزاته وإضافاته الثرّة. كيف تنظر إلى تجربة أمير الشعراء وأثره؟

لقد نجح برنامج «أمير الشعراء» منذ انطلاقته المميزة وعبر مواسمه المتلاحقة في إعادة الشعر العربي إلى صدارة المشهد الأدبي والثقافي والإعلامي، وأعاد للشعر دوره في ارتباطه بعصره، انطلاقاً من الحقيقة التي تأكدت على مدار التاريخ العربي من أن الشاعر ابن عصره، وبيئته، ومجتمعه، وواقعه. فلم نعرف تاريخ العرب قبل الإسلام إلا من المعلقات، ومن شعر عنترة، وعمرو بن كلثوم، والمهلهل، وطرفة بن العبد وغيرهم. واحتفظت لنا قصائد شعراء العرب العظام في العصور الأولى بوقائع التاريخ وسير العرب الخالدة، ومنها عرفنا كيف عاشوا، وكيف كانت تفاصيل حياة أسلافهم وحاضرهم وكيف سيصيرون غدا، وكيف وصلوا إلى المجد، وبرؤاهم الفريدة صار للخيال دور فريد في الحضارة

وقد أفلحت مسابقة أمير الشعراء بأسلوبها الذي يجمع بين فنون الإعلام، وعلوم النقد والأدب، في استعادة هذا الدور للشعر مجدداً، فدفعت الشعراء للتباري في قضايا عصرهم المتغيرة مرتحلين إلى الخيال بوصفه بوابة للإبداع والابتكار، مثل الذكاء الاصطناعي، والتنمية، والاستدامة، والبيئة؛ ليخطوا بذلك ديواناً جديداً للعرب يحكي للأجيال المقبلة وقائع عصر استثناف الحضارة.

يعود إليك الفضل في تأسيس دراسات المرأة والثقافة أثناء عملك بالسلك الأكاديمي بجامعة الإمارات، أي القناعات تقف خلف هذه المبادرة الجريئة؟

بداية، لا بد من القول إن واقع المرأة الإيجابي في دولة الإمارات أسهم في ظهور هذا التخصص الفرعي عن دراسات المرأة، وسعيت لتأسيسه في جامعة الإمارات تحت عنوان « المرأة والثقافة «، لأنه يعدّ من أولى التخصصات في الجامعات العربية، ولا شك في أنني وجدت الحافز والقدوة لذلك في ما أرسى الأب المؤسس الشيخ زايد رحمه الله من ركائز تمكين المرأة في الإمارات، وآمن بدورها كشريك أساسي في المجتمع، وأكد على حقها في التعليم والمشاركة السياسية والاقتصادية، ودعم تأسيس الجمعيات النسائية، ورفعها لشغل المناصب القيادية لتصبح المرأة الإماراتية شريكاً فاعلاً في مسيرة التنمية الوطنية، مُحدثاً نقلة نوعية في مكانتها، ولا نغفل أثر وجود قدوة إماراتية بارزة تتمثل في أم الإمارات سمو الشيخة فاطمة بنت مبارك رئيسة الاتحاد النسائي العام رئيسة المجلس الأعلى للأمومة والطفولة، الرئيسة الأعلى لمؤسسة التنمية الأسرية، وما تقدمه من دعم دائم لتمكين المرأة الإماراتية في المجالات كافة، والمساهمة في تحقيق طموحاتها وتطلعاتها. لذا وجدت أن دوري وواجبي الدعوة لوجود قسم يعتني بدراسات المرأة والثقافة في جامعة الإمارات، لتساعد في إثراء هذه الروح وتعين الطلاب على اكتشاف مناظير جديدة لتحليل الظواهر الثقافية مرتبطة بالبيئة الإماراتية، وتنمية القدرة على قراءة النصوص وتأويلها، كما أنه يساعد المرأة على الإبداع لأنه يُعنى بدور المرأة في التاريخ والإعلام والأدب.

توليت وما زلت تتولى العديد من المشاغل العامة والإدارية في بلادك، إلى أي حد تصرفك هذه المسؤوليات عن شغفك البحثي والتأليفي والإبداعي؟

من الثوابت أن العمل في الشأن العام يتطلب تغليب المصلحة العامة، ثم، يأتي التخطيط وتنظيم الوقت، للمساعدة في تحديد المهام والمتطلبات، لتفادي تراكمها، وتحقيق التوازن بين المسؤوليات الإدارية، والكتابة الإبداعية.

ولعلي أجد في الانخراط في العمل الثقافي - على ما يستهلكه من وقت - حافزاً مهماً على الانشغال بالحياة ومستجداتها، ومتابعة التطورات في القطاعات ذات الصلة، وكذلك أجد متعة في اقتراح ومتابعة إنتاج الإصدارات المميزة للمركز سواء المترجمة عن لغات أخرى ضمن مشروع «كلمة للترجمة» الرائد والفريد، أو المؤلفة بالعربية ضمن مشروع «إصدارات»، أو «سلسلة البصائر» التي تنشر الأعمال الفائزة في برنامج المنح البحثية وغير ذلك.

> **دور الإعلام لا يقل عن دور التعليم في تنوير العقل وصناعة بناء مجتمع المعرفة، ووسائل التواصل الاجتماعي تأتي في صدارة الإعلام الجديد**

أجد في هذا الانشغال الفكري والعمل الثقافي وقوداً يعينني على استكمال العمل في اهتماماتي البحثية ناقدا متخصصا، والتركيز على مشروعي الراهن المتعلق بإعادة تقديم حياة وأشعار شاعر العربية الأول «أبو الطيب» من مداخل جديدة تناسب معطيات العصر وعلومه.

كونك عاشقا للشعر، هل يزعجك الطوفان الروائي الذي يكاد يملأ معارض الكتاب ودور النشر والطباعة؟ أم أنك ترى الأمر من زاوية أخرى؟

عاشق الشعر عاشق للجمال في كل تجلياته، فكما يسعدني أن يزدهر الشعر أفرح بازدهار السرد والتشكيل والدراما وكل الفنون التي هي بالأساس ركائز نهضة وارتقاء المجتمعات والحضارات. وعندما يتعلق الأمر بالرواية فإنه لا يجوز لنا أن ننظر إلى ما يشهده الفن الروائي من غزارة وحيوية على المستوى العربي إلا بعين الرضا أولاً، كونها ظاهرة صحيّة تتعلق بالقدرة على التعبير والتواصل عبر وسيط فني. بعد ذلك من المقبول أن نتحدث تفصيلياً من داخل الفن نفسه، باستخدام أي من المناهج النقدية المتاحة أو باستخدام مزيج من هذه المناهج أو بابتكار زوايا نظر جديدة.

وبوصفي ناقداً متخصصاً في السرد؛ فإنني أرصد بعناية مسار التحولات في الرواية العربية منذ أطروحتي العلمية التي تتبعت فيها منجز الرواية من النوع السردي القاتل إلى جماليات العالم الثالث بالتطبيق على تناول النقاد لإنتاج نجيب محفوظ، وأستطيع أن أقول إن الرواية العربية شهدت انتقالات بارزة على صعيد الفن وعلى صعيد القضايا التي تتناولها يضعها في مصاف تجارب العالم السبّاقة في هذا الفن. وهو أمر طيب من كل جوانبه.

ظل الحديث عن أزمة النقد حاضراً في أروقة الثقافة والأدب منذ سنوات طويلة، إلى أي حد أنت راضٍ كناقد عن الإسهام النقدي في الحراك الثقافي والأدبي؟

قطعت الحركة النقدية في البلاد العربية ومنطقة الخليج العربي؛ شوطاً كبيراً، وبرزت أسماء مهمة في مجالها. لكن لا يزال النقد عربياً في حاجة إلى جهود أعمق على صعيد التنظير، أما على صعيد التطبيق فهناك بلا شك تجارب مهمة ومؤثرة، نحتاج لمزيد من الفهم والاستيعاب للمفاهيم النقدية الحديثة/ لنستطيع أن ننتج ما يناسب تجاربنا وثقافتنا بما تتضمنه من منظومات قيم ومبادئ ورؤى، كي يصبح للنقد الأدبي دور أكثر فاعلية في الحراك الثقافي؛ فالنقد بلا شك صار شكلاً من أشكال الابتكار والتفكير الإبداعي.

استغرقك مركز أبو ظبي للغة العربية في السنوات الأخيرة، أي الأحلام والأشواق تحملها شخصياً بوصفك رئيسا للمركز تجاه لغة الضاد؟

نجح مركز أبوظبي للغة العربية خلال سنوات قليلة من تأسيسه في إحداث نقلة نوعية في التعامل مع اللغة العربية، مؤكداً أنها ليست مجرد وسيلة تواصل، وإنما لغة فريدة تزخر بما يحتاجه العالم من كنوز علم وفنون وإبداع وابتكار تعزز قيم التسامح والتعايش والمثاقفة التي تحقق الخير للإنسانية، وتعزز مسيرة استئناف الحضارة التي تقودها دولة الإمارات وعاصمتها أبوظبي في ضوء الرؤية الحكيمة لصاحب السمو الشيخ محمد بن زايد رئيس الدولة - حفظه الله - لإثراء الحوار بين الحضارات وجعل التسامح مبدأً عالمياً.

> **تمتع المتنبي بقدرة فريدة على رؤية العالم والتعبير عنه بطرق لم تعهدها العرب**

بعد هذا العمل التأسيسي الذي ارتبط معه اسم مركز أبوظبي للغة العربية بالجهود النوعية الرامية لتعزيز حضور اللغة العربية لغة للمعرفة، والإبداع والابتكار، في المجالات كافة: الثقافية والأكاديمية والعلمية والفنية، يقود المركز جهوداً متكاملة لضمان استمرارها وتطوّرها أداة فعّالة تواكب العصر وتستجيب لتحدياته من خلال استثمار التكنولوجيا والذكاء الاصطناعي وتسخيرهما في خدمة اللغة العربية وصون تراثها العريق.

> **أنظر بعين الرضا لما يشهده الفن الروائي من غزارة وحيوية**

انطلاقاً من إدراكنا أهمية رفع مستوى تمثيل اللغة العربية، والتعريف بذخائرها العلمية، والمعرفية، والفنية في العصر الرقمي، يواصل مركز أبوظبي للغة العربية مبادراته ومشاريعه الهادفة إلى ضمان استدامة القطاع الثقافي والإبداعي والارتقاء به إلى أفضل المستويات، وتعزيز حضور اللغة العربية، المكوّن الأبرز في الهوية الثقافية.

ومن أبرز مشاريعه في هذا الصدد: مبادرة التحوّل الرقمي التي تشمل الكتاب الإلكتروني والمسموع والمعزز بالذكاء الاصطناعي، منح التحويل الرقمي التابعة لمبادرة أضواء على حقوق النشر، الموسوعة الشعرية، موسوعة كنز الجيل، مشروع بارق للانقرائية، معجم دليل المعاني الإلكتروني، مختبر الذكاء الشعري، وغيرها من مبادرات تخدم تعزيز حضور اللغة العربية في العصر الرقمي.

ربطتك علاقة خاصة جداً بعدد من المبدعين الراحلين، سنختار ثلاثة منهم د. صلاح فضل، د. عبد الملك مرتاض، سعادة محمد خلف المزروعي، ما الذي يمكن أن تقوله عنهم؟

هذا السؤال يبعث على الحزن والشجن، رحمهم الله جميعاً. ربطتني بهم جميعاً علاقات صداقة وأخوة، وأقف منهم جميعاً موقف الأخ الأصغر الراغب في التعلم من خبراتهم كل في مجاله. تخذلني العبارة، كلما أردت الكتابة عن الصديق الراحل محمد خلف المزروعي، لقد كان -رحمه الله- شخصية بالغة الثراء والبساطة في وقت واحد، والحديث عن شخصية بهذا الوزن والحضور والتأثير شديدة التعقيد، لذا سأكتفي بتكرار المقولة التي دأب على تكرارها لنا فيما يشبه الوصية التي تنمّ عن شدّة التواضع والفهم الواسع لدوره وعمله «لا أريدكم أن تكتبوا عني، فكل ما أتطلع إليه أن تكتبوا عن الفعل والعمل إحياء لثقافتنا وتراثنا». وأنا مؤمن بأن عملنا الجاد في القطاع الذي وهبه حياته نوع من إحياء ذكراه الطيبة.

> **كان محمد خلف المزروعي شخصيةً بالغة الثراء والبساطة في وقت واحد**

أما شيخ النقاد العرب الدكتور صلاح فضل؛ فقد كان نعم الصديق والأخ والمعلم، عرفته إنساناً فاضلاً وعالماً كبيراً قدّم الكثير لمركز أبوظبي للغة العربية خلال عضويته للجنة العلمية، وقدم الكثير لبرنامج «أمير الشعراء» لما يزيد عن عقد من السنوات، لقد لمست في كل حواراتي معه عمق محبته للشعر، وكان يرى أن برنامج «أمير الشعراء» مدخل مهم لإعادة الشعر إلى مكانته الطبيعية التي يستحقها، كان ناقداً ومفكراً تنويرياً كبيراً منحازا

د. محمد خلف المزروعي

د. صلاح فضل

> **اللغة العربية لغة فريدة تزخر بما يحتاجه العالم من كنوز علم وفنون وإبداع وابتكار وتعزز قيم التسامح والتعايش والمثاقفة التي تحقق الخير للإنسانية**

لنظرية النقد المعاصرة في تحليل الخطاب، محباً للإمارات ولأهلها، ولا أنسى ما حييت ما فاض به من محبة وإجلال تجاه دولة الإمارات خلال عيادتي له في مرضه الأخير في بيته بالقاهرة. لقد فقدت برحيله الحياة الثقافية العربية رمزًا من رموزها الكبار، الذين أخلصوا الجهد وصدقوا البذل والعطاء. والأمر كذلك مع الباحث الرصين، والناقد والأديب، الأستاذ الدكتور عبد الملك مرتاض الذي ترأس المجلس الأعلى للغة العربية في الجزائر، وله أياد بيضاء في التدريس الجامعي. تخرجت على يديه أجيال من الباحثين، في حقل الدراسات النقدية وفي تقنيات السرد ونظرية الرواية، وفي الأنشطة الثقافية الهادفة للارتقاء بذائقة المجتمع وتمتين أسسه المعرفية، شرفت بزمالته في لجنة تحكيم أمير الشعراء لسنوات - رحمه الله -.

في تقديرك، هل أفادت وسائل التواصل الاجتماعي الآداب أم أضرّت بها؟

دور الإعلام لا يقل عن دور التعليم في تنوير العقل وصناعة بناء مجتمع المعرفة، ووسائل التواصل الاجتماعي تأتي في صدارة الإعلام الجديد، لابد من التعامل معها وفق هذه الرؤية وإلا صرنا مخطئين في حق أنفسنا وثقافتنا. علينا أن نكون إيجابيين وأصحاب مبادرة حتى نجني الثمار من هذه الوسائل التي بلا شك تغيرت معها طبيعة التلقي وطبيعة الرسائل.

دورنا هو تحري أفضل الطرق للإفادة من هذه الوسائل وغيرها مما يُستجد، في نشر الوعي الثقافي، وتقديم النماذج الإيجابية التي تبني الشخصية، وتصنع القدوة، وتعزز حضور السردية الإماراتية بما تتضمنه من منظومة قيم العالم في أشد الاحتياج إلى تفعيلها وتبنيها اليوم في حوار ثقافي منفتح، ونسعد بأن يكون مركز أبوظبي للغة العربية بنجاحه في التعامل مع وسائل التواصل الاجتماعي وبما يديره من مشاريع ومبادرات رافداً ودافعاً لهذا الحوار الثقافيّ المهم في إطار الرؤية الحكيمة لقيادة دولة الإمارات والعاصمة أبوظبي وجهودها المبذولة من أجل إثراء الحوار بين الحضارات وجعل التسامح مبدأً عالمياً.

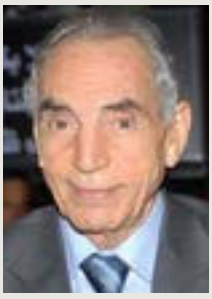

د عبد الملك مرتاض

أبو الطيب المتنبي

هل تعتقد أن الشعر العربي بخير؟

يقول الشاعر العباس بن الأحنف قبل حوالي ألف عام: أَلا إِنَّ نَفْسَ الشِّعْرِ ماتَتْ، وَإِنْ يَكُنْ عَداهَا حِمَامُ المَوتِ فَهْيَ تُنَازِعُ. قد يبدو للقارئ أنه يرثي الشعر، فهل مات الشعر العربي؟ إلا أن الفكرة في البيت تأكيد على أن الشعر لا يموت إنما هو في حالة مقاومة مستمرة للموت؛ لأن الشعر هو قوة المقاومة والبقاء بالتعبير عن الحياة، وهذه الحياة تتطور وتتغير ألوانها واشكالها وتتبدل أحوالها، ومعها يتطور الشعر ويتبدل ويغير حلله وألوانه وأغراضه ليتمكن من التعبير عن الحياة.

”

المكانة التي أسسها الشيخ زايد للمرأة الإماراتية ورعتها سمو الشيخة فاطمة بنت مبارك هي التي شجعتني على تأسيس قسم خاص بالمرأة والثقافة بجامعة الإمارات

لذلك، نعم الشعر العربي بخير، وأجده ما يزال أبرز طرق التواصل الإبداعية، والأكثر تأثيراً في النفوس، وأمسياته هي الأكثر استقطاباً للجمهور. ونحن في المركز نرى الشعر أحد السبل المميزة لتحقيق النجاح وإحداث الأثر المجتمعي في قطاع الصناعات الثقافية، لهذا نوليه اهتماماً خاصاً ضمن خطط النشر، والتحول الرقمي، وبرامج استثمار تطورات الذكاء الاصطناعي، لخدمة الشعراء المخضرمين والشباب، والباحثين المختصين في الشعر العربي والشعبي.

ما يزال الشعر أبرز طرق التواصل الإبداعية، والأكثر تأثيراً في النفوس، وأمسياته هي الأكثر استقطاباً للجمهور

وثمة ما هو مهم هنا، وهو ضرورة أن يستمر تقريب الشعر إلى نفوس الأجيال الجديدة، بكل الوسائل، سواء من خلال دعم المواهب الشابة، وتشجيعهم عبر مسابقات وجوائز، وإقامة أمسيات شعرية، وطرح إصدارات، أو عبر طرق مبتكرة تناسب العصر، ليتابعوا بتجاربهم ما بناه الآباء والأجداد من شعر نفخر به، ويشكّل أهم الإبداعات لدى العرب.

نحن نريد للشعر العربي أن يزدهر ويتطور، سواء بتزايد عدد الشعراء الواعدين، أو بظهور أنماط شعرية جديدة تتسم بالانفتاح وتحرير الخطاب الشعري وطرق أشكال تعبيرية مختلفة، وبُنى جديدة.

نبذة عن مركز أبوظبي للغة العربية:

تأسس مركز أبوظبي للغة العربية، الذي يتبع دائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي، بموجب قانون صادر عن رئيس الدولة لدعم اللغة العربية، ووضع إستراتيجيات عامة لتطويرها والنهوض بها علمياً، وتعليمياً، وثقافياً، وإبداعياً، وتعزيز التواصل الحضاري، وإتقان اللغة العربية على المستويين المحلي والدولي، بالإضافة إلى دعم المواهب العربية في مجالات الكتابة، والترجمة، والنشر، والبحث العلمي، وصناعة المحتويين المرئي والمسموع، وتنظيم معارض الكتب، ودعم صناعة النشر في المنطقة، ولتحقيق ذلك يعتمد المركز على برامج متخصصة، وكفاءات فذة، وشراكات مع كُبريات المؤسسات الثقافية والأكاديمية والتقنية حول العالم، انطلاقاً من مقره في العاصمة الإماراتية أبوظبي.

نبذة عن دائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي:

تتولى دائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي قيادة النمو المستدام لقطاعي الثقافة والسياحة في الإمارة، وتغذي نمو العاصمة الاقتصادي، وتساعدها على تحقيق طموحاتها وريادتها عالمياً بشكل أوسع.

ومن خلال التعاون مع المؤسسات التي ترسخ مكانة أبوظبي وجهة أولى رائدة؛ تسعى الدائرة إلى توحيد منظومة العمل في القطاع حول رؤية مشتركة لإمكانات الإمارة، وتنسيق الجهود وفرص الاستثمار، وتقديم حلول مبتكرة، وتوظيف أفضل الأدوات والسياسات والأنظمة لدعم قطاعي الثقافة والسياحة.

وتتمحور رؤية دائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي حول تراث الإمارة، ومجتمعها، ومعالمها الطبيعية. وهي تعمل على ترسيخ مكانة الإمارة وجهة للأصالة والابتكار والتجارب المتميزة متمثلة بتقاليد الضيافة الحية، والمبادرات الرائدة، والفكر الإبداعي.

الفن التقليدي لنسج السجاد - أذربيجان - قائمة الإيسيسكو للتراث في العالم الإسلامي

ملف العدد

السرديات وسؤال الهوية

تأمّلات حول السرد، والهوية، والتهجين السرديّ

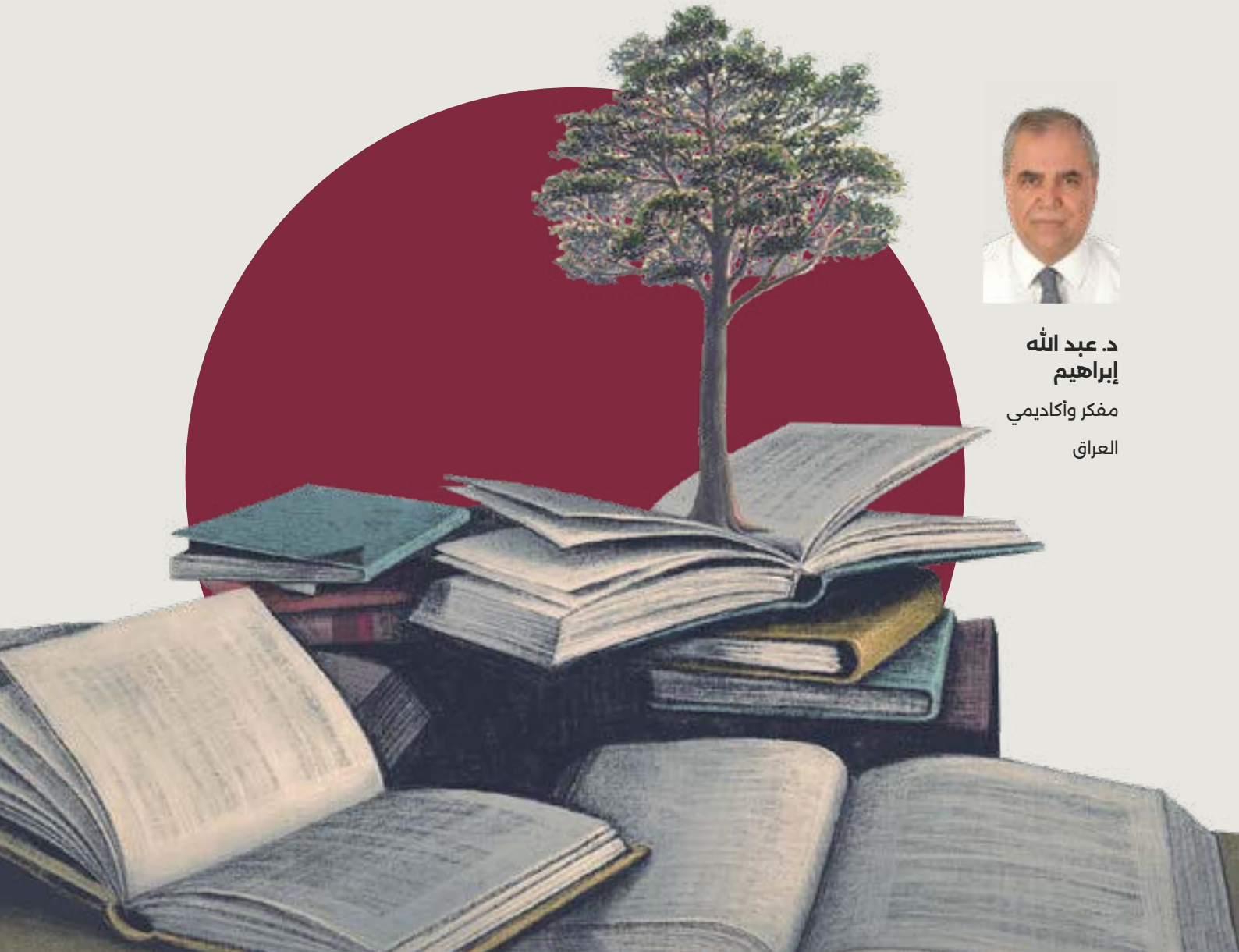

د. عبد الله إبراهيم
مفكر وأكاديمي
العراق

لا تقوم الهوية على التخييل السردي الصرف ولا على التمثيل السردي الخالص، فهي تنبثق من تهجين يجمع بينهما

1. مدخل إلى السرد، والهوية، والتهجين

ليس السرد رواية للأحداث، بل هو الوسيلة التي تُصاغ بها هويات الأفراد والجماعات، فالهوية لا تسبق التجربة، إنما تتشكل داخل إطار سردي يدمج الوقائع المبعثرة، ويمنحها معنى وغاية. ولا تقوم الهوية على التخييل السردي الصرف ولا على التمثيل السردي الخالص، فهي تنبثق من تهجين يجمع بينهما، ليعكس في آنٍ واحد أحوال الفرد والمجتمع، ويجعل الهوية نتاجًا مستمرًّا لعملية سردية مفتوحة. ويقصد بالتهجين المزج، والخلط، والدمج. وكانت الثقافة العربية، في الماضي، تزدري التهجين، لأنها تقول بالتفرد، ولا تقر بالتداخل. وفي اللغة فإن «الاستهجان» تعبير عن استقباح المختلط الذي هو نقيض الصافي. وصار ينبغي الأخذ بالتهجين الذي هو من لوازم الحياة، وعليه، فالتهجين بين الأنواع السردية ضرورة من ضرورات السرد. أريد من ذلك القول بأنّ التهجين السردي هو السبيل لبناء هوية متنوّعة الموارد لا تنحبس في العرق ولا في الدين ولا في اللغة، ولا في الأدب، فالهوية تقترض من ذلك، ولكنها فوق كل ذلك، وكما يشمل ذلك الأمم، فأنه يشمل الآداب.

فهل عرف السرد العربي الحديث التهجين بين الأشكال السردية؟ أجيب على ذلك بالتقريب الآتي: نعم، حدث ذلك بين نوعي الرواية والسيرة، ونتج عنه تركيب ثالث بمسمّى مزدوج الهوية ما برح يتأرجح بين «الرواية السيرية» و«السيرة الروائية». ولذلك أهمية بالغة لأنه أسهم في بناء هوية مركّبة توافق تهجينه. ومع صعوبة رسم حدود فاصلة بين موارد ذلك الضرب من الكتابة الذي يتنزّل في التخوم الواصلة بين الرواية والسيرة، فمن المتاح، نظريا، إبداء الرأي في ذلك بناءً على تقدير حصة الروائي والسيري فيه، فيندرج في إطار «الرواية» إن غلبت فيه السمة الروائية على السيرية، ويندرج في إطار «السيرة» إن غلبت فيه السمة السيرية على الروائية. ولمّا كان ذلك عسير التحقّق من ناحية نقدية، فلا بدّ من أداة تمييز تقطع بالأمر، وهي «الميثاق السردي» وهو اتفاق ينعقد بين المؤلف والقارئ حول هوية النصّ السردي، ففي السيرة يقتضي ذلك الميثاق التطابق بين المؤلف والراوي والشخصية، بما يعطي مصداقية في تمثيل العالم الخارجي، أمّا في الرواية، فالميثاق يُلزم القارئ بعدم تصديق الأحداث، بما يسمح للنص ببناء عوالم متخيّلة، فتتأكّد أهمية الميثاق في التمييز بين الأنواع السردية، وفي الكشف عن معرفة التخوم الفاصلة/ الواصلة في النصوص الهجينة كالرواية السيرية أو السيرة الروائية. وذلك، بالإجمال، ما انتهى«لوجون» إليه.

وباستقصاء أمر البحث في هذا الشكل السردي المهجّن إلى نهايته، نخلص إلى نتيجتين اثنتين: كلما زادت حصة الوقائع الذاتية، ووقع التركيز على التجربة الشخصية للمؤلف من دون أن يقصد توثيق تجربته الذاتية توثيقا دقيقا، فنحن بإزاء شكل يندرج في إطار «السيرة الروائية»، وكلما انقلبت الحال، وزادت حصة الوقائع المتخيلة، وأحجم المؤلف عن جعل نفسه مركزا للسرد، مع أنه ينهل من مجموع تجارب حياته، فنكون بإزاء شكل يندرج في إطار «الرواية السيرية»، ونزوع الكتّاب نحو استلهام تجارب حياتهم يدفع بهم للمراوحة بين هذا وذاك، فإن زادوا في الافصاح كتبوا سيرا روائية، وإن زادوا في التكتم كتبوا روايات سيرية.

عرف السرد العربي الحديث التهجين بين الأشكال السردية فقد حدث ذلك بين نوعي الرواية والسيرة، ونتج عنه تركيب ثالث بمسمّى مزدوج الهوية ما برح يتأرجح بين "الرواية السيرية" و"السيرة الروائية"

والحال، فالتمييز القاطع بين الحدود أقرب إلى المحال، لأنه يرتبط، في آن واحد، بمحدّدات ثلاثة: الكاتب، والمتلقّي، وأعراف الكتابة والقراءة، فإن قصد الكاتب إلى كتابة سيرته، ورجح لدى القارئ إنها سيرة، وكانت حصة أعراف كتابة السيرة فيها مهيمنة، فتُنسب إلى نوع السيرة داخل جنس السرد، وإن رجح لدى القارئ إنها رواية، وكانت حصة أعراف كتابة الرواية هي الغالبة، فتُنسب إلى نوع الرواية داخل جنس السرد. إذن، يتعيّن التفريق بين الرواية والسيرة

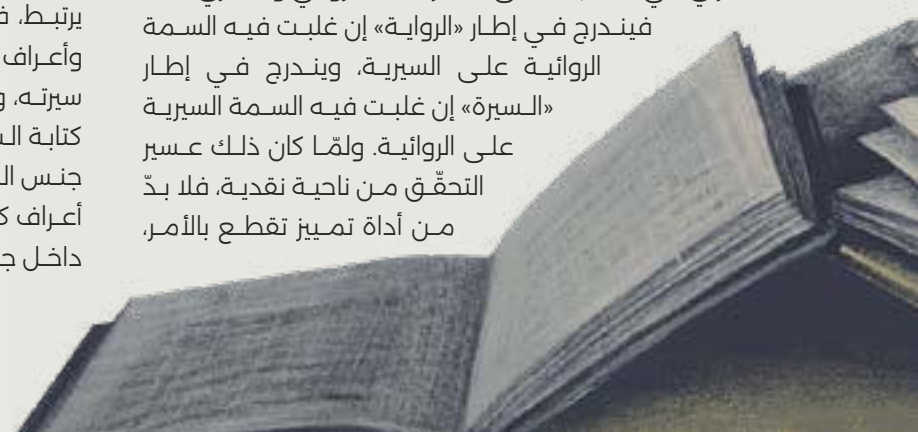

لا يخفى التطابق، في رواية «زينب» لمحمّد حسين هيكل، بين شخصيّة بطل الرواية «حامد» وشخصيّة هيكل المؤلّف الشاب

في ضوء العقد الذي يبرمه كاتب الرواية مع القارئ، والعقد الذي يبرمه كاتب السيرة مع القارئ. وينبغي القول بأن غموض الهوية السردية لهذا النوع من الكتابة، وعدم القدرة على الجزم النهائي بها مصدر ثراء لها، وليس مصدر فقر، فالإبداع السردي أحد ثمار المرونة في التأليف، وليس من نتاج التقنين المفرط فيه.

فاطمة المرنيسي

لوجون

ومن خضم ذلك الاقتراض المتفاعل ظهر الشكل الجديد في الكتابة السردية، وراح يجتذب إليه طيفا واسعا من الكتاب، فهو يعفيهم من مسؤولية صدق القول في السيرة، ولكنه لا يرميهم بتهمة الاختلاق في الرواية، وبالتالي، فهو تلطيف لما هو ناتئ في مكوّني الرواية والسيرة، فيتيح للكاتب أن يتصل وأن ينفصل عمّا يريد قوله من دون مساءلة في مجتمعات كثيرة الارتياب بالقول السردي، وتجعل من المتخيّل، غالبا، وثيقة على صدق التجارب، فتحاسب الكتّاب على خيالاتهم. ولكن ما هو موقع كتابة عابرة للرواية والسيرة معا، ومتجاوزة لهما، ولا تأخذ صراحة لا بميثاق هذه ولا بميثاق تلك؟ تحتاج تلك الكتابة إلى ميثاق جديد يعرّف بها، ميثاق يجمع بين الإمكان والاحتمال؛ حيث يدلّ الإمكان على احتمال وقوع الأحداث، فيما يرجّح الاحتمال إمكانية وقوعها، فهو يحدّد ما يمكن أن يقع وما يحتمل وقوعه، ويفوق هذا الميثاق في فاعليته السردية وظيفة العقدين السابقين، لأنه يفتح مدار السرد على العوالم الممكنة والمحتملة، وهو الموافق لهوية السرد ولوظيفته في بناء العوالم المتخيلة.

2. الرواية العربية وتجارب التهجين السردي

وصار ينبغي الإتيان ببيان أدقّ يطمح إلى أن يفسّر تلك العملية المعقدة في الكتابة السردية، فكلما جرى الحديث عن السيرة الروائيّة، أو الرواية السيرية، فيتعين تقدير أهمّيّة التجربة المستعادة بما يناسب متطلّبات الكتابة السردية، فما أن تصبح موضوعًا للسرد حتى يُعاد إنتاجها بشروط تختلف عن شروط وقوعها، فالوسيط السرديّ يعيد ترتيب العلاقة بما يوافق مقتضيات العالم المتخيّل. ففي السرد لا نكون بإزاء أحداث خام، وإنّما بإزاء أحداث تُقدَّم على نحو معيّن، فرؤيتان مختلفتان لواقعة واحدة تجعلان منها واقعتين متمايزتين. فهل يمكن العثور على ذلك التنازع بين الذاتي والموضوعي في السرد العربي الحديث بما يتيح الحديث عنهما، وعن التهجين الواقع فيهما، وإبراز هوية الكاتب ومجتمعه في العوالم المتخيّلة؟ ها هو بيان بذلك:

لا يخفى التطابق، في رواية «زينب» لمحمّد حسين هيكل، بين شخصيّة بطل الرواية «حامد» وشخصية هيكل المؤلّف الشابّ، ممثلة بالتأمّلات الفكرية عن التربية التي تقتحم مسار السرد، وتوافق منظور هيكل، ولم يمض وقت طويل إلاّ شاعت تلك الظاهرة بأكثر مما ظهر في « زينب»، فالمماثلة واضحة بين إبراهيم المازني وبطل روايته «إبراهيم الكاتب». وبعدها بسنوات قليلة أعاد طه حسين جانبًا من تجربته في «أديب»، وهو عمل سرديّ يختلف عن المسار الذاتيّ المباشر الذي استخدمه في سيرته الذاتية «الأيّام». وسرعان ما أقحم توفيق الحكيم المكوّن السيريّ في رواياته «عصفور من الشرق» و«يوميّات نائب في الأرياف»، حيث استلهم جوانب من تجاربه في فرنسا ومصر. ومع أنّ نجيب محفوظ كان يوارب في منح الجانب الذاتيّ سلطة الإعلان عن نفسه، فإنّ منظوره الفكريّ عن الدين والدنيا يتغلغل ويبرز أحيانًا، في تضاعيف «الثلاثيّة» و«اللصّ والكلاب» و«ثرثرة فوق النيل» و«حبّ تحت المطر»، وأفصح عن نفسه في «أصداء السيرة الذاتيّة».

وفي مرحلة لاحقة، وجد كثير من الروائيّين العرب في استخدام تجاربهم محاور أساسية لرواياتهم، واختلفت الكيفيّات في بناء تلك التجارب بين روائي وآخر، فشكّلت خلفيّات لا يمكن اختزالها لدى: جبرا إبراهيم جبرا في «صيادون في شارع ضيّق» و«السفينة «و«البحث عن وليد مسعود»، وفؤاد التكرلي في «الرجع البعيد» وسهيل إدريس في «الحيّ اللاتينيّ» وصنع الله إبراهيم في «تلك

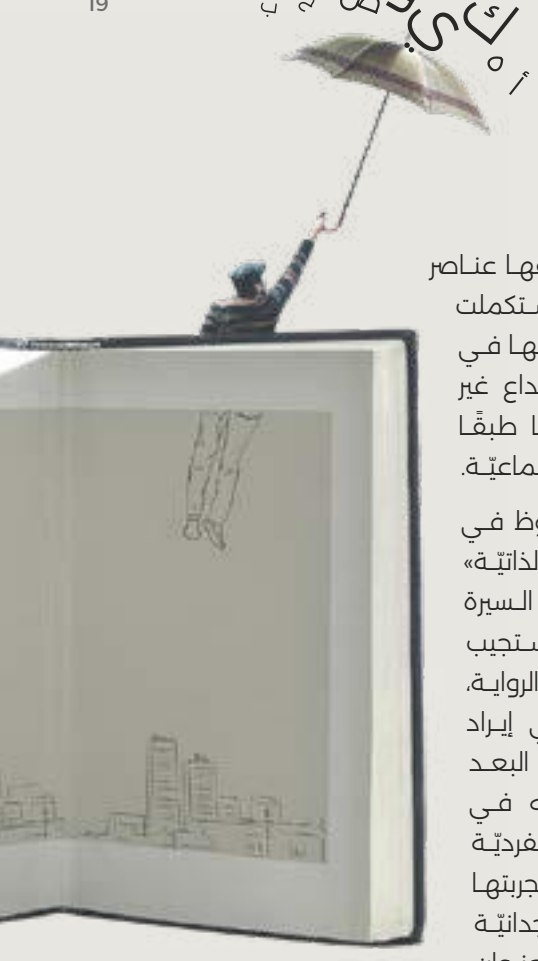

الرائحة» و«نجمة أغسطس»، وغالب هلسا في «الروائيّين» و«سلطانة»، وعبد الرحمن الربيعي في «الوشم» و«خطوط الطول..خطوط العرض». وإدوارد الخرّاط في «يا بنات إسكندريّة» ومحمد برّادة في «لعبة النسيان». لقد وجد المكوّن الذاتيّ حضوره في المادّة السردية، وظلّ يزداد ظهورًا في الرواية العربية حتى استبدّ بها، الأمر الذي أدّى إلى بروز مساحة كبيرة بين ما يمكن عدّه رواية محضة، وما يمكن عدّه سيرة ذاتية. وفي الآتي أمثلة دالّة على ذلك التهجين الذي أغنى السرد العربي الحديث روايةً وسيرةً:

أعاد محمّد شكري في «الخبز الحافي» استكشاف تجربة حياته في الطفولة والشباب بسيرة روائية، وبدا الاهتمام بالجسد طاغيًا. قام شكري بعمليّة مزدوجة: فهو من جهة تابع تكوّنه الجسديّ داخل النص الذي كتبه، ومن جهة ثانية استكشف وظائفه، ومارس السرد لعبة استرجاع، فهو يستحضر وقائع قديمة، وكأنّها تقع الآن، فوعي شكري بها بوصفه مؤلّفا، لا يتطابق معها حينما عاشها طفلاً وشابًّا، وقد جعلته الحركة المكّوكيّة ذهابا وعودة يوظّف الأسلوب الروائيّ في سيرته، فيظهر من جهة وثائقيّة أكثر طموحًا من سيرة مباشرة، وأقلّ تطلّعًا من رواية. وما يلاحظ هو أنّ التمثيل رجّح الجانب السيريّ، فقد مارس وظيفة تقرير الأشياء بدل الإيحاء بها، ومع أنّ المؤلّف أبدى حرصًا على تمثيل تجربته الذاتية، لكنه لم يقع ضحيّة إغواء التوثيق المباشر لها.

> **وجد كثير من الروائيّين العرب في استخدام تجاربهم محاور أساسية لرواياتهم، واختلفت الكيفيّات في بناء تلك التجارب بين روائي وآخر**

وكتبَ رؤوف مسعد روايته «بيضة النعامة» بأسلوب سيري بجعل ذاته مركزا للسرد، ففيها حفنة من تجاربه الشخصية في السودان ومصر وغيرهما، وقد تناثرت في النصّ من أوّله حتى نهايته، وقد نزل النصّ في منطقة تقاطع الرواية مع السيرة، لكنّه صاغ هويته رواية سيرية. وتمثّل الخروج على أعراف كلّ من الرواية والسيرة بتهشيمه للبناء التقليديّ، ولطرائق السرد الشائعة التي حلّت محلّها باقة من المستندات الشخصيّة كالمذكّرات، والأسفار، والرحلات، ورميت كلّها في النصّ بلا نظام، فالتقدّم والارتداد، والتجارب الحسّيّة التي تعرض بلا مواربة، تتناثر هنا وهناك، ويعاد إنتاجها بوصفها عناصر من رواية سيرية استكملت شروطها، وأنجزت ذاتها في الزمان، وأصبح الخداع غير ممكن في عرضها طبقًا لشروط الأعراف الاجتماعيّة.

وكتب نجيب محفوظ في «أصداء السيرة الذاتيّة» نصا يندرج في إطار السيرة الروائية، وهو لا يستجيب تماما لقواعد الرواية، فيغيب التدرّج في إيراد الأحداث، ويختفي البعد الذاتيّ الذي تمثّله في السيرة الشخصيّة الفرديّة وهي تعرض تجربتها الفعليّة والوجدانيّة والفكريّة، ومع أنّ العنوان «أصداء السيرة الذاتيّة» يدفع المتلقّي إلى اصطناع أفق انتظار خاصّ، بأنّه سيتعرّف نبذًا من التجارب والمواقف والآراء المتّصلة بالمؤلّف إلاّ أنّ المؤلف يفصل بين موحيات العنوان وجملة الإشارات التي يتضمّنها النصّ، إلى درجة يصعب فيها اختراق الحجب المحيطة بشخصيّة المؤلّف، فهو يلجأ إلى المواربة والإيحاء، ولا يميل إلى التقرير والإحالة.

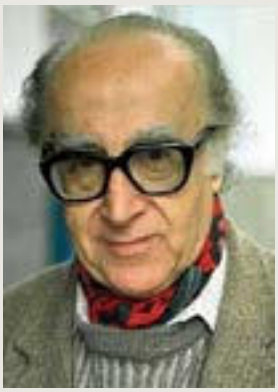

جبرا إبراهيم جبرا

حنّا مينه

وينبغي التريّث إزاء كلمة «أصداء» الواردة في العنوان، فوظيفتها مزدوجة، إذ هي من جهة أولى تخفّف من درجة التصريح بأنّ ما سيتضمّنه النصّ سيرة ذاتيّة، ولكنّ هذا لا يعني أنّها لا توحي بأنّ النصّ ليس سيرة ذاتيّة، ومن جهة ثانية، فإنّها تمارس فصلاً رمزيًّا بين ما يمكن توقّعه

مـن أحـداث مبـاشرة وأخـرى غير مبـاشرة، وفـي الأخير فـإنّ مـا ينتظـره المتلقّي هـو «أصـداء» لوقائـع، وليـس الوقائـع ذاتها، فالمؤلّف لا يريد الوقـوف على أحداث الدرجة الأولى، إنّه مهمـوم بأصداء تلـك الأحـداث، وذلـك الاختيـار غايـة فـي الأهمّيّـة لأنّـه بـذر تعارضًـا داخـل النسـيج الدلالـيّ للنـصّ، فالوجـه الأوّل لذلـك التعـارض يتّجـه إلـى أنّ النـصّ متّصـل بوقائع حياة المؤلّف، فللقارئ الحقّ في تلقّي النصّ كونه سيرة ذاتيّـة غير مبـاشرة إنّمـا جملـة أصـداء، والوجـه الثانـي يتّجـه إلـى دفـع النـصّ إلـى مضمـار التخيّـل الروائـيّ.

وفـي «بقايـا صـور» اسـتلهم «حنّـا مينـه» تجـارب طفولتـه القرويّـة قبـل مرحلـة الوعـي بهـا، فظهـر الـراوي وهـو يلتقـط وقائـع علقـت فـي ذاكرتـه. دمـج الـراوي مكـوّنين رئيسـيّين شكّلا متن النـصّ، أولهمـا مـا روي لـه، ومـا سـمعه مـن خلال وسـطاء، ومـا أضافتـه مخيّلتـه إلـى ذلـك، وبخاصّـة مرويّـات الأمّ: الخرافيّـة، والأسـطوريّة، والدينيّـة، والتاريخيّـة، أمّـا المكـوّن الثاني، فقوامـه المشاهدات، والملاحظـات، والتجـارب الأسرّيّـة التـي اسـتأثرت باهتمامـه، وهـي وقائـع وردت متسلسـلة ونظّمـت فـي إطـار الارتحـال الدائـم للأسرة، وبـدا الجانـب الوقائعـيّ فيهـا واضحًـا، فهـي توثيـق سرديّ لتجربـة الأسرة، ومحاولـة إعطـاء تلـك التجربـة بعـدًا واقعيًّـا، لكنهـا لـم ترتهـن بالتوثيـق المبـاشر لتجربـة الكاتـب.

وقدمـت فاطمـة المرنيسـي فـي كتابهـا «نسـاء علـى أجنحـة الحلـم» سيرة روائيـة عـن عالـم الحريـم فـي أربعينيّـات القـرن العشريـن فـي المغـرب، عُـرض ذلـك العالـم مـن خلال رؤيـة طفلـة فـي السـابعة مـن عمرهـا، صُرِّح باسـمها مرّة واحـدة «فاطمـة». ومثـل أيّ نـصّ يريـد إنتـاج سيرة روائيـة تتداخـل فيهـا مسـتويات الحقيقـة بمسـتويات التخيّـل، فإنّـه بقدرتـه البارعـة علـى الاخـتلاق أوهـم بالحقيقـة. حمـل النـصّ أفـكار المرنيسـي عـن المـرأة، لكنّـه عبّر عنهـا بتجربـة شـخصيّة للمؤلّفـة فـي طفولتهـا وصباهـا، وحـرص علـى إنـزال الأحـداث فـي إطـار تاريخـيّ، مـع التركيز علـى وقائـع الحـرب العالميّـة الثانيـة مـن خلال الوجـود الفرنسـيّ والإسـبانيّ والأمريكـيّ فـي المغـرب، والرسـالة التي تنبثـق مـن خضـمّ النـصّ أرادت كشـف النسـق الثقافـيّ السـائد فـي عالـم الحريـم، وفـي كشـف نمـط العلاقـات السـائدة فيـه، وفـي تـأثير العلاقـة المتكسّـرة بينـه والعالـم الخارجـيّ الـذي احتـلّ الرجـل المركـز الأساسـيّ فيـه.

> **قدمت فاطمة المرنيسي في كتابها «نساء على أجنحة الحلم» سيرة روائية عن عالم الحريم في أربعينيّات القرن العشرين في المغرب**

وقـدّم أمير تـاج السر فـي «مرايـا سـاحلية: سيرة مبكّـرة» سيرة روائيـة عـن بدايـات حياتـه، فعـدّ نصّـه مرايـا انعكسـت فيهـا تجربـة الطفولـة المبكّـرة فـي إحـدى مـدن السـاحل الشرقـيّ للسـودان، فانطلـق مـن الرؤيـة القائلـة بأنّ الأدب مرآة عاكسـة للتجـارب البشريّـة، ومـع ذلـك صرح بـأن النـصّ «سيرة مبكّـرة»، أراد بـه أن يصـف التكـوّن المبكـر لـه، ويقتضـي ذلـك أن يكـون هـو المحـور المركـزيّ فيـه، فالتسـمية تـشترط أن يكـون المؤلّـف هـو البـؤرة التي تصدر عنها وتتّجـه إليها كلّ مكوّنـات النـصّ. والتدقيـق فـي مرآويـة النـصّ كمـا أرداهـا المؤلّـف، والهـدف التوثيقـيّ لـه كونـه سيرة مبكّـرة، سينتهي إلـى نهايـة مغايـرة لـكلّ الإيحـاءات التـي يثيرهـا العنـوان، ذلـك أنّ القـول

> **يعدّ التمييز بين «الرواية السيرية» و«السيرة الروائية» مسألة دقيقة في حقل الدراسات السردية البينية، ويستند إلى نوع العلاقة بين المرجع الواقعي والتمثيل التخييلي**

بالوظيفة المرآويّة للنصوص الأدبيّة نُقض منذ أكثر من قرن، حينما اكتشف النقد عمق التباين بين العالميّن: العالم الواقعيّ المعيش والعالم السرديّ المتخيّل، مع أنّهما يوحيان بالتماثل إلى درجة يبدوان فيها متماهيين أحدهما بالآخر لدى المتلقّي العاديّ، إلاّ أنّهما شديدا الاختلاف فيما بينهما من ناحية المكوّنات والعناصر، فالعالم السرديّ الافتراضيّ تشكيل لغويّ يتكوّن في مخيّلة المتلقّي بالقراءة ولا وجود له قبلها، أمّا القول بأنّ النصّ سيرة مبكّرة فيصطدم بعقبات أكثر، وفي مقدّمتها المكوّن الحاسم، وهو غياب المؤلّف-الطفل، إذ يعدنا النصّ بأنّه سيرسم لنا سيرته كما هو مدوّن على غلاف الكتاب، وهو يستكشف ملامح منتقاة من الماضي.

3. تركيب ختامي: التهجين السردي، ومسألة الهوية

يعدّ التمييز بين «الرواية السيرية» و«السيرة الروائية» مسألة دقيقة في حقل الدراسات السردية البينية، ويستند إلى نوع العلاقة بين المرجع الواقعي والتمثيل التخييلي. كلا المصطلحين يقع عند التخوم الفاصلة والواصلة بين الرواية والسيرة، لكن لكل منهما دلالته ضمن الحقول الأجناسية. تشير الرواية السيرية إلى نصّ ينتمي أساسًا إلى الجنس الروائي، فيُبنى على وفق مقوّمات السرد التخييلي من حيث البنية، واللغة، والحبكة، والشخصيات، لكنه ينهل بدرجات متفاوتة من حياة الكاتب الذي لا يلتزم بالمطابقة المرجعية مع أحداث حياته، بل يستخدم عناصر منها كمادة خام، ثم يعيد تشكيلها روائيا بإخضاعها لأعراف التخييل. وغالبًا ما تُغيّر الأسماء، وتُركّب الأحداث، وتُدمج الوقائع بالابتكار، حيث تحضر الذات وراء قناع سردي لا يُعلن التعاقد السيري صراحة. أما السيرة الروائية، فهي سيرة ذاتية تستعير أسلوب كتابة الرواية، وفيها يجعل المؤلف من تجربته مدارا للكتابة، فلا ينفكّ عنها، ويُبرم عقدا مع القارئ على أن ما يُروى يعود إلى حياته، غير أنه لا يلتزم بميثاق السيرة القائل بحمل التجربة بأقرب ما تكون قد حدثت فيه، بل يجعل السرد محفلا لتمثيل الأحداث وتخييلها.

إذن، يستوعب المصطلح المركّب ذو الوظيفة المزدوجة وظائف السرد في كثير من النصوص، ويحلّ جانبًا من مشكلاتها النوعيّة الجديدة في السرد العربيّ الحديث، ويقرّر درجة الصلة مع الموارد التي تحدّر منها، إنّه فيما يخصّ أمر الوظيفة، يدمج بين الواقعي والتخيّليّ، ويرتّب العلاقة فيما بينهما على أساس التفاعل الذي لا يرهن نفسه بانتماء قاطع إلى أيّ منهما. وهو فيما يتّصل بإشكاليّة النوع يحيل على درجة الاستثمار الممكنة لمعطيات منجزة قدّمتها الرواية والسيرة عبر تاريخهما، وأخيرًا فيما يتعلّق بالأصول، يربط المصطلح تلك الممارسات النصّيّة بصلة نسب متشعّبة إلى أنواع لها موقعها المعترف به في تاريخ السرد. وفي كلّ ذلك، فلا ينظر للكتابة المتنزّلة بين حدّي الرواية والسيرة على أنها أداة لنقل الأحداث أو تسجيل الوقائع؛ فهي فضاء سردي تتشكل فيه الذات والجماعة، وإنتاج الهوية الذاتية أو الجماعية من أولى وظائفها، فالهوية ليست إرثا جامدًا، بل شبكة من العلاقات بين الفرد وتاريخه، ومحيطه الاجتماعي، وقيمه الثقافية، وتجاربه الشخصية والجماعية. ويتولّى السرد استخلاص الهوية من مجموع التجارب المرويّة.

وتتجلّى العلاقة بين السرد والهوية من خلال طريقة بناء الأحداث، والأسلوب الذي تُعرض به، والزاوية التي يُنظر منها إلى الوقائع، كلها عناصر تعكس رؤية الذات لنفسها ولمكانها في العالم. وفي ضَرب من السرد تشكّل الذات محوره يصبح السرد وسيلة تلك الذات لمساءلة نفسها، وإعادة تفسير تجربتها. ومن هذا المنطلق، يمكن القول إن الهوية والسرد في علاقة جدلية؛ فكلما تغيرت صيغة السرد، تتغير معالم الهوية، وتتوسع حدودها، كما أن الهوية نفسها تؤثر في شكل السرد وطريقته ومضمونه. ويصبح السرد حلقة ربط بين دائرة الفرد ودائرة المجتمع، بين الذاكرة الفردية والجماعية، فهو لا يسجّل الوقائع، ويدوّن الأحداث، بل يعيد صوغها لتكون قابلة للفهم والمساءلة. وفي كلّ ذلك يمكن النظر إلى السرد على أنه البنية الجوّانية للهوية التي تحتضن التجربة الإنسانية، وتدرجها في نظام من المعاني القابلة للإدراك والمشاركة.

يعرف المرء نفسه حينما يعيد تعريف هويته بالسرد، فيغادر حالة ما قبل الكتابة، ويبدأ النظر فيما كان عليه، وما هو عليه بعدها، وما يُحتمل أن يكون عليه في المستقبل، فيضع نفسه في نطاق مفتوح من التفاعل مع الآخرين ببناء هويته السردية، ولا يتمّ ذلك من دون الكتابة؛ فبالكتابة ينتقل المرء من مدار الصمت إلى مدار النطق. ولا يقتصر أمر إعادة تعريف الهوية بالكتابة على الأفراد، إنما يشمل الأمم التي من مجموع سرودها تنبني هوياتها، وذلك هو مدار السرد ونطاقه في بناء مفهوم الهوية.

ملف العدد

الهوية المتحرِّكة والدينامية في الثلاثية السيـرذاتية

لجـان-ماري لوكليزيو

د. محمد الداهي

ناقد وباحث في السيميائيات الذاتية

جامعة محمد الخامس

المملكة المغربية

راكـم جان-مـاري لوكليزيـو تجربـة روائيـة ثـرّة تتغـذى - بحكـم رحلاتـه وأسـفاره فـي أرجـاء المعمـورة - مـن روافـد ثقافيـة متعـددة، وتُقـدِّمُ معرفـة داخليـة وموثقـة عـن الشعوب الأخرى عـوض إسـقاط أفـكار جاهزة ومسـكوكة عليهـا، وتزكـي الطـرح الداعـي إلـى « مواطنـة كونيـة» تـيسر تفاهـم البـشر، وتبـادل الـخبرات والتجـارب، وتقاسـم المعـارف والمشـاعر فيمـا بينهـم حرصـا علـى السـلم المسـتديم.

يشـغل مشروعـه السيرذاتـي حيزا هامـا فـي خضـم هـذا التراكـم الروائـي المتنامـي بمـرور السـنين وتعاقـب التجـارب حرصـا منـه علـى إثبـات موقعـه الثقافـي والتلفُّظـي ضمـن تعدديـة صوتيـة متنافـرة ومتنابـذة، واتخـاذ المسـافة النقديـة حيـال «المركزيـة الغربيـة» و»الأطروحـة الاسـتعمارية»، واسـتعادة شـتات ذكرياتـه ولملمتهـا وفتلهـا بطرائـق سرديـة وفنيـة متنوعـة. وفـي هـذا الصـدد، يعـد كتابـه «الهويـة المُترحِّلـة» «2024» حلقـة مـن مشروعـه السيرذاتـي الـذي راهـن -مـن خلالـه- علـى اسـترجـاع حياتـه الماضيـة، واسـتيعاب هويتـه السرديـة، وإبـراز كينونتـه التـي تتفاعـل فيهـا مكونـات ثقافيـة مختلفـة ومتنوعـة، والحفـر فـي عالـم الطفولـة مسـتجليا هويتـه المركبـة والهجينـة والمتحركـة، ومقتفيـا آثـار والـده ومبينـا خصالـه وسـماته ومواقفـه النضاليـة الإفريقيـة «الإفريقـي2004»، وباحثـا عـن أصـول جـده فـي إحـدى جـزر موريـس «سـفر إلـى رودريغـس «1986»

1. السفر إلى رودريغز

أ-رحلة البحث عن الكنز المفتقد

سبق لجان- ماري لوكليزيو أن خصص رواية «الباحث عن الذهب» «1985» لاستعادة مغامرات جده فرنسوا أليكسي لوكليزيو ومطامحه وأمجاده بحثا عن الذهب، وتطلعا إلى تحسين نمط عيشه. يأتي عمله الموالي«[1]» ثمرة سفر قاده إلى الجزيرة نفسها لفهم حياة جده وفلسفته في الحياة، واقتفاء أثره سعيا إلى العثور على الكنز المفقود. حمل معه خارطة للاستئناس بها في استقصاء جبال الجزيرة ووديانها ووهدانها، والتحري في طبيعة جغرافيتها وتكوينها الجيولوجي، ومعرفة أنواع نباتاتها وحيواناتها وطيورها، وتفقد الأمكنة التي سبق لجده أن ارتادها.

عاش السارد في الثامنة من عمره في مدينة أوكوجا غرب نيجيريا والتي كان والده يعمل بها طبيبا

لا يعرف الحفيد شيئا يذكر عن جده، لذا اضطر إلى اعتماد مخلفاته «رسائل، خرائط، رسومات، تصاميم، خطاطات، مسودات مشفرة، صور» ، وتفقد قسم المحفوظات في باريس ولارينيون، وسانت دوني، وآنز أونكلي «aux Anse Anglais»«[2]» لعله يهتدي إلى ضالته، ويصل إلى مراده وهدفه، كما استعان- في الوقت نفسه- باليوميات التي اعتاد جده تدوينها وتنقيحها على فترات متباعدة منذ أن استقر بجزيرة رودريغز عام 1903، مع العلم أنه سبق له أن زارها من قبل لأداء واجبه المهني عام 1902. «في أي سنة ذهب إلى رودريغز أول مرة؟ دوَّنَ نصه التوضيحي المتعلق بكنز رودريغز عام 1902. وهو النص نفسه الذي عدّله وأضاف إليه أشياء جديدة بفضل التصحيحات التي لازمته حتى عام 1926؛ في حين كان سفره أول مرة إلى رودريغز في شهر أبريل من عام 1902 في مهمة رسمية بصفته قاضيا، وحاكما عاما على الجزيرة إلى غاية شهر يونيو من العام نفسه»«ص.58».`

يتمثل الكنز بالنسبة للحفيد في اقتفاء أثر جده والطوفان بأرجاء جزيرة رودريغز بدءا من منزل أوريكا«Eureka» الذي

1 Jean-Marie Le Clézio, Voyage à Rodrigues, Gallimard, coll.folio, 1986.

2 مدينة صغيرة على ضفاف المحيط الهندي بجزيرة رودريغز التابعة لدولة موريس

جـان-ماري لوكليزيو

ولد به، وترعرع فيه أطفاله إلى أن اضطر إلى مغادرته عام 1910، وأضحى – مع الزمن -يشكل لأهله وذريته مركزا للعالم. انتاب الحفيدَ شعورٌ غريبٌ بتفقد هذا الطلل الذي ما فتئ يشغل مكانا رفيعا في مخيلة أفرادها وذاكراتهم، ويستقطب الزوار بعد ترميه وتحويله إلى مأثرة وتحفة تاريخية. «عليَّ أن أعود إلى هذا البيت لأنه المكان الأكثر أهمية عند عائلتي. في هذا البيت، عاش أبي، وجدّيَّ «كانا أخوين شقيقين»، ووالديْ جدي « السيد أوجين» وجده الأكبر « أوجين الأول» الذي شيد البيت عام 1850. إنه منزل خرافي. كل ما سمعته عنه يوحي بأنه منزل مفتقد» «ص.125».

قضى فترة من عمره في الكاميرون لمعالجة المرضى في المناطق النائية مؤديا واجبه بإخلاص غير عابئ بابتعاده عن أهله، وبالأخطار المحدقة به

ب-فقدان الأمل

بقدر ما وفرت الطبيعة للحفيد مجالا خصبا ورحبا للتأمل والتذكر والاستمتاع من شدة التعلق بها، والإعجاب بمناظرها الخلابة والبهية، لم تسعفه مخلفات جده على التقدم في أداء مهمته بالنجاعة المطلوبة. كلما توغل في ربوع الجزيرة

إلا وتأكد من تلاشي الأمل، ومن صعوبة العثور على الكنز كما توقع وتوهم في البداية. «لا تفضي الأحلام كلها إلى أي شيء»« ص.137». هذا هو الوهم الذي توصل إليه الجد وحفيده بعد نفاد صبرهما، بدعوى أن الباحث عن الذهب هو «باحث عن الأوهام» «ص.26». لمّا تيقنا من فشلهما، عاد كل واحد منهما إلى ذاته لاستعادة أحلامه الهاربة، واستجلاء طويته. انتابتهما حسرة بعدما تأكدا من تعذر العثور على الكنز الذي أخفاه القراصنة في مكان ما بالجزيرة.

> **تغيرت مواقفه وأحاسيسه تجاه إفريقيا التي كانت بالنسبة له مكانا آمنا ومستقرا، ومبعثا للافتخار والاعتزاز إلى درجة أنه فكر في نقل أسرته إليها**

تقترن نهاية كل سفر بالحزن بصفته علامة على نهاية العالم. وهذا ما أثنى الجد عن العودة إلى رودريغز وهو في السبعين من عمره « قبيل عام 1940» لمواصلة الحلم المستحيل، والانخراط في مغامرة غير محمودة العواقب، ومسابقة الزمن لإيجاد الكنز الذي أخفاه القراصنة بإحكام. ما تبقى – بعد اندثار الحلم والكلام- هو طُهْرُ الطبيعة التي تختلف عن الأمكنة التي تَعْمِرُ بالبشر. كان الجد يقضي وقته جله بين أحضان الطبيعة مستمتعا بجمالها الفتان، وزقزقة عصافيرها، ومسترخيا تحت ظل شجرة الحومر للاسترواح، وتدخين سيجارته. أضحت هذه الشجرة بمرور الوقت هرمة، قد لا تقدر على مقاومة الإعصار القادم. « أضحت الشجرة- التي كان يجلس تحتها للتدخين وتملّي النظر في طيور المساء- هرمة، أظن أنها لن تقاوم الإعصار القادم» «ص.146».

2. الأب الإفريقي بمواصفات غريبة ومفارقة.

أ-عنف الجسد الإفريقي:

عاش السارد في الثامنة من عمره غرب نيجيريا«[3]» وبالضبط في مدينة أوكوجا التي كان يعمل فيها والده طبيبا في أحد مستوصفاتها. اعتاد الطفل أن يصادف الأفارقة وحدهم، ويخالطهم، ويعاشرهم، في حين كان البيض

وقتئذ يعدون على رؤوس الأصابع. تقترن لديه إفريقيا بأول اصطدام مع الجسد بصفته علامة فارقة، ومثارا للغرابة والدهشة.

« يُؤرِّخُ هذا الوقت بظهور الأجساد على التوالي. جسدي، جسد أمي، جسد أخي، جسد أطفال الجيران الذين ألعب معهم، جسد النساء الإفريقيات على الطريق، وحول المنزل، وفي السوق، وبالقرب من النهر»«ص.12». أول ما لفت نظره عندما وطأت قدماه أرض إفريقيا هو الجسد الذي يعد بالنسبة له علامة على التميز بالنظر إلى لونه، وهيئته، وهندامه، ورائحته، وندوبه. ما يجعل إفريقيا متميزة عن أوروبا هو عنف أجسادها، وفصولها، وخاصة حرارتها المفرطة التي تخلف بثورا على بشرة أي أوروبي يزور المناطق الاستوائية.

عاين الطفل -في الطريق إلى نيجيريا أول مرة في حياته- الأجساد في عريها، وتلقائيتها، وبشاشتها، وسمرتها، واستمتاعها بالفضاء المفتوح والرحب، وبالحرية التي يُحرمُ منها الجسدُ الأوروبي المنهك بتداعيات الحرب والحجر في البيوت. شعر آنئذ أن فرنسا أخذت منه وجهه وردت إليه جسده لينعم بفضائل الحرية، ورحابة الوجود، وعفوية البشر. «أخذت فرنسا مني وجهي، وردت إلى جسمي المتألم والمحموم. هذا الجسد الذي أخفته أوروبا في ثنايا نعومة مرهقة لازمت بيت جدي دون غريزة أو حرية» «ص.16».

ب-الإفريقي

درس والده خلال سبع سنوات في لندن بمدرسة المهندسين، ثم بكلية الطب. كانت عائلته وقتئذ تعيش وضعا مزريا، ولولا المنحة التي تلقاها من الحكومة الإنجليزية لانقطع عن الدراسة. اضطرت عائلته إلى مغادرة البيت الأصلي بمدينة موكا « جزيرة موريس» دون أن يذكر السبب. أشار في مذكراته

3 Jean-Marie Le Clézio, L'Africain, Mercure de France, coll. Folio,2004.

إلى أنه كان يرغب في الذهاب إلى مكان قصي ولن يعود أبدا إلى موكا. « ليس لي اليوم إلا رغبة وحيدة هي الذهاب إلى مكان بعيد، ولن أعود إلى هنا» «ص.17».

أتى والده إلى إفريقيا عام 1928 بعد أن قضى سنتين في «غُيانا» المستعمرة الإنجليزية بصفته طبيبا متنقلا. قضى فترة من عمره في الكاميرون لمعالجة المرضى في المناطق النائية. أدى واجبه بإخلاص غير عابئ بابتعاده عن أهله في مدينة نيس من جهة، وبالأخطار المحدقة به، من جهة ثانية.

سرقت منه إفريقيا حياته العائلية وحدبه على أقاربه. كان قاسيا معهم في حين كان مرنا وكريما وطيبا مع الأفارقة

لما تزوج رافقته زوجته إلى الكاميرون، وعاشا معا في منزل بناه من أربعة طوابق بالخشب في مدينة باميندا. كان برفقتهما الخدم الذين يساعدانهما على تدبير شؤونهما المنزلية؛ وفي مقدمتهم جان وبيكاص. استقرا فيما بعد بقرية بانصو عام 1932. « كان أبي هو الطبيب الوحيد في القرية، والأوروبي الوحيد. لم ييأس من ذلك» «ص.79». عاشا مستمتعين بشمسها الحارقة، وشعائر ساكنتها وأهازيجهم الشعبية، ومفعمين بحياة ملؤها الحب والمغامرة والعنفوان. «لم يصادفا- في سيرهما على الأقدام- ما يوحي لهما بالاستعمار» « ص.86»، بدعوى أن الإدارة الاستعمارية تركت هامشا للأهالي لتدبير شؤونهم، والحفاظ على أعرافهم وتقاليدهم، وتكريس تراتبيتهم الاجتماعية والدينية.

تغيرت مواقفه وأحاسيسه تجاه إفريقيا التي كانت بالنسبة له مكانا آمنا ومستقرا، ومبعثا للافتخار والاعتزاز إلى درجة أنه فكّر أكثر من مرة في نقل أسرته إلى أحضانها لينعم أعضاؤها بالدعة والاستقرار والطمأنينة. لكن لما دقت طبول الحرب، تغير كل شيء في إفريقيا، ولم تظل محافظة على مذاق الحرية وأريجها.

عاش وحيدا في منزله الرحب والموحش المحاذي للمستشفى. « كيف يمكن له أن يعيش سنوات طويلة وحيدا في هذا المنزل الكبير والفارغ دون أن يتوصل بأخبار عن زوجته التي يحبها، وعن ولديه» «ص.98». رغم حدبه على المرضى، وعنايته بهم، وتألمه من أحوالهم الزَّريَّة كان يحس بتوجسهم وحذرهم منه، لأنه كان في نظرهم أجنبيا يعالجهم بالأدوية الغربية، و»منفذا للقوى الاستعمارية، لا يختلف في أداء مهمته عن الشرطي، والقاضي، والجندي. كيف يمكن له - والحال هكذا-أن يتصرف بطريقة مغايرة؟»« ص.100».

ربما بالغ الأفارقة في التعامل بهذه النظرة المريبة حيال الأجنبي، لأنهم كانوا يشعرون في قرارة أنفسهم بأن المراقبة الطبية تخدم المراقبة السياسية. بالمقابل كان الأب واعيا بهذا الإحساس المفارق الذي صارح ابنه به برغبته في إيثار مهنة البيطرة على مهنة الطب لو قدّر له أن يختار من جديد أيهما أصلح وأفضل له حرصا على تفادي آلام البشر، ومعالجة الحيوانات التي تقبل آلامها.

ج-الأجنبي الغامض والسلطوي

وصف السارد والده بالأجنبي الغامض أو بالعدو المحتمل لأنه لم يرَ أبداً أي نظير له في وسطه العائلي أو في دائرة أصدقاء عمّه أو جدّه. رجل غريب الأطوار، التقى به في نهاية حياته الإفريقية عام 1948. «لم أتعرف إليه ولم أقدر على فهمه. كان مختلفا عمّن أعرفهم. كان أجنبيا بل عدوا محتملا» « ص.105». كان ينتمي إلى عالم آخر بغرابة لباسه «سروال قصير وعريض، قميص أبيض، حذاء مغبر» وتصرفه «صارم ونزور» وطريقته الإفريقية في الأكل، وتحدثه بفرنسية على طريقة الموريسيين، أو بلهجة «بيدجين» المجلجلة. كانت له شعائر خاصة به «لا يمكن للطفل أن يتحدث دون طلب

ظل المؤلف وفيا في الثلاثية السيرذاتية لمواقفه المناهضة للغرائبيَّة والحنين الاستعماري، والهوية الطاهرة النقية، وحريصا على مناصرة مسيرة الشعوب المستعمرة سابقا لتصفية الاستعمار الثقافي

الإذن. لا يمكن له تناول وجبة الغداء خارج المنزل. ينهاه أيضا عن أكل السكّريات. عليه أن يأكل دون وضع يديه على المائدة. يجب أن يترك شيئا من الطعام في الصحن. على الأطفال أن ينتبهوا في أثناء الأكل بعدم ترك أفواههم مفتوحة» «ص.106». لم يكن من عاداته قراءة الكتب أو الصحف، يكتفي بمذياع مرتبط بهوائي في الحديقة لمتابعة الأخبار عن كثب. لم يكن يتحدث مع ولديْه بلباقة ولطف. لا يتوانى في معاقبتهما في حال طيشهما أو نزقهما. لا يكترث بالدموع أو الوعود التي كانا يغدقانها على جدتهما استدرارا لعطفها. « كان وكْده إقامة عدالة رجالية، تستبعد أي حوار وأي اعتذار» «ص.107».

اكتشفا بفضله الدين، يحثهما على الصلاة عند غروب الشمس، وعلى ترتيل مقاطع من الإنجيل كل أحد. أبعد من مخيلتهما بابا نويل وما يحمله من هدايا احتفاء بأعياد الميلاد بدعوى أنه ضرب من الترهات السخيفة.

سرقت منه إفريقيا حياته العائلية وحدبه على أقاربه. كان قاسيا معهم في حين كان مرنا وكريما وطيبا مع الأفارقة الذين يخدمونه في المستشفى أو في المنزل الوظيفي. وجد الطفل- الذي عاش في كنف الحرب- نفسه مدفوعا إلى عالم آخر ليلتقيَ بشخص غريب قُدِّمَ له بأنه والده، ويعيشَ مفعما بالإفراط من كل جانب « حرارة الشمس، قوة الرياح، غزارة الأمطار، كثافة النباتات والأشجار، كثرة الحشرات»، وممزقا بين الحرية والإكراه، ومذهولا أمام الأفارقة ليس للونهم بل لطريقة سيرهم، وتحدثهم، وضحكهم، وأكلهم.

عندما عاد والده إلى نيس، وجد مصاعب جمة في التكيف مع الأهل والأحباب؛ وهذا ما زاد من قلقه وانفعاله مكسرا وعاء ما، أو متشدقا بألفاظ بذيئة كما لو كان يحمل في طويته كراهية مبطنة، أو مستعملا العصا أو قبضة يده لتهديد مخاطبه أو ترهيبه. لم تغيره فرنسا، بل كشفت صرامته وطبعه. «عندما عاد والدي فيما بعد لقضاء فترة المعاش جنوب فرنسا، حمل معه هذا الإرث الإفريقي، الصرامة والانضباط إلى حد الخشونة» «ص.111». كان يتصرف بعدوانية وعنف معبرا عن كراهية مستبطنة في طويته.

صيّرته السنوات التي قضاها في إفريقيا «اثنتان وعشرون سنة» إنسانا آخر، وأكسبته طبيعةً ثانيةً بسلوكياتها وتصرفاتها الغريبة، وألهمته- في الآن نفسه- « كراهية عميقة للاستعمار بمختلف أشكاله»«ص.112». لم يكن مؤمنا بالأفكار المجردة وبالاختيارات السياسية، بل كان الصوت الإفريقي يدمدم في سريرته؛ وهو ما جعله يتعاطف مع الشعبين الكاميروني والنيجيري في سعيهما الحثيث إلى الحرية والاستقلال. « كانت كل مقاومة بالنسبة له منبعا للأمل» «ص.113».

3. سعة الهوية المتحركة ومكوناتها

أ-طفولة في كنف الحرب

من حسن حظ جان ماري-غوستاف لوكليزيو أو من سوء حظه -أنه ولد في خضم الحرب، الحرب العالمية الثانية«[4]». وأي طفل يفتح عينيه على الحرب تكون له حساسية مفرطة تجاه مصاعب الحياة ومآسيها. « أتذكر جيدا قصف القنابل. كنت -برفقة أمي وجدتي وأخي-نعيش في مدينة نيس وقتئذ. في حين كان والدي طبيبا في إفريقيا. فرقتنا الحرب. لم أعرفه قبل سن العاشرة» «ص.11-12». عندما وضعت الحرب أوزارها، ذهب بصحبة أمه إلى نيجيريا لزيارة والده. كانت ذاكرته آنئذ شبيهة بإسفنجة تمتص في الآن نفسه فواجع الحرب التي نغَّصتْ حياته من جهة، واللحظات الجميلة التي كان يقضيها أحيانا بالقرب من النهر أيام الحر والحصاد من جهة ثانية. من الكلمات التي كان يتقزز منها : «الموت»؛ لهلاك البشر من جراء القصف والمجاعة.

رَسخَ في ذاكرته دمارُ الحرب وضحاياها من المسنين والأطفال.»لا تمثّل الحرب لحظة مجد، وهي ليست لحظة ينبغي الاحتفاء بها، بل هي لحظة تبعث على الندم، وتحرض على الشكوى. لا تمثل الحرب بطولة، بل هي موت المسنين والأطفال، الذين يأتون في مقدمة ضحايا الحرب. إذا طُلب مني أن أعرّف الحرب، سأقول إنها جريمة ضد المسنين، وضد الأطفال».«ص.16».

ب- شاهد على الاستعمار

ذهب برفقة والديْه إلى المغرب عام 1950. كان والده شغوفا باكتشاف مراكش. كان طبيبا في الجيش

4 -Jean-Marie Le Clézien, L'identité nomade, ROBERT LAFFONT ,2024.

الاستعماري البريطاني قبل أن يحال على المعاش. عرف عنه تعاطفه مع الأهالي وتبني مواقفهم التحررية «ما سرده جان-ماري لوكليزيو في سيرته الذاتية «الإفريقي»». بينما هم في حافلة تقلهم من الدار البيضاء إلى مراكش، تصرف السائق الفرنسي برعونة حيال بدوي مغربي بإرغامه على النزول لأنه لم يكن باستطاعته أن يؤدي ثمن التذكرة. « ما عاينته يا بُني الآن هو الاستعمار. يجب التخلي عن هذا النظام الذي لا يتعاطف مع إنسان مسن بمساعدته على الركوب في الحافلة». «ص.28».

اكتشف الطفل معالم مراكش الغريبة، وتمتع بالمناظر البهية والعتيقة من شرفة «فندق فرنسا» وسطحه. أضحت إفريقيا تقترن لديه بالغنى والازدهار مقارنة بتدهور

> **تقترن نهاية كل سفر بالحزن بصفته علامة على نهاية العالم**

أحوال «القارة العجوز». ما كان يكدّر صفو هذا البهاء الإفريقي هو معاينة الأوروبيين وهم يقودون أفواجا من الأفارقة المكبّلين بالسلاسل، ويضربونهم بالسوط أو يهينونهم أمام الملأ.

خاتمة

مما تقدم نخلص إلى ما يلي:

أ. حرص جان-ماري لوكليزيو -في مشروعه السيرذاتي على البحث في أصوله باعتماد « سفر النسب» «[5]» الذي يمتد عبر أزمنة وأمكنة متعددة ومتباينة ومتفاوتة. اضطر إلى السفر بالمزاوجة بين السجلّيْن السيرذاتي والسيري؛ استجابةً لبواعث عائلية، إما لاقتفاء أثر جده لعله يهتدي إلى الكنز المفقود، وإما لزيارة والده الطبيب في أوكوجا، وإما لمصاحبة زوجته «جميعة» المنحدرة من الصحراء المغربية. أسعفته شجرة النسب على تعرّف تكوينه الهجين؛ لامتزاج دمه بأجناس مختلفة «جد موريسي، وأم فرنسية، وأب إنجليزي، وزوجة مغربية، سلالة بروتينية»، واكتساب هوية متحركة تتغذى من روافد ثقافية متنوعة، والتطبع بهوية مترحلة تغير جلدها باستمرار وفق طبيعة الظروف والأحوال.

ب. سعى المؤلف في عمله الأول «1986» إلى فهم الأبعاد الرمزية والخرافية للكنز المخفي في مكان مجهول، ثم حرص في العمل الثاني «2004» على فهم عادات والده وطباعه ومواقفه الغريبة بعد أن أضحى إفريقيا قلبا وقالبا، يساعد الأفارقة ويؤازرهم في محنهم الصحية والاجتماعية، وينصر قضاياهم التحررية رغم توجسهم من الإنسان الأبيض، ثم راهن في العمل الثالث «2024» على استجلاء هويته المُترحِّلة التي تتفاعل في بوتقتها عناصر ثقافية وعرقية مختلفة تند عن أي شكل من أشكال المفاضلة والموازنة والمفاخرة.

ج. ظل وفيا في الثلاثية السيرذاتية لمواقفه المناهضة للغرائبيَّة«Exotisme»، والحنين الاستعماري، والهوية الطاهرة النقية، وحريصا في الوقت نفسه على مناصرة مسيرة الشعوب المستعمرة سابقا؛ لتصفية الاستعمار الثقافي، والتخلص من التركة الاستعمارية، وتبديد الصورة المغلوطة التي مافتئت السرديات الغربية المهيمنة «الأفلام، والمسلسلات، والروايات، والفضائيات، والبيانات الضخمة Big Data» تروجها عن المُستعمَر والتابع؛ لأهداف سياسية «تكريس التفوق الغربي سياسيا واقتصاديا وإعلاميا»، وعرقية «استدامة الهيمنة البيضاء، و تكريس العقد العرقي بحسب تعبير تشارلز وايد ميلز».

5 بحسب تعبير جيرار دو كورتانز«Gérard de Cortanze» نقلا عن :

Alef Arous-Brahim, « Parenté et filiation dans Voyages à Rodrigues de J.-M.-G. Le Clézio », Hal Open Science, hal-03770969v2,2023,p.89.

ملف العدد

قيظ في الزمهـــرير

إنعام كجه جي
كاتبة
العراق

الهوية. يا لهذه المفردة التي تكاد تهترئ من كثرة التداول! هل كانت موضع تساؤل في زمن آبائنا وأجدادنا؟ كان الواحد منهم يولد وينشأ ويشيخ ويمضي وهو يعرف من هو. له وطن محدد وعقيدة يعتنقها ولغة يحكي بها ووثيقة تشهد بأنه عراقيّ أو يمنيّ أو مغربيّ. ثم تخلخلت الخرائط وانفتحت الحدود وحلّقت الطائرات وتعددت أماكن الإقامة. تبلبلت الألسن وصار واحدنا أكثر من واحد. له أكثر من هوية.

كلما التقيت صحافياً أراه يطرح عليّ سؤال الهوية. ولا أخفيكم أنني أخشى هذا السؤال. لا بمعنى المناورة والتهرّب، بل لأنني لم أتوصّل إلى جواب شافٍ. بعد أربعين عاماً ونيّف من الإقامة في البلد الغريب لم أتوصّل إلى جواب شافٍ. هل ضاعت هويتي أو سقطت مني؟ هل اضمحلّت وبتُّ أرتدي هوية غيرها؟ ما كان الأمر يهمّني قبل دخولي ميدان الكتابة الأدبية. كنت أعرف أنني فلانة. أنتمي لمسقط رأسٍ في بغداد ولي دين أهلي ولغتي العربية ولهجتي المحلية وهمومي الوطنية وآمالٌ في مستقبل أفضل لأمتّي.

ثم جاءت الرواية. وآه من تلك الهواجس التي تحيط بك وتحفر في تاريخك وتستثير الشكوك وأنت تكتب لتعبّر عن واقع عشته أو خيال يطير بك بعيداً.

كيف أتكيّف مع التيارات الحديثة في التعبير الأدبي، أي أن أكون كاتبة معاصرة، دون أن أفقد خصائص لغتي وتاريخي وموروثات جدّتي وعشرات الأمثال الشعبية التي حفظتها عن أمّي؟

يقول محمود درويش: "أنا من هناك أنا من هنا. ولست هناك ولست هنا. لي اسمان يلتقيان ويفترقان. ولي لغتان نسيتُ بأيهما كنت أحلم". بالنسبة لي، وبعيداً عن شياطين الشعر، فإنني ما زلت أحلم بلغتي الأم. لكنني ضبطت نفسي وأنا أتوجّع وأستغيث باللغة الأجنبية عند مخاضي في المستشفى الباريسي. لعلّ معجزة الولادة تضع المرأة في نقطة معلّقة بين الأرض والسماء. هي ليست هنا وليست هناك.

تغيّر العالم وأنا في خضمّه. قميص يدور مع الرغوة في غسّالة ثياب. كنت أكتب بالقلم على الورق وصرت أنقر على مفاتيح الحروف وشاشات ضوئية. كل هذا يبقى لعبة على السطح ما لم يقترن بثورة موازية في أساليب التفكير والتعامل مع مفردات العصر. كيف أتكيّف مع التيارات الحديثة في التعبير الأدبي، أي أن أكون كاتبة معاصرة، دون أن أفقد خصائص لغتي وتاريخي وموروثات جدّتي وعشرات الأمثال الشعبية التي حفظتها عن أمّي؟

تتبادر إلى ذهني عبارة موجزة سمعتها من غابرييل غارسيا مركيز حين أجريت حواراً معه لمجلة "الوطن العربي". كنا في عام 1982. قال: "أكتب عن قريتي لكي أبلغ العالم". هل يمر الطريق إلى العالم عبر قرانا وخصوصياتنا الصغيرة ومن خلال تلميعها وجلي معدن الأصالة الكامن فيها؟

تُلهمني هذه القنطرة بين المحلية والعالمية حكايات تقترب من دنيا الخيال. بل إن الواقع في وطني صار يبزّ الخيال ويسبقه ويتفوق عليه. وبرغم أن الروائي ليس مؤرخاً فإنه لا ينجو مما تفرضه عليه التغيّرات التي تركت آثاراً عميقة على مجتمعه. حفظنا الطقوس وتغيرت القناعات والأهواء. صمدنا حيناً وانحنينا في أحايين أخرى مثل السنابل أمام العواصف. وما أكثر عواصف الرمل التي عبرت في فضاءاتنا. لذلك وجدتني مهتمة في كتاباتي بمصائر البشر. انحرفت مصائر الملايين عن مسارها الطبيعي المقدّر لها، بسبب نزاعات، وانقلابات، وتحزبات، وحروب. أتكلم عن العراق. البلد الذي عرف هجرات جماعية غير مسبوقة، وطرداً ممنهجاً أو عشوائياً للنخبة من الأدباء والصحافيين وأساتذة الجامعات والفنانين، ولأبناء الأقليات الدينية. نصف ما يُكتب من روايات عراقية يصدر اليوم بأقلام مهاجرين. سرديات لا فكاك لها من هوياتها.

العيش في الاغتراب هو سمة معظم شخصيات قصصي ورواياتي. وجدت حولي في مهجري مصائر فالتة من مداراتها. وأنا أفضل دائماً أن أعدّ نفسي مهاجرة. إذ لم أكن لاجئة ولا منفية. وهكذا، وبدون تخطيط مسبق، سيطرت على رواياتي شخصيات قلقة تعيش تذبذب الهوية. تتعلق بوطن سابق تعذّبت فيه وتستقر في بلد يؤمن لها العيش دون أن تأتمنه تماماً. ولأنني من جيل سابق، شعرت أن من واجبي توثيق تلك المصائر. إنها نتاج مجتمع تتبدد قيمه بالتقسيط. يعتقد شباب اليوم في العراق أن الطائفية قدر وأن الفساد الإداري والسياسي واقع دائم. لا يعرفون الماضي الذي عشناه ولا يصدقوننا، بل يُكذّبون حتى الصور. يتصورونها شغل "فوتوشوب".

تتبادر إلى ذهني عبارة موجزة سمعتها من غابرييل غارسيا مركيز حين أجريت معه حواراً عام 1982. قال: «أكتب عن قريتي لكي أبلغ العالم»

هناك اليوم لغة ومصطلحات متداولة في الشارع وفي الأغاني وفي وسائل التواصل، تبدو غريبة على أذنيّ. قد لا يكون الحجاب الذي يغطي رؤوس النساء ولا اللحى التي انتشرت بين الرجال هما ما أود التوقف عنده. لكن تشغلني تقاليد التسامح والتعايش وأنا ألاحظ تدهورها. كيف ألتقطها وأربطها بأصولها التي أعرف؟ كيف أثبّت على الورق هوية تتعرض للمسخ؟ والأهم: كيف أخرج بمأساتنا من محيطها الخصوصي إلى أفق أوسع؟ عدت إلى نصيحة غابرييل غارسيا مركيز. استندت إلى تراث أدبي ثريّ وفي الوقت ذاته حاولت أن أكتب بلغة مقشّرة من حراشف البلاغة. وفي ضوء تجربتي بين تاريخين وجغرافيتين تشكلت كلماتي.

كان من حظي أن تترجم رواياتي إلى لغات غير العربية. وقعت الترجمات بين يدي قارئ مختلف. قد يكون فرنسياً أو صينياً أو فارسياً. واكتشفت أن هؤلاء لا يبحثون عن

محمود درويش

غابرييل غارسيا ماركيز

موضوعات اعتادوا عليها في كتابات مواطنيهم. فما تأتي به روائية أجنبية مهاجرة يمكن أن يلفت أنظارهم لأنه أدب مغاير، له أجواؤه المختلفة عما يعرفون. وحتى صفة المهاجرة لم تعد تنطبق عليّ بعد أن أسست تفاصيل حياتي في البلد الغريب. فيه نشأ أولادي وصار لي أحفاد. فهل أصبحت فرنسية؟ سؤال لم يكن وارداً بالنسبة لي في أي وقت من الأوقات. أقول لنفسي إن من يولد عراقياً يحتفظ بحبله السري مرتبطاً بذلك الوطن المُعذَب، بفتح الذال، والمُعذِب، بكسرها. ومن هذه الفرضية الأقرب للحقيقة يمكنني اقتفاء أثار صلة الرحم تلك فيما أكتب.

سيطرت على رواياتي شخصيات قلقة تعيش تذبذب الهوية. تتعلق بوطن سابق تعذبّت فيه وتستقر في بلد يؤمن لها العيش دون أن تأتمنه تماماً

تركت الهجرة بصمات عميقة على شخصيتي. ومنها انتقلت إلى كتاباتي. تعلمت احترام من يختلف معي في السحنة، والعرق، والمعتقد، والرأي. تقولبت داخل شروط الديمقراطية ونضجت في مرجل الالتزام بقرار الجماعة. أكتب عن شخصيات عراقية تقيم في باريس بفرنسا، أو ديترويت بالولايات المتحدة، أو مانيتوبا بكندا، وأحاول تحليل مواقفها وخياراتها إزاء مجتمعات غريبة عليها. كيف يكون التحرر من بعض التقاليد مفيداً وكيف ينقلب وبالاً. ويحدث أن أضبط نفسي وأنا متمسكة شديد التمسّك بمبادئ تعلمتها هنا، أي ملكية أكثر من الملك، وأريد فرضها على

تركت الهجرة بصمات عميقة على شخصيتي. ومنها انتقلت إلى كتاباتي

أبطالي. عندها أعرف أنني شططت وأن حريتي المستجدة أفسدتني. حوّلتني إلى مستبد يصادر حرية شخوص رواياته.

جعلني الابتعاد عن الوطن كاتبة مشتاقة، مسكونة بالحنين. أدير رأسي في المجتمع الباريسي حولي وأغبط القوم على اللامبالاة إلا بما يمسّ لقمة العيش. لقد كسبوا حرياتهم وارتاحوا. حرروا بلدهم من النازية وتخلوا عن مستعمراتهم ووضعوا أسس نظام ديمقراطي وجعلوا التعليم مجانياً والتطبيب حقاً لكل مواطن. انصرف الروائيون عن النضال الذي بات عملة بائدة وتفرغوا لقصص الحب والنزاعات العائلية والميول المثلية. يأتيهم روائي أو روائية من لبنان أو الجزائر أو الكونغو، يحدثهم عن الحرب وعن السعي للحرية وعن معاناة المرأة فيحتفون به وبها وكأنهم يكتشفون جديداً. هناك على هذه الأرض مَن ما زال يناضل ليستحق الحياة... يا للعجب!

يندهشون بالكتابات المترجمة من لغات العالم الثالث لأنها تتحدث عن تلفزيون لا يبث سوى صور القائد وجولاته وخطاباته. يصدقونك أحياناً أو قد يتهمونك بالمبالغة. كيف لهم أن يستوعبوا وجود حزب يرهب الناس لكي ينتموا إليه؟ أو جامعات ووظائف تشترط الانتماء قبل قبولك فيها؟ أو أن تكون كهلاً ممنوعاً من السفر طوال عمرك؟ أو والدة تزغرد حين يستشهد ولدها؟ ماذا يريد الكاتب أكثر من هكذا حكايات ليكتب نصوصاً ذات نبض حقيقي؟ سيتهمونك بأنك تشوّه صورة أهلك وبلدك. وبأنك تغازل الغرب لتفوز برضى الناشرين والنقاد.

تعلمت احترام من يختلف معي في السحنة، والعرق، والمعتقد، والرأي. تقولبت داخل شروط الديمقراطية ونضجت في مرجل الالتزام بقرار الجماعة

هو قرار واضح. ألا تمسح في رواياتك جوخاً ولا تطبطب على مشاعر قارئ أوروبي أو أميركي. لم أفضح بلدي لأنال الرضى. واجهتهم في رواياتي بالخطيئة التي ارتكبوها

أردت أن أوضح للناس المحيطين بي، لجيراني في البلد المُضيف، أن وطني الأُم ليس مجرد آبار للنفط، وأن العراقيين يجيدون الحب أكثر مما يحبون الحرب، وأنهم أهل سماحة وحضارة وثقافة وشعر وطرب ومواهب شتى

حين أرسلوا جيوشهم لتدمير بلدي. ولم أغفل الكتابة عن عوراتنا التي علينا أن نقرّ بها ونواجهها. صدرت عشرات الكتب والأفلام والمسلسلات عن غزو العراق لكنها كانت من وجهة نظر الغازي وتمجد بطولاته. ثم يجيء نص عراقيّ ليضع أسماء على أرقام الضحايا، وملامح على وجوه القتلى تحت الأنقاض. كتابة ترسم ملامح لاجئين لا يشبهون غيرهم ممن يصل إلى بلاد الغرب وشواطئه. تتفاجأ سلطات الهجرة برجال ونساء يحملون شهادات مرموقة في الطب والهندسة والاقتصاد والفلسفة والمسرح والآداب، يطلبون لجوءاً إنسانياً. أردت أن أوضح للناس المحيطين بي، لجيراني في البلد المُضيف، أن وطني الأُم ليس مجرد آبار للنفط، وأن العراقيين يجيدون الحب أكثر مما يحبون الحرب، وأنهم أهل سماحة وحضارة وثقافة وشعر وطرب ومواهب شتى. ولكي أنجح في مسعاي نهلت من خزين أهلي. من الترانيم والقصائد والأمثال وحتى الأساطير. اخترعت في إحدى رواياتي طيراً سميته طير اليباديد، يمرّ على القرى فيبدد ساكنيها. أكتب على أمل أن أستعيد وطناً يتبدد بالتقسيط.

حرضتني الغربة على القيام بدور محامي الدفاع. فأن أكون كاتبة عراقية في فرنسا يعني أن أنطق بلسان كل الخاسرين. كانت شقتي هي الرديف لمعنى البيت كما عرفته في بغداد. لا حديقة، بل شرفة عرضها ثلاثة أشبار. ولا سطح ننام فوقه في الصيف، بل طوابق من الإسمنت أشبه بعلب الأحذية المرصوفة فوق بعضها. وفي تلك الأجواء المغايرة، زرعت نُخيلة وأوقدت بخوراً. وعلى مدى عقود طوال كانت زخات المطر تضرب نافذتي وأنا جالسة أمام حاسوبي، متدثرة بوشاح وبجورب صوفيّ يقيني الزمهرير، أكتب عن عراقيين يعيشون جفافاً وقيظاً في درجة خمسين مئوية. كنت أرى وطني حاضراً في نشرات الأخبار كونه مهداً للنزاعات والانقلابات والمشانق وأسلحة الدمار الشامل. أهكذا يُختصر العراق؟ وأنا الغريبة التي عليها أن تسير عكس التيار وأن تأخذ القارئ العربي والأجنبي إلى الفردوس المفقود الذي نشأت في بيئته المنفتحة، والمتسامحة، والعصرية، والمثقفة. لقد تجاوزت سن السذاجة والرومانسية. فالزلزال كان عاتياً. وما فات لن يعود. سيسكن صفحات الروايات.

ملف العدد

هوية السرد
في مواجهة السيولة والذكاء الاصطناعي
ماذا يتبقى لمفهوم النوع؟

د. محمود الضبع
أستاذ النقد الأدبي، وعميد كلية الآداب
جامعة قناة السويس
مصر

يتسع مفهوم السرد، وتتعدد أنواع السرديات على نحو دائم، فإذا كانت الدراسات النقدية - تبعا لجيرارد جينيت ورولان بارت وجريماس وغيرهم- قد أسست لمقولات من قبيل «هيمنة السرد على كل شيء حولنا»، و«تنوع أشكال السرد وآلياته»، فإن التطورات المعاصرة - وبخاصة بعد هيمنة الرقمية Digitization ومعطياتها بما طرحته من تنوع وتعدد أشكال الميديا والتقنيات البصرية- قد أكدت هذه المقولات، وهو ما يمكن رصده عبر صيغتين:

الأولى: تتمثل في اتساع مفهوم السرد ذاته وتعدد أنواعه، التي غدت تضم القصة والرواية والمسرحية والسيناريو والسينما والسرد الشعري، وبعض أشكال الميديا.

والصيغة الثانية: يمكن الكشف عنها في تسلل السرد إلى الأنواع الجديدة والمستحدثة في الحياة، مثل ألعاب الفيديو التفاعلية، ونشرات الأخبار، والإعلانات التجارية، إضافة إلى الأنواع الأدبية التي تتشكل بنيتها في الأساس معتمدة على تقنيات السرد، أو الأنواع التي لم يكن السرد بنية أساسية في تشكيلها، لكنه تسلل إليها منتجا فيها أشكالا جديدة، ومنها: السرد الشعري، وشعرية السرد، وشعرية التشكيل والرسم والنحت والتصوير، وما يتقاطع مع كل ذلك.

حدث كل هذا وتم استقباله بوصفه أحد التطورات المقبولة في الفنون والآداب، سواء تحت مسمى التجريب، أو التحديث والتطوير، أو التفكيك، أو فتح آفاق التأويل، غير أنه في كل الأحوال كانت هناك «هوية ما» يمكن الإمساك بها على مستوى الشكل أو المضمون، وعلى مستوى النوع أو الجنس «الأدبي»، وعلى مستوى العناصر المشكلة لبنية السرد من شخصيات وزمان ومكان وحدث ولغة وأبعاد ثقافية تخص العالم المسرود عنه «العادات والتقاليد والقيم والممارسات الاجتماعية الدالة والفارقة عن غيرها من المجتمعات - بمفهوم الهوية الثقافية-».

اتسع مفهوم السرد وتعددت أنواعه التي أصبحت تضم القصة والرواية والمسرحية والسيناريو والسينما والسرد الشعري، وبعض أشكال الميديا

غير أن الألفية الثالثة شهدت تحولات جذرية حذرت منها كتابات عدة لمفكرين وفلاسفة ومنظرين[1]، رأوا أن البشرية تمضي قدما نحو تفتيت الهوية وتسييل كل صلابة

شهدت الألفية الثالثة تحولات جذرية حذرت منها كتابات عدة لمفكرين وفلاسفة ومنظرين رأوا أن البشرية تمضي قدما نحو تفتيت الهوية وتسييل كل صلابة يمكنها أن تتكئ عليها

يمكن للبشرية أن تتكئ عليها، وتعاقبت - على نحو سريع جدا- فلسفات هيمنت على البشرية بدءا من العولمة في جيلها الثالث، وبأنواعها المتعددة «الثقافية والتجارية والاقتصادية»، ومرورا بفلسفات التفكيك، والسيولة، وصولا إلى هيمنة التكنولوجيا بحركاتها المتعاقبة والسريعة، والتي يمكن رصد أكثر ملامحها تأثيرا في الأدب والسرد على نحو خاص، متمثلا في تطبيقات الميتافيرس، والذكاء الاصطناعي AI.

فهل يمكن في سياق هذا الانفتاح الذي بلغ حد التشتت أن يكون هناك مجال للحديث عن السرد، وهوية السرد؟، وهل يمكن أن تكون هناك هوية للسرد من الأساس؟

وإذا كانت.. فما أبعادها؟ وكيف يمكن رصد عناصرها؟

وما مدى تأثر الهوية السردية العربية بفلسفات الحداثة وما بعدها، والتفكيك، والسيولة، والرقمية وأبعادها؟

وما راهن تأثير الذكاء الاصطناعي على السرد العربي؟ وكيف يمكن استشراف آفاق المستقبل المتعلقة بذلك؟

لعل هذه الأسئلة وما يشابهها يمثل منطلقا بحثيا يسهم من جهة في بلورة ورصد الواقع الفكري العربي المعاصر، ويساعد من جهة أخرى على فهم حركة الأدب وتوجهاته وتصنيفاته الكبرى في ظل التفكيك الدائم والمطلق لكل الحدود، والسعي الدائم وراء التجريب.

السرد والهوية «هوية النوع/ هوية السرد»:

إذا استعدنا إلى الأذهان نظرية الأنواع الأدبية، التي شاع الحديث حول هدمها منذ القرن الماضي -وبخاصة مع الهجمة التي قادها بنديتو كروتشة-، فلم يعد الشعر خالصا ولا السرد خالصا، ولا الفنون كذلك، وإنما تم هدم نقاء النوع لاستعارة التقنيات وتبادلها بين الأنواع، فغدا المسرح يستعير من السينما، والشعر يستعير من السرد والمسرح والسينما، والرواية تستعير منهم جميعا، وهكذا..

1 يمكن العودة إلى كتابات: زيجمونت باومان عن السيولة وتطبيقاتها في الحياة من حولنا وما أحدثته من هيمنة لمنطق السوق، وآلان دونو عن التفاهة والمديوكرية La médiocratie، وتوما دو كونانك عن الجهل الجديد ومشكلات الثقافة، وكتابات أمين معلوف عن غرق الحضارات، ومؤلفات: هال آبلسون، وهاري لويس، وكين ليدن، وبرامود كيه نايار، وهربرت شيلر، وليا ليفرو عن التحولات الرقمية والإعلام الجديد، بالإضافة إلى كتابات إريك كازدين وإمري زيمان، وسمير أمين عن الرأسمالية الجديدة، وما طرأ على العالم اقتصاديا.

بل إن الأمر قد تطور إلى ما هو أبعد من ذلك، فلم تعد حركة الاستعارة في التقنيات تتم داخل دائرة الفنون مثلا، أو داخل دائرة الآداب تحديدا، أو بتقاطع وتداخل الدائرتين، وإنما تم توسيع المجال لتتقاطع الفنون والآداب مع دائرة العلوم التجريبية من فيزياء وكيمياء وفلك، إلخ.

غير أنه عبر كل ذلك كانت هناك ضوابط تحكم تلك الاستعارة في التقنيات، بما يحقق الحد الأدنى من مفهوم وأبعاد وملامح هوية النوع الأدبي ولو على نحو مرن.. وهو ما يطلق عليه «الهوية النصية»، أي السمات الفارقة التي تميز نوعا أدبيا عن نوع آخر، مثل هوية القصة قياسا لهوية الرواية والمسرح، وهوية الرواية قياسا لهوية التاريخ والحكاية العادية، وهوية السرد عموما قياسا لهوية القصيدة، وهوية القصيدة العمودية قياسا لهوية الشعر المرسل أو الشعر التفعيلي أو قصيدة النثر، وهكذا الأمر مما يصل بنا في النهاية إلى إمكانية رصد مجموعة من السمات الفارقة التي تميز كل نوع من الأنواع السابقة، حتى مع تبادل التقنيات الذي يتم على الدوام «مفهوم عبور الحدود بين الأنواع/ العبر نوعي»، وهو ما يمكن تسميته بالفعل «الهوية النوعية»، أي هوية النوع التي ظلت سائدة لقرون طويلة قبل أن تتعرض إلى التفتيت.

لم تعد حركة الاستعارة في التقنيات تتم داخل دائرة الفنون مثلا، أو داخل دائرة الآداب وإنما تم توسيع المجال لتتقاطع الفنون والآداب مع دائرة العلوم التجريبية من فيزياء وكيمياء وفلك وغيره

أما على المستوى العالمي؛ فإن التحولات التي شهدتها البشرية مؤخرا قد خلخلت مفاهيم هوية كل شيء وليس الآداب والفنون فقط، بدءا من التفكيكية «تقويض المرتكزات»، واستمرارا مع فلسفات ما بعد الحداثة «هدم المركزية»، وحركات العولمة «نفي العرقية والاستظلال بهوية عالمية موحدة»، وفلسفة السيولة بتأثيراتها الفادحة، التي تمثلت أبسط أشكالها في تحويل كل ما كان يمثل صلابة للبشرية من قيم وتقاليد إلى سيولة مائعة، يمكن تغيير حالتها بفردانية مطلقة، ودون الاحتكام لمفهوم الجماعة أو العادات أو التقاليد أو أية قاعدة سوى قواعد هيمنة منطق السوق وتحقيق «الترند».

التحولات التي شهدتها البشرية مؤخرا خلخلت مفاهيم هوية كل شيء وليس الآداب والفنون فقط، بدءا من التفكيكية واستمرارا مع فلسفات ما بعد الحداثة وحركات العولمة وفلسفة السيولة بتأثيراتها الفادحة

كل ذلك وغيره عمل على تفتيت الهوية في كل شيء، وهو ما يمكن رصده عبر مظاهر عدة، منها على سبيل المثال لا الحصر:

تفتيت هوية البشر والشعوب لصالح قيم العولمة وما بعد الحداثة، على ما فيها من هيمنة سياسية وحروب اقتصادية استعانت بالإعلام البديل والسوشيال ميديا لصالح إقرار رأسمالية احتكارية جديدة.

تفتيت هوية الأنواع الأدبية والفنون لصالح نظم السوق، تلك التي تبحث عن المكاسب المادية دون أدنى اعتبار لمفهوم القيمة في حد ذاتها.

ويمكن رصد أبعاد هذا الأخير في الأنواع المتعددة للسرد «القصة، الرواية، المسرحية، السيناريو، السينما» تحت مسمى التجريب، الذي انحرف عن مساره فغدا يعني الحرية المطلقة في انتهاك مفهوم النوع الأدبي، أو الفن، وعمل أي شيء في أي شيء دون ضابط أو شروط [2].

إذ إنه معروف أن هناك حدودا ومرتكزات للتجريب ينتقل بعدها العمل الأدبي أو الفني إلى مستويات أخرى قد تخل بالأدبية أو الفنية في إجمالهما، وهو ما تم تفكيكه بفعل العوامل السابقة من هيمنة منطق السيولة وتفتيت مفهوم النوع، ومن ثم غدا الحديث عن الهوية والحدود لأي شيء، شكلا من أشكال السباحة ضد التيار.. فكيف ستقبل البشرية وضع حدود مهما كانت مرونتها بعد أن سنحت لها الفرصة لإزالة كل القيود والحدود باسم التجريب والتجديد والحرية؟

وهنا نجد لزاما علينا طرح السؤال مرة أخرى في واقعنا الأدبي العربي:

ما حدود التجريب التي إن تجاوزها النص الأدبي «سردا كان أم شعرا» يكون حينها قد خرج من إطار الأدبية إلى شيء

2 للمزيد حول التجريب وحدوده وأبعاده، يمكن العودة إلى:
https://youtu.be/x1BxqhN0os0?si=RfIH52cA-dxeymB6

آخر ويكون قد خلخل هوية النوع وهوية السرد، كأن يكون مجرد حكي مثلا وليس قصة أو رواية أو مسرحية بالمفهوم الفني، أو يكون مجرد تنميق كلام وليس قصيدة أو نصا شعريا بمفهوم الشعرية «بوصفها علما»؟

هوية الموضوع وهوية الحدث:

الهوية حاضرة بالضرورة في كل موضوع وفي كل حدث، إذ لابد من وجود خصائص وسمات تحدد انتماء هذا الموضوع أو الحدث إلى لغة تفرقة عن لغات العالم بما يترتب على ذلك من بنية ثقافية وحدود مكانية «جغرافية»، وأعراق وتقاليد وقيم ومعتقدات تخص أصحاب هذا الموضوع ولغتهم وثقافتهم.

فعلى سبيل المثال عند تناول حدث عام شديد العمومية من قبيل سقوط شجرة في مواجهة منزل في الصباح، تحول دون مغادرة المنزل إلى العمل، فإن هذا الحدث الذي يمكن إنتاجه سرديا، ستؤثر فيه عوامل عده لها علاقة بالموضوع وما سيرتبط به بالضرورة من علاقات متعددة: بالمعتقد أو الأيديولوجيا الحاكمة لعقل منتجها.

فهذا الحدث عندما يكون في إحدى البلاد الثلجية، فإن مسار الأحداث وموضوع السرد سيختلفان، عما لو كان ذات الحدث في بيئة صحراوية تمثل الشجرة بالنسبة له كنزا لا يمكن تعويضه، عما لو كان هذا الحدث في بيئة ساحلية أو ريفية أو حضرية.

هوية المكان

المكان في حد ذاته هوية، فكل مكان يحمل بالضرورة سمات العصر الذي ينتمي إليه، والحضارة التي تشكل فيها، وجملة الأعراق والتقاليد التي أنتجته، أو الذي أسهم هو ذاته في إنتاجها أو تشكيلها.

فكما أن الحضارة يمكن أن تشكل مكانا وتمنحه هويته، مثل الحضارة المصرية القديمة «المسماة بالفرعونية» عندما أنشأت المعابد الكائنة في الأقصر وأسوان حاليا، والأهرامات الثلاثة و «أبو الهول» الباقية في منطقة الجيزة حتى الآن، هذه الأماكن دلت على الهوية المصرية القديمة التي تعود إلى سبعة آلاف عام مضت.

> **كل مكان يحمل بالضرورة سمات العصر الذي ينتمي إليه، والحضارة التي تشكل فيها، وجملة الأعراق والتقاليد التي أنتجته أو التي ساهم هو في تشكيلها**

كذلك فإن المكان يمكنه أن يشكل هوية للحضارة، أو يبني هو حضارة ويمنحها هوية، مثل نهر النيل الذي منح البلاد الواقعة على ضفتيه هوية، ومثل الصحراء العربية التي منحت من سكنوها هوية، ومثل البيئات الساحلية التي منحت من أقام عليها هوية، وهكذا، فإن العلاقة بين المكان والهوية علاقة جدلية قد يتسبب أحدهما في تشكيل الآخر، وقد يتلاقحان فيؤثر كل منهما في الآخر ويعيد تشكيله. إذ سيتحكم المكان في مسار الأحداث وتطويرها وتنميتها، وإضافة التفاصيل المحتملة التي يمكن إضافتها أو حذفها، مما سيترتب عليه بقية عناصر السرد إجمالا.

هوية الزمان:

الزمان الخارجي «بما فيه من عصور تاريخية» أحد العناصر الضابطة لمفهوم الهوية، ويتحكم بالضرورة في بقية عناصر السرد: اللغة وطبيعة الشخصيات والأحداث والموضوع السردي ذاته...إلخ، وهو ما يتضح بشدة في الفنون البصرية «المسرح والسينما»، إذ تدل المشاهد على زمانها، كما أن الزمان يقتضي بالضرورة ملامح وسمات لا بد من الالتزام بها.

فالقصة التي تدور في إطار زمان تاريخي يعود لعصور ما قبل الإسلام العربية «الجاهلية» ستقتضي استخدامات محددة للغة، وطبيعة لسير الموضوع، وأبعادا مرتبطة بطبيعة السرد ذاته، وهو ما سيختلف إجمالا عما لو كانت القصة تدور في العصر الأندلسي، أو العصور الحديثة، وهكذا مما سيدلل على تدخل عنصر الزمان في تحديد هوية السرد، وارتباط السرد ذاته بهوية زمانية على الدوام.

وتبعا لعلوم السرد فإن للخطاب زمانه الخاص الذي يختلف عن زمان القصة، وله مكانه وحجمه واتجاهه الذي يختلف عن مكانها وحجمها واتجاهها، فقصة قيس وليلى وقعت في الماضي، وتداولتها كتب التاريخ بترتيب محدد، لكنها عندما تدخل في خطاب روائي، فإن الزمان سيختلف تبعا لتقنيات «الاستباق والاسترجاع مثلا».

عدد من الأعمال الروائية العربية «اسما لا فعلا» وقعت في فخ وخديعة العولمة، فتصنّعت موضوعها بدءا من العنوان لمسمى لا ينتمي لهويتنا

ثم يأتي السرد بوصفه الفعل، أي: الهيئة التي يبني عليها قص الأحداث مثل: زاوية الرؤية وطرق التقديم أو الاستحضار والأصوات السردية وغير ذلك.

«مع الوضع في الاعتبار أن القصة والسرد لا يوجدان إلا بواسطة الحكاية، والحكاية لا يمكن أن تكون حكاية إلا لأنها تروي قصة».

وعند تطبيق مثل هذه المداخل على بعض الأعمال السردية المعاصرة فإنه يمكن التمييز بين الوعي الناتج عن حكي حكاية، والوعي الناتج عن متطلبات فن السرد، وهو ما يمكن تلمسه في نماذج عديدة من الكتابة، وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقة بين الرواية والتاريخ.

فهما وإن كان بينهما تشابه يصل إلى حد التماهي أحيانا «في الرواية التاريخية على سبيل المثال» ولكنه أيضا لكل منهما هويته وخصوصيته التي تفرقه عن الآخر، فإن كان التاريخ يسعى إلى تحري الدقة والتطابق مع الواقع، فإن الرواية تسعى إلى تمثل الخيال وتقديم رؤية عن الواقع، لأنها في نهاية الأمر هي رؤية السارد المبدع بما له من

أيديولوجيات فكرية وتوجهات ثقافية واجتماعية تبعا لفلسفته في الكتابة والغاية التي يكتب من أجلها.

وسواء كانت الرواية سردا لتاريخ ما وزمان ما، أو كانت سرد سيرة اجتماعية في تاريخ وزمان ما، أو كانت سرد حياة لشخص يصنع هو تاريخه وزمانه المتخيل، فإن أشكال حضور التاريخ ومراوغات هذا الحضور فيها متنوعة، بين: الحضور التاريخي/الزماني بوصفه علامة «أيقونة»، وبوصفه متكئا وخلفية مرجعية، وبوصفه حدثا مركزيا، وبوصفه أسطورة، وبوصفه إعادة تكوين «الجدل مع التاريخ»، وبوصفه نصا موازيا، وأخيرا بوصفه إعادة تفكيك للتاريخ المتوارث[3].

هوية العادات والتقاليد في النص السردي:

العادات والتقاليد هي نتاج اتفاقات جماعية تأسست عبر مساحات عريضة من الزمن، وتشكلت ملامحها وهويتها الفارقة التي تميز جماعة ما عن غيرها من الجماعات، وهذا هو أساس مفهوم الهوية الثقافية.

وقد أنتجت البشرية في ذلك الكثير من أشكال الفنون والآداب والموروثات الشعبية الناتجة عن هذا الوعي الجماعي، والتي اقترب الكثير منها إلى حد التقديس، غير أن فلسفات التفكيك المستمرة، وبخاصة تفكيك المركزيات الصلبة التي بدأتها فلسفات ما بعد الحداثة، وأكملتها فلسفات السيولة ونظمها المتنوعة في اقترانها بالتكنولوجيا وتطبيقاتها الرقمية، هذه الفلسفات قد خلخلت كل ذلك.

فبعد أن عايشت البشرية حالة من الصلابة الناتجة عن تأسيس العادات والتقاليد وما تنتجه من منظومة القيم، تحولت البشرية إلى حالة السيولة، تم التأسيس لها من خلال العمل على إذابة الكيانات الثابتة المستقرة، تلك التي كانت تستمد بقاءها واستمراريتها من داخلها «القيم

3 للمزيد حول العلاقة بين الرواية والتاريخ، يمكن العودة إلى: محمود الضبع: مراوغة التاريخ في الآداب والفنون البصرية، بيت الحكمة، القاهرة، 2024م.

ربيعة جلطي

إبراهيم فرغلي

والعادات والتقاليد والعلاقات الاجتماعية والموروث الفكري والثقافي»، وكما رأى «زيجمونت باومان» أنه إذا كانت الحداثة الصلبة قد سعت لتحديد القواعد، وبناء الدولة، وصناعة القومية الصلبة، والسعي لليقين المادي المبني على زعم القدرة على التحكم، فإن الحداثة السائلة تقوم على إذابة وتمييع الكيانات الثابتة والمستقرة، مثل: البنى الاجتماعية، والروابط الإنسانية، والنماذج السلوكية، والنماذج القيمية، إضافة إلى فرض وهيمنة منطق الاستهلاك بمعناه العميق للمكان والقيم والأشياء والعلاقات، في ظل العولمة [4].

كل ذلك نتج عنه اعتماد الهوية الذاتية بديلا عن هوية الجماعة، وإن كانت هذه الهوية الذاتية مستمدة من الأشكال الاستهلاكية للحياة كما هي مطروحة عبر وسائل الإعلام، والإعلام البديل، والميديا، وتطبيقات التكنولوجيا، والإعلانات التي يتم الترويج لها ليل نهار، وكل ذلك سهل الترويج لعمليات التطبيع الثقافي كما نلاحظها من حولنا الآن، وهو ما أدى في نهاية الأمر إلى ذوبان فكرة الطبقات الاجتماعية، وظهور تصنيفات طبقية أخرى تخضع لثقافة الاستهلاك، وهو عمل قائم على تفكيك مفهوم الهوية في الحياة، وفي السرود الناتجة عن هذه الحياة إجمالا.

ولعلنا نستطيع الوقوف على عديد من الأعمال الروائية العربية «اسما لا فعلا» والتي تقع في فخ وخديعة العولمة، فتصنع موضوعها بدءا من العنوان لمسمى لا ينتمي لهويتنا مثل الروايات المسماة «كوستا كوفي، وفرانكشتين، وفرتيجو» وغيرها كثير مما لا ينتمي اسما أو موضوعا لهوية عادات وتقاليد الشعوب العربية، على الرغم من أن بعضها تدور أحداثها في بلدان وبيئات عربية، لكنها لا تقترب من بعيد أو قريب من العادات العربية، بقدر ما تصور مسخا من العادات التي لا تنتمي لبيئاتنا، وقد يكون ذلك ناتجا عن عدم وعي الكتّاب أنفسهم بمتطلبات هوية النص السردي ذاته.

الذكاء الاصطناعي وتحديات الهوية السردية:

بسرعة فائقة تنتشر تطبيقات الذكاء الاصطناعي بين الناس، وتسيطر على عقول البشر على اختلاف تنويعاتهم وتخصصاتهم، بل تسيطر على أدق تفاصيل الحياة، وربما تكون البشرية لديها الكثير من العذر في ذلك، إذ إن هذه التطبيقات توفر البديل الأسهل لإراحة العقل، وتسد فراغ «الجهل الجديد»«5» الذي وقعت فيه البشرية.

ولم يعد من المستهجن اليوم أن يلجأ المبدعون والكتّاب والمشتغلون بالفنون إلى تطبيقات الذكاء الاصطناعي لسؤالها والاسترشاد برأيها، أو جعلها تقدم لهم ما لا يستطيعون الوصول إليه بعقولهم، حتى لو لم يكن صوابا أوصحيحا من الجهة العلمية.

وشيئا فشيئا تسربت هذه التطبيقات إلى الإبداع السردي والقصصي والمسرحي، وبأشكال متعددة يمكن الوقوف عليها في دراسات عدة «6»، مما يضع سؤال الهوية ذاته في مأزق، إذ أين يمكن البحث عن هوية في نص تمت الاستعانة فيه بعقل إلكتروني ذكي، أو بصيغة أدق: تم الاعتماد فيه على تطبيقات لا تعترف بالهوية والخصوصيات الثقافية من الأساس؟

ومن الأشكال التي يمكن رصدها في السرد كثرة الأعمال الروائية التي عالجت فكرة هيمنة الذكاء الاصطناعي بوصفها موضوعا، أي أن الموضوع الروائي لها يدور حول الأفكار والتقنيات التي بلورتها التكنولوجيا وتطبيقاتها، وهي في ذلك متأثرة بالسينما والأفلام العالمية التي صدرت في هذا السياق لتعالج هذه الفكرة، ومنها عربيا روايات: «العودة إلى الأرض» لعبدالهادي سعدون، «دولة الروبوت» لبسام عبد السميع، «تميمة العاشقات» للنا عبدالرحمن، «شفرات القيامة» لتامر شيخون، «قلب الملاك الآلي» لربيعة جلطي، «الفتاة الآلية والأشجار آكلة البشر» لإبراهيم فرغلي، وكذلك روايته «مصاصو الدماء» من قبل، وغيرها كثير من الأعمال الإبداعية التي اتخذت الذكاء الاصطناعي وتطبيقات التكنولوجيا موضوعا روائيا لها.

4 الانتقال من الصلابة إلى السيولة، هي الفكرة التي بنى عليها «زيجمونت باومان» تحليله للمجتمع المعاصر «مجتمع المعرفة وتحولاته»، وأصدر منها سلسلة كتب «الحداثة السائلة»، و«الحياة السائلة»، و«الحب السائل»، و«الأزمنة السائلة»، و«الثقافة السائلة»، و«الخوف السائل»، ويمكن العودة إلى الكتاب الأول والأساسي الذي أجمل كل ذلك:
زيجمونت باومان: الحداثة السائلة، ترجمة حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2016.

5 الجهل الجديد ومشكلة الثقافة، هو عنوان كتاب لتوما دو كونانك: ذلك أنه على الرغم من أننا نعيش عصر المعلوماتية والذكاء الاصطناعي ومجتمع المعرفة، إلا أن البشرية تعيش أنواعا جديدة من الجهل، مثل الجهل المزدوج أو الجهل المركب، وللمزيد يمكن العودة إلى:
https://eldabhm.wordpress.com/2020/06/27

6 يمكن العودة إلى دراستنا عن الرواية بين التخييل البشري والذكاء الاصطناعي، ضمن أوراق ملتقى الشارقة للسرد، الدورة 21 الرواية والذكاء الاصطناعي، القاهرة، 9- 10 سبتمبر 2025.

ملف العدد

السرد أرض أمومية

أميمة الخميس

روائية وكاتبة

المملكة العربية السعودية

تبدو إشكالية الهوية، وتأطيرها، وصبها في قوالب نهائية ثابتة؛ من أبرز التحديات التي تواجه الفكر العربي في العصر الحديث، وقد برزت هذه الإشكالية على شكل سؤال قديم جديد، لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ حيث بدأت إرهاصاتها مع صوت دوي مدافع نابليون على شواطئ المنطقة، هو، وجيشه، ومطبعته، وعلماؤه؛ فسبب صدمة لذاتٍ وجدت أمامها آخر قوياً ومهدداً.

ولأن الهوية كما يشير هيدغر: «ليست شيئًا جوهريًا ثابتًا، بل هي الدوام المتبدل»، لذا لا قالب جاهزا لها صالح لكل زمان ومكان، بل هويّات في طور تبدُّلٍ دائم، فقد تقلصت خرائط المبحوث على امتداد العالم الإسلامي في سؤال شكيب أرسلان: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟ إلى سؤال محمد عابد الجابري في كتابه «مسألة الهوية، العروبة والغرب»، مثيرًا السؤال: ما العربي؟ سؤالٌ لا يحتمل إجابة واحدة في ظل الظرف الراهن على الأقل؛ لأن الإجابة عنه إجابة تبلورها الأيدولوجيات، ومواقف الأشخاص[1].

1 محمد عابد الجابري، مسألة الهوية، مركز دراسات الوحدة العربية، 1995م.

مَـرَّ سـؤال الهويـة بالكـثير مـن التحديـات التـي رافقـت حالـة الصراع الحضـاري بيننـا وبين الآخـر، ومـا تخلـه مـن اسـتعمار واحـتلال ومواجهـات دمويـة، كانـت تأخذنـا إلـى حافـة هاويـة غامضـة الملامـح، تعجـز عـن أن تمدنـا بالجـواب الشـافي والناجـع.

وتبـدو المفارقـة هنـا؛ عندمـا نسـتعير أدوات الآخـر، وفكـره، وأيدولوجيتـه؛ لمحاولـة تحليـل مجتمعـات قديمـة وعريقـة، لكـن دون مـرآة تتقصـى ملامحهـا، ومـن هنـا باتـت إحـدى طـرق التعامـل مـع هـذا السـؤال الزئبقـي المخاتـل، مـن خلال مـا يسـميه علمـاء النفـس «الهويـة السرديـة».

حيـث تـقترح الهويـة السرديـة، بـأن النـاس يصبحـون أنفسـهم عندمـا يتموضعـون فـي القصـص، حيـث يقـدم هـذا التصـور الهويـة كسرديـة بديلـة لانتمـاءات الفئـة الاجتماعيـة، أو خصائـص موروثـة مثـل العـرق أو الديـن أو الأمـة.

هنـا تصبـح مهمـة كل أمـة اكتشـاف سرديتهـا الخاصـة، التـي تبرز هويتهـا، وفـي الوقـت نفسـه، تحقـق طموحاتهـا وتطلعاتهـا، «الملاحـم سـليلة الأمـم القويـة والجبـارة، وهـي فـي طريقهـا لتكويـن إمبراطوريـات»[2]

فالسرديـات الكبرى، باتـت هـي المعمـار القـادر علـى أن يلملـم القطـع المتناثـرة، ويرصفهـا علـى شـكل فسيفسـاء ضخمـة، لا يشـبه كل حجـر فيهـا الآخـر، لكـن فـي الوقـت نفسـه تبرز تواشـجها اللوحـة كاملـة.

> **مَرَّ سؤال الهوية بالكثير من التحديات، التي رافقت حالة الصراع الحضاري بيننا وبين الآخر، وما تخلله من استعمار واحتلال**

يتسـاءل الفيلسـوف الفرنسـي ريكـور، أفلا تـصير حيـاة النـاس أكثر معقوليـة حين يطبـق عليهـا الإنسـان النمـاذج السرديـة أو «الحبكات» المستمدة من التاريخ والخيال «مثل مسرحية أو روايـة، أي صـورة الـذات المتحركـة؟»، وفـي إطـار علاقـة التاريـخ بالمتخيـل، وُجِـد أن تحديـد هويـة الفـرد أو المجموعـة يتوقـف علـى الجـواب عـن السـؤال: مـن فعـل ذلـك الفعـل؟ وحـدّة الـذات الفاعلـة، أي اسـتمراريتها وثباتهـا، رغـم التحـول

2 جون سذر لاند، مختصر تاريخ الأدب، دار الكتب العلمية

> **تبدو المفارقة؛ عندما نستعير أدوات الآخر، وفكره، وأيدولوجيته؛ لمحاولة تحليل مجتمعات قديمة وعريقة، لكن دون مرآة تتقصى ملامحها**

لا يمكـن أن تفهـم إلا بالمعنـى السردي، فسـؤال الهويـة يرتـد عندئـذ إلـى عمليـة سرديـة لمسـار الـذات، وبـدون هـذا البُعْـد الشـخصي، لا سـبيل للخـروج مـن مـأزق الهويـة الشـخصية»[3].

ولـن أسـتطيع كونـي فـردا أن اسـتأثر بقصـة أكتبهـا لـي وحـدي، لأننـي قـد أكـون لسـانًا يسـتبطن حكايـة الجماعـة، ورحلتهـا عبر الزمـان، وتغريبتهـا داخـل المـكان، أي مـن خلال «مختلـف النمـاذج السرديـة - بمـا فـي ذلـك الأجنـاس الأدبيـة، وبُنـى الحبكـة، والتيمـات المجازيـة ... إلـخ- التـي توفرهـا ثقافتـي؛ لأنـه يوضـح الارتباطـات العميقـة بيـن القصـص الثقافيـة والقصـص الشـخصية، والنسـيج التفسـيري للتفـكير نفسـه»[4].

جليلة الطريطر

إيلينا فرانتي

وكمـا كنـا نجـد مصر؛ النهضـة، والشـباب، والطمـوح، فـي شـخصية مصطفـى كمـال، فـي ثلاثيـة نجيـب محفـوظ، كنـا نجـد أيضًـا مصر البوليسـية، ومحـاور القـوى فـي شـخصية إسـماعيل الشـيخ، فـي روايـة «الكرنـك» للروائـي نفسـه. كذلـك أصبحـت هنـاك مدينتـان تدعيـان «نابولـي»، تلـك التـي يرتادهـا السـيّاح، والأخـرى التـي أنشـأتها الروائيـة الإيطاليـة إيلينـا فرانتـي فـي رباعيـة نابولـي.

3 بول ريكور، الوجود والزمان والسرد، ص251.

4 السرد والهوية وإعادة تنظيم الذات، جينز بروكمير، مؤسسة هنداوي.

السرديات الكبرى، باتت هي المعمار القادر على أن يلملم القطع المتناثرة، ويرصفها على شكل فسيفساء ضخمة، لا يشبه كل حجر فيها الآخر، لكن في الوقت نفسه يبرز تواشجها كلوحة كاملة

إنها السرديات الصغرى التي تفر من هيمنة المركز إلى قصة الفرد، حيث الواحد للجماعة والجماعة للواحد.

وقد يصبح الأمر مركبًا عندما تكون الذات الأنثوية جزءاً من سؤال الهوية، بعد أن ظلت بمنأى عن الفضاء العام لدهور، وبقيت على هامش التدوين، ولم تتسلل إلى المتن إلا في مراحل متأخرة، لذا برز هنا سؤال الهوية بطبقات متعددة، عن ذات تتموضع أمام الآخر، وفي الوقت نفسه تنوء بحمولة ثقيلة من الإرث الجندري، «فالمرأة كائن موجود بغيره لا بذاته؛ فهي إما ابنة فلان، أو أخت فلان، أو زوجة فلان»[5].

5 خالدة سعيد، في البدء كان المثنى، دار الساقي.

حتى جدتنا العريقة شهرزاد، التي سعت إلى مخاتلة الصمت بالكلام، نجد أن الكلام كان يوضع على لسانها وفق قوانين ثقافة شعبية، تكرّس بحرص تراتبية العائلة البطريركية وامتيازات ذكورها على اعتبار أن اللغة هي سلطة عليا لمواجهة المتمردين والمارقين، فيصبح التحدي هنا إيجاد ذات من داخل رقابة اللغة الصارمة.

«المرأة العربية الكاتبة، كانت تدرك بأنها على موعد مع كتابة تاريخ النساء المهمل، وأنها بصدد تحديد موقع لها في نسق الثقافة الرمزي، يجعلها فاعلة ثقافية بالأصالة، ويحدّ من الصوت التمثيلي الواحد للشرعية الثقافية. ويبدو ذلك جليّا من خلال خصوصيات الكتابة الذاتية النسائية، التي تتمحور حول تفكيك الهوية الأنثوية، وترميم تصدّعها الداخلي والخارجي، حيث ظلت المرأة مجرّد موضوع للحكايات والقصص التي وردت على لسان الرجال، في الوقت الذي تهيّبت فيه من الإبداع»[6].

قد يصبح الأمر مركبًا عندما تصبح الذات الأنثوية جزءا من سؤال الهوية، بعد أن ظلت بمنأى عن الفضاء العام لدهور، وبقيت على هامش التدوين، ولم تتسلل إلى المتن إلا في مراحل متأخرة

كتبت ثلاث روايات على لسان نساء، محاولة لتحرير أرض السرد، واستعادة بعض من حقولها المستباحة، ولكن وحدها الرواية الرابعة «مسرى الغرانيق في مدن العقيق»، التي كانت على لسان رجل «مزيد الحنفي»، هي التي نالت الاحتفاء والجوائز؛ فهل مازالت اللغة وأدوات النقد في الحوزة البطريركية؟

في الختام أذكر بأنني ذكرت في إحدى المقابلات الصحفية، بأن السرد أرض أنثوية، حيث حكاية الجدات وقصص ما قبل النوم، ومسامرات المساء، والتي تحاك جميعها بلسان النساء، الذي يمثل ذاكرة الجماعة، الحاضنة لإرثها، وكل حكاية تكتبها المرأة هي راية فوق أرض محررة.

6 جليلة الطريطر، مرائي النساء، الدار التونسية للكتاب.

التراث الأثري لمجمع كهوف حديقة نياه الوطنية - ماليزيا - قائمة الإيسيسكو للتراث في العالم الإسلامي

المنظمات والتعليم

في ضوء توجهات الأمم المتحدة

أ.د. عبد السلام الجوفيّ
مكتب التربية العربيّ لدول الخليج

شهد العالم في السنوات الأخيرة تفاقم أزمة التعليم العالمية، التي تجلت في فجوات عميقة في الوصول إلى التعليم الجيد والمنصف، فضلًا عن التحديات المتعلقة بجودة المناهج الدراسية وملاءمتها لمتطلبات العصر الرقميّ المتسارع. وفي استجابة حاسمة لهذه الأزمة، جاءت قمة تحول التعليم في سبتمبر 2022 لتؤكد ضرورة إعادة تصور النظم التعليمية جذريًّا بما يضمن تمكين الأجيال القادمة من المهارات والمعارف التي يحتاج إليها المستقبل.

وفي هذا السياق الحيويّ، تبرز الوظيفة المحورية للمنظمات المختلفة - سواء كانت دولية أو إقليمية أو محلية - قوةً دافعةً لتحويل هذه الرؤية الطَّموح إلى واقع ملموس. وتزداد هذه الوظيفة أهميةً في ضوء التطورات التكنولوجية المتسارعة التي أُبرزت في قمة المستقبل 2024، فضلًا عن تأكيد أهمية التعاون العالميّ الذي جسّده إعلان فورتاليزا 2025.

المنظمات حافزًا لتحقيق مستهدفات تحول التعليم

تؤدي المنظمات وظيفة محورية ومتعددة الأوجه في دعم تحقيق مستهدفات قمة تحول التعليم، إذ تعمل محفزاتٍ رئيسةً للتغيير، ومنسقاتٍ للجهود التعليمية على مختلف الأصعدة. فمن خلال تقديم الدعم الفنيّ والماليّ وتوفير الإرشادات والمعايير، تساعد هذه المنظماتُ الحكوماتِ في صياغة وتنفيذ سياسات تعليمية مبتكرة.

على سبيل المثال، توفر اليونسكو إرشاداتٍ فنيةً ومعاييرَ عالميةً لتطوير مناهجَ شاملةٍ وعادلة، بينما يعمل البنك الدوليّ وصندوق النقد الدوليّ على دعم الدول النامية من خلال تمويل المشاريع التعليمية وتقديم الخبرات التقنية لتوسيع نطاق التعليم وتحسين جودته.

وتؤدي منظمات مثل اليونيسف ومبادرة الشراكة العالمية من أجل التعليم «GPE» وظيفة محورية في بناء الشراكات بين مختلف الجهات الفاعلة - من منظمات دولية، ومجتمع مدنيّ، وقطاع خاص - لتحقيق هدف مشترك يتمثل في تحسين نتائج التعليم في البلدان النامية. ومن خلال هذه الشراكات، يكون تبادل الخبرات، وتضافر الموارد، وتحقيق تأثير ملموس في الواقع.

ومع ذلك، لا تخلو هذه الجهود من التحديات؛ إذ تواجه المنظمات عقبات مثل محدودية الموارد المالية والبشرية، وصعوبة تنسيق الجهود بين الأطراف المتعددة ذات المصالح المختلفة، إلى جانب التفاوت الكبير بين السياقات الوطنية التي تتطلب حلولًا مصممة خصيصًا.

> **تحقيق مستهدفات قمة تحول التعليم مهمة معقدة تتطلب تعاونًا دوليًا وإقليميًّا مستمرًّا**

أهمية منظمات المجتمع المدنيّ والمنظمات غير الحكومية

تبرز أهمية منظمات المجتمع المدنيّ والمنظمات غير الحكومية في معالجة الاحتياجات التعليمية المحلّيّة، إذ تكون في كثير من الأحيان في طليعة العمل، وتصل إلى الفئات الأكثر تهميشًا. وتنفيذ هذه المنظمات لمبادرات تعليمية مبتكرة يمنحها القدرة على تقديم رؤًى عمليةٍ يمكن أن تثريَ سياسات المنظمات الدولية والحكومات وخططها. إن قدرتها على العمل داخل المجتمعات تمنحها أهميةً لا غنى عنها في بناء نظمٍ تعليميةٍ أكثرَ عدالةً ومرونة.

قمة المستقبل 2024: الذكاء الاصطناعي قوةً تحويليةً للتعليم

أكدت قمة المستقبل 2024 الأثر المتزايد للتكنولوجيا، وخاصة الذكاء الاصطناعيّ «AI»، في إعادة تشكيل مستقبل التعليم، لما يقدمه من حلول مبتكرة للتحديات التقليدية في القطاع التعليميّ. ومن أبرز تطبيقاته:

- التعليم الشخصيّ الذكيّ: يمكن لأنظمة الذكاء الاصطناعيّ تحليل أداء الطالب وأنماط تعلمه لتقديم محتوًى مخصص وتكييف الوتيرة التعليمية بما يتناسب مع احتياجاته الفردية.
- تحليل بيانات التعلم: يتيح الذكاء الاصطناعيّ معالجة بيانات ضخمة لتحديد التوجهات والمخاطر وتحسين السياسات التعليمية استنادًا إلى الأدلة.
- تطوير محتوًى تفاعليٍّ وجذاب: من خلال الألعاب التعليمية، والمحاكاة، والواقع المعزز، يمكن للذكاء الاصطناعيّ أن يعزز من فهم الطلاب للمفاهيم المعقدة ويزيد من دافعيتهم للتعلم.
- تخفيف الأعباء عن المعلمين: يمكن للذكاء الاصطناعيّ أتمتة المهام الإدارية والروتينية، مما يمنح المعلمين وقتًا أكبر للتركيز على التفاعل التربوي ودعم الطلاب.

رغم هذه الفرص، يحمل استخدام الذكاء الاصطناعيّ في التعليم تحديات كبيرة، منها التحيزات الخوارزمية، وقضايا

> **توفر اليونسكو إرشاداتٍ فنيةً ومعاييرَ عالميةً لتطوير مناهجَ شاملةٍ وعادلة**

الخصوصية وأمن البيانات، والتأثير المحتمل في مستقبل مهنة التعليم، فضلًا عن خطر اتساع الفجوة الرقمية في حال عدم ضمان الوصول العادل إلى التكنولوجيا.

ومن هنا، تبرز أهمية المنظمات الدولية في وضع أطر قانونية وأخلاقية لاستخدام الذكاء الاصطناعيّ في التعليم، وتوفير الدعم، وبناء القدرات للدول لضمان اعتماد واعٍ ومسؤول لهذه التكنولوجيا.

إعلان فورتاليزا: ترسيخ التعاون العالمي في مجال التعليم

يشكل إعلان فورتاليزا 2025 محطة مفصلية في تأكيد أهمية الشراكات المتعددة الأطراف والتعاون الدوليّ لتحقيق أهداف التعليم للجميع. ويؤكد الإعلان المسؤولية المشتركة بين الحكومات، والمنظمات الدولية، والمجتمع المدنيّ، والقطاع الخاص لضمان فرص تعليمية عادلة وشاملة، لا سيما للفئات المهمشة.

يتكامل الإعلان بشكل وثيق مع أهداف قمة تحول التعليم من خلال:

- تيسير الحوارات والمنتديات العالمية لتبادل المعرفة وأفضل الممارسات.
- تنسيق المبادرات الدولية لضمان تكامل الجهود التعليمية.
- حشد الدعم الماليّ والسياسيّ لزيادة الاستثمار في التعليم.
- تعزيز التعاون بين مختلف القطاعات من خلال شراكات استراتيجية متعددة الأطراف.

لكن، يواجه التعاون الدوليّ تحديات تشمل الاختلافات في الأولويات الوطنية، وصعوبة التنسيق بين الجهات، والتوترات الجيوسياسية التي قد تعيق تنفيذ المبادرات المشتركة.

الإيسيسكو: نموذج للعمل الإقليميّ لخدمة التعليم

تعد منظمة العالم الإسلاميّ للتربية والعلوم والثقافة «إيسيسكو» نموذجًا رائدًا لمنظمة إقليمية تدعم بشكل فاعل مستهدفات قمة تحول التعليم في الدول الأعضاء البالغ عددها 53 دولة. وتتبنى المنظمة رؤية مستقبلية شاملة تأخذ في الاعتبار الفرص والتحديات التكنولوجية، وروح التعاون الدوليّ كما ورد في إعلان فورتاليزا.

وتتجلى جهود الإيسيسكو في المحاور التالية:

- استشراف مستقبل التعليم: من خلال تنظيم المنتديات واستطلاع الاتجاهات المستقبلية، وتقديم إستراتيجيات مساعدة لصناع القرار.
- تعزيز أخلاقيات استخدام الذكاء الاصطناعيّ: من خلال تطوير أطر أخلاقية وتنظيم ورش تدريبية لرفع وعيِ التربويين وصناع السياسات.
- دعم السياسات التعليمية المبتكرة: بتقديم الدعم الفنيّ للدول في تحديث المناهج وإستراتيجيات التعلم الرقميّ وتدريب المعلمين.
- تعزيز التعاون الإقليميّ: من خلال مؤتمرات وورش عمل تجمع الفاعلين التربويين لتبادل أفضل الممارسات والحلول.

وعليه يمكن القول إن:

تحقيق مستهدفات قمة تحول التعليم مهمة معقدة تتطلب تعاونًا دوليًا وإقليميًّا مستمرًّا، وتكامل الجهود بين جميع الأطراف المعنية. وتلعب المنظمات دورًا أساسيًا في تحفيز التغيير، وتنسيق الشراكات، والدعم الفنيّ والماليّ.

وفي ظل التطورات التكنولوجية المتسارعة التي أظهرتها قمة المستقبل 2024، يكتسب دور المنظمات أهمية إضافية لضمان استخدام التكنولوجيا، وعلى رأسها الذكاء الاصطناعيّ استخدامًا أخلاقيًّا وعادلًا في خدمة أهداف التعليم. وإنّ إعلان فورتاليزا يعزز ضرورة الشراكة العالمية لتحقيق تحول تعليميّ شامل.

وتُبرز تجربة منظمة الإيسيسكو أهمية وجود منظمات إقليمية فاعلة تكرّس جهودها لدعم الدول في استشراف المستقبل وتطوير السياسات التعليمية المستجيبة للتحديات.

إن تحقيق مستقبل تعليميٍّ أفضلَ للجميع يتطلب التزامًا طويل الأمد، وشراكاتٍ إستراتيجيةً، وتضامنًا دوليًا حقيقيًّا، يجعل من التعليم أداةً للعدالة والتمكين والتنمية المستدامة.

على متنِ قشّة*

قمر الجاسم

شاعرة وإعلامية
عضو ملتقى
الإيسيسكو
للشاعرات

سوريا

لأن المرأة عماد المجتمع تحتاج إلى تنبيهها أنّ نجاحها لا يعتمد على كسر الناجحات، بل كلما سقطت امرأة من الصورة اختل توازن الكون.. وأن أكبر جرم إنساني أن تكون المرأة ألد أعداء المرأة.

ونحنُ النّساءَ نوزّعُ من شُرفاتِ الحروفِ
أغاني العصافيرِ إنْ خَذَلتْها الطبيعةُ،
نبكي إذا جفَّ ضرعُ الغيومِ
لكي لا يموتَ الشجرْ
وإنْ عكّرَ اليأسُ صفوَ الحياةِ
نفوحُ كما العطرِ
كي يستحمَّ المطرْ
وحين تكاثرتِ الحربُ جيلاً فجيلاً
وزاد الزمانُ نعيقَ الخطرْ
تَباطَأتِ السلحفاةُ لئلا
تفوزَ علينا..
وخافَ القطارُ علينا من الوقتِ
فاستلَّ سكّتَهُ وانتحرْ
سنسقطُ من عينِ تاريخنا حين تولدُ
من صُلبِ دمعتنا
«شبهُ أنثى»
تُقايضُ أحلامنا بالمَوَاتِ
كما يسقطُ الحبُّ
من قمّةِ الوَجدِ في مُنحدرْ

ونحنُ النّساءَ تخافُ الحروبُ علينا
فتسعى إلى السِّلمِ
تخشى الرَّصاصةُ أنْ تستقرَّ
على وجهِ ضِحكتنا المُستعارْ
ومنْ خوفنا الليلُ رشَّ النجومَ
على وجهِ عَتْمَتِهِ فاستنارْ
قضى في السنين العجافِ علينا الوداعُ
على سجننا صار يبكي الجدارْ

بوجهك ما قد يُبشِّرُ بالخيرِ لا تظلميهِ
ولا تتركيهِ بذاكرةِ امرأةٍ خانَها الموتُ
حتى اشتَهتْ أن يَعُمَّ السُباتْ
تفيضُ الحياةُ بأوجاعِها.. بالحروبِ
بدمعِ الثكالى
بموتِ الجمالِ وقهْرِ الجبالِ
فلا تلبَسي وجهَ هذي الحياةْ
ونحن النّساءَ نسيرُ على الماءِ لا تسحَبينا
إلى عصرٍ قبلَ المَواتْ
وأنذَرنا البحرُ، أمواجُهُ سوف تَغرَقُ
أنَّ قراصنةَ العمرِ جاؤوا..
فلا تَركلينا
ونحن نجهّزُ طَوقَ النجاةْ
غَرِقنا.....
هنيئاً لقد صرتِ شكلاً جديداً
بتاريخ وأدِ البناتْ.

*جزء من القصيدة

ثقافة

المغرب
جسر حضاري بين ضفتي المتوسط

علي أبطال
باحث
مركز الترجمة والنشر
الإيسيسكو

يشكل موقع المملكة المغربية على ضفاف البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي نقطة التقاء استراتيجية بين قارتي إفريقيا وأوروبا. هذا الموقع الفريد منح المغرب دوراً محورياً في تشكيل النسيج الحضاري والتاريخي لمنطقة حوض المتوسط بأكملها، كما يؤكد فيرناند برودل في دراسته الرائدة حول المتوسط والعالم المتوسطي. فالمغرب، بحكم موقعه الجغرافي المتميز، شكّل جسراً للتبادل الثقافي والحضاري بين الشمال والجنوب عبر مختلف العصور التاريخية. يسعى هذا المقال إلى استكشاف العلاقات التاريخية المتشابكة بين المملكة المغربية ودول الحوض المتوسطي الأوروبية، وتحليل التأثيرات المتبادلة في مجالات العمارة والفنون والموسيقى واللغة وأنماط العيش والطبخ والتراث الثقافي بشكل عام.

إن فهم طبيعة هذه العلاقات التاريخية وتطورها عبر القرون يتيح لنا إدراكاً أعمق للهوية المتوسطية للمغرب، ويساعدنا على استكشاف ديناميكيات التأثير والتأثر بين ضفتي المتوسط.

> **إن الهوية المتوسطية للمغرب ليست مجرد انتماء جغرافي، بل هي نتاج تاريخ طويل من التفاعل والتبادل الثقافي عبر البحر المتوسط**

السياق التاريخي للعلاقات المغربية - المتوسطية

تضرب جذور العلاقات بين المغرب ودول الحوض المتوسطي في أعماق التاريخ، ويمكن تتبعها إلى العصور القديمة مع وصول الفينيقيين إلى السواحل المغربية من خلال تأسيسهم لمراكز تجارية بحرية مثل «ليكسوس» قرب مدينة «العرائش الحالية» و«تنجيس» «طنجة الحالية». وبعدهم جاء القرطاجيون، ثم الرومان الذين أدمجوا المغرب في إمبراطوريتهم تحت اسم «موريطانيا الطنجية»، تاركين إرثاً حضارياً كبيراً يتجلى في الآثار الرومانية كمدينة «وليلي» قرب مكناس ومدينة «تاموسيدا» قرب القنيطرة، وفقاً لما يوثقه تيراس في تاريخه للمغرب في هذه المرحلة، كان التأثير يسير بشكل أساسي من الشمال نحو الجنوب، مع فرض الرومان أنماطهم الحضارية والإدارية على المناطق الخاضعة لهم.

شهدت هذه العلاقات نقلة نوعية مع الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا في القرن السابع الميلادي، ثم العبور إلى شبه الجزيرة الإيبيرية وتأسيس الأندلس. وفي عام 711م، عبر طارق بن زياد مضيق جبل طارق وبدأ حقبة جديدة من التفاعل الحضاري التي استمرت لثمانية قرون، كما يفصل ذلك ليفي بروفنسال في تاريخه لإسبانيا المسلمة.

أسست الدولة الأموية في الأندلس، ومن بعدها دول الطوائف، ثم الدولة المرابطية والموحدية، نموذجاً متقدماً من التعايش والتلاقح الثقافي، وهو ما تؤكده دراسة المريني حول المغرب والأندلس. ومع سقوط غرناطة عام 1492م، دخلت العلاقات المغربية-المتوسطية منعطفاً جديداً تميز بالصراع السياسي والعسكري مع القوى الأوروبية المتوسطية الصاعدة، وخاصة إسبانيا والبرتغال في البداية، ثم فرنسا وإيطاليا لاحقاً، وفقاً لما يدرسه ريكار في أبحاثه حول علاقات البرتغاليين بالمغرب.

أما العصر الحديث، فقد شهد تحولاً آخر في طبيعة العلاقات، مع دخول المنطقة في مرحلة الاستعمار الأوروبي، حيث خضع المغرب للحماية الفرنسية والإسبانية «1912-1956م». وقد أحدثت هذه المرحلة التاريخية تغييرات عميقة في النسيج الاجتماعي والثقافي المغربي، وعززت الروابط مع أوروبا، خاصة فرنسا وإسبانيا، في مختلف المجالات، وفق ما يحلله لوغان في تاريخه للمغرب.

العمارة: تلاقح وتفاعل عبر ضفتي المتوسط

تُعد العمارة من أبرز المجالات التي تجلت فيها العلاقات المتبادلة بين المغرب ودول حوض المتوسط الأوروبية. فالطراز المعماري الأندلسي-المغربي يشكل شاهداً حياً على هذا التفاعل الثقافي، كما يؤكد الإدريسي. وقد تطور هذا الطراز نتيجة امتزاج التقاليد المعمارية الأمازيغية والعربية الإسلامية مع التأثيرات الرومانية والبيزنطية والإيبيرية.

تتميز العمارة المغربية-الأندلسية بخصائص فنية متفردة كالأقواس المفصصة والحُدوية، والمقرنصات، والزخارف الهندسية المعقدة «الأرابيسك»، والأسقف الخشبية المزخرفة، والأفنية الداخلية المحاطة بالأروقة، والنافورات والبرك المائية، واستخدام الزليج الملون«الفسيفساء»، وهي العناصر التي يفصل في دراستها غالوتي. وامتدت تأثيرات هذه العمارة إلى إسبانيا والبرتغال وصقلية وأجزاء من جنوب فرنسا وإيطاليا.

يُعد قصر الحمراء في غرناطة وقصر ألكازار في إشبيلية وجامع قرطبة في قرطبة وكنيسة سان ماركو في البندقية من أروع النماذج التي تجسد هذا التفاعل، بينما

موقع المغرب الفريد منحه دوراً محورياً في تشكيل النسيج الحضاري والتاريخي لمنطقة حوض المتوسط بأكملها

تمثل معالم كجامع القرويين في فاس والكُتبية في مراكش النظير المغربي لهذا التراث المشترك، وفقاً لما يوثقه بوركهارت.

انتقل التأثير المعماري المغربي-الأندلسي إلى جنوب أوروبا، حيث ظهر طراز «المدجن» «Mudéjar» في إسبانيا، الذي يمزج بين العناصر الإسلامية والمسيحية، كما يشرح غيشار. وامتد هذا التأثير إلى صقلية، حيث تظهر العناصر المعمارية المغربية-الأندلسية في قصر لا زيزا في باليرمو.

الفنون والحرف: إبداعات مشتركة

شكلت الفنون والحرف التقليدية مجالاً آخر للتواصل الحضاري، خاصة في صناعة الخزف والنسيج والجلد والخشب والمعادن، وفقاً لما يسجله بنعبد الله. فن صناعة الخزف المغربي الذي يمتاز بالتعقيد الهندسي والجمالي ويجمع بين تقاليد محلية أمازيغية وأخرى متوسطية، وقد تأثر بشكل كبير بالخزف الأندلسي. كما أن تقنيات صناعة الفخار في فاس تحمل أوجه شبه كبيرة مع تلك الموجودة في مايوركا وبلنسية، كما توضح دراسة كريسيي وغارسيا أرينال. أما فن الزليج المغربي، فقد انتقل إلى إسبانيا والبرتغال، ولا تزال المدن الإيبيرية تحتفظ بهذا الفن في معالمها التاريخية.

من جهة أخرى، استقبل المغرب تأثيرات فنية أوروبية، خاصة من فرنسا وإسبانيا وإيطاليا، وهو ما يظهر في الفن التشكيلي المغربي المعاصر الذي يمزج بين الأصالة المحلية والمدارس الفنية الأوروبية. كما أن الفنانين الأوروبيين، وخاصة المستشرقين منهم في القرنين التاسع عشر والعشرين، تأثروا بالفن المغربي وصوروا المشاهد المغربية بأساليب مختلفة، مما أسهم في التعريف بالثقافة المغربية في أوروبا.

الموسيقى: ألحان وإيقاعات متبادلة عبر المتوسط

تُعد الموسيقى من أهم روافد التبادل الثقافي. وتمثل الموسيقى الأندلسية، المعروفة في المغرب باسم «الآلة» أو «الطرب الأندلسي»، أحد أبرز مظاهر هذا التفاعل

في عام 711م عبر طارق بن زياد مضيق جبل طارق لتبدأ حقبة جديدة من التفاعل الحضاري والتي استمرت لثمانية قرون

الثقافي، وفقاً لما يحلله الجراري. فقد نشأ هذا النمط في الأندلس خلال العصر الذهبي، وانتقل مع الموريسكيين إلى شمال إفريقيا بعد سقوط الأندلس، ليستقر ويتطور في مدن مغربية كفاس وتطوان والرباط وسلا.

يجمع الطرب الأندلسي بين التراث الموسيقي العربي الإسلامي والتأثيرات الأمازيغية والإيبيرية، ويتألف من أحد عشر طبعاً «مقاماً»، وتؤدى في نوبات موسيقية تتبع نظاماً دقيقاً في الإيقاع واللحن. وقد احتفظت مدن فاس وتطوان بهذا التراث عبر القرون، كما يشير السائح.

ويشكل الطرب الغرناطي أحد أبرز الأنماط الموسيقية التقليدية في المغرب، وهو امتداد حيّ للتراث الفني الذي ازدهر في الأندلس. ويتميّز ببنية نغمية دقيقة تعتمد على نظام النوبات، والتي تشمل اثنتي عشرة نوبة كاملة مثل الرصد والمزموم والزيدان والصيكة، بالإضافة إلى نوبات ناقصة مثل الموال وغريبة الحسين والعراق. كما يُعتبر فن المطروز أحد تجليات هذا الطرب.

من جهة أخرى، امتد تأثير الموسيقى المغربية-الأندلسية إلى جنوب أوروبا، حيث يمكن ملاحظة آثارها في الفلامنكو الإسباني والفادو البرتغالي وبعض أنماط الموسيقى التقليدية في صقلية، ويُقال أيضاً إن لحن النشيد الوطني الإسباني «المسيرة الملكية» مستوحى من نوبة الاستهلال في الموسيقى الأندلسية، كما يوضح ذلك إيبالثا. فالإيقاعات والمقامات والآلات الموسيقية كالعود والرباب والقانون والطر «الرق» أثرت بشكل كبير في تشكيل الهوية الموسيقية المتوسطية.

اللغة والأدب: جسور التواصل الثقافي

يعد التأثير اللغوي والأدبي من أهم مظاهر التفاعل الحضاري. فاللغة العربية في المغرب والأندلس أثرت بشكل كبير في اللغات الإيبيرية، من خلال آلاف الكلمات العربية التي دخلت إليهما، وفقاً لما يوثقه غيربر. ومن الأمثلة على ذلك كلمات إسبانية ذات أصل عربي مثل: «alcalde» العمدة، من القاضي، «alcohol» الكحول، «algodón» القطن، «azúcar»السكر، «azeituna» الزيتون، «alcantara» القنطرة وغيرها الكثير.وقد قدّر بعض اللغويين أن حوالي 4000 كلمة في الإسبانية ذات أصول عربية، كما يؤكد ذلك لوبيث دي كوكا كاستانير «López de Coca Castañer, 2004».

كما استوعبت اللهجة المغربية الدارجة العديد من المفردات الإسبانية والبرتغالية والفرنسية والإيطالية، خاصة في المناطق الساحلية والمدن التي شهدت تفاعلاً تجارياً وثقافياً مكثفاً مع أوروبا، حيث تحمل الدارجة تأثيرات من اللغات الإيبيرية، في مناطق الشمال التي خضعت للاستعمار الإسباني خصوصا، حيث نجد كلمات كـ «لابلايا» «الشاطئ»، «لاكارتا» «الخريطة»، «فيستا» «الحفلة»، «سيمنا» «الأسبوع» وغيرها.

> **شكّل الأدب الأندلسي-المغربي رافدًا مهمًا للثقافة المتوسطية**

أما على المستوى الأدبي، فقد شكّل الأدب الأندلسي-المغربي رافدًا مهمًا للثقافة المتوسطية. فالموشحات والأزجال والقصائد العربية والأمثال الشعبية انتقلت من الأندلس إلى أوروبا وأثرت في أشكال أدبية أوروبية مختلفة، كما يشير بن حمادة في دراسته حول التفاعل الحضاري..

كما أن الأدب المغربي المعاصر يحمل تأثيرات واضحة من المدارس الأدبية الأوروبية، خاصة الفرنسية والإسبانية.

> **فن صناعة الخزف المغربي يمتاز بالتعقيد الهندسي والجمالي ويجمع بين تقاليد محلية أمازيغية وأخرى متوسطية، وقد تأثر بشكل كبير بالخزف الأندلسي**

وشكّلت الترجمة جسرًا مهمًا للتواصل الثقافي، حيث ترجم علماء المغرب والأندلس العديد من الكتب العلمية والفلسفية اليونانية إلى العربية، ثم أعيدت ترجمتها لاحقًا إلى اللاتينية واللغات الأوروبية، مما ساهم في حفظ التراث اليوناني القديم ونقله إلى أوروبا، وبالتالي الإسهام في النهضة الأوروبية.

هذا التبادل اللغوي لم يقتصر على المفردات، بل امتد إلى أنماط التعبير وطرق النطق وحتى بعض التراكيب

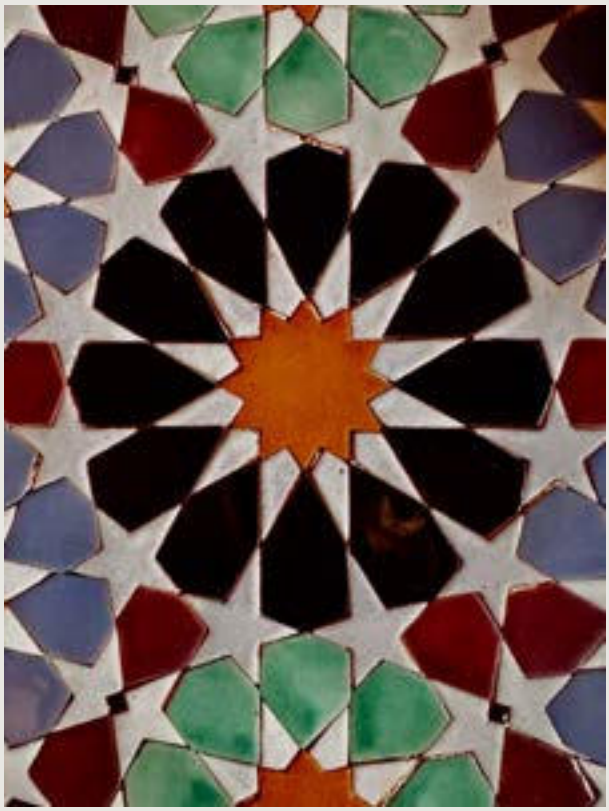

الطراز المغربي المعماري هو نتيجة امتزاج التقاليد المعمارية الأمازيغية والعربية الإسلامية مع التأثيرات الرومانية والبيزنطية والإيبيرية

النحوية. ويكفي أن نذكر أن الكثير من المصطلحات العلمية والفلكية والرياضية والطبية في اللغات الأوروبية تعود إلى أصول عربية، وكان للعلماء الأندلسيين والمغاربة دور كبير في نقلها إلى أوروبا خلال العصور الوسطى، عبر مراكز الترجمة في الأندلس وصقلية.

فن الطبخ: مذاقات متوسطية

يُعد المطبخ المغربي أحد أغنى المطابخ في العالم، ويعكس تاريخاً طويلاً من التفاعل مع مختلف الثقافات المتوسطية. فهو يحمل سمات متوسطية واضحة ويجمع بين التقاليد الأمازيغية والعربية والأندلسية، مع تأثيرات أوروبية متوسطية.

إن المكونات الأساسية للمطبخ المغربي مثل زيت الزيتون والحبوب والخضروات والأعشاب العطرية هي نفسها المكونات الأساسية لما يُعرف بالحمية المتوسطية. وقد أدخل المغاربة والأندلسيون العديد من المنتجات الزراعية إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، مثل الليمون والبرتقال والزعفران والباذنجان، وأدخلوا طرقاً مبتكرة في الطهي كاستخدام مزيج الحلو والمالح.

وتظهر التأثيرات المغربية-الأندلسية في أطباق إسبانية شهيرة مثل البايلا «Paella» والتورتيا الإسبانية والباستيلا. كما أن استخدام التوابل والأعشاب العطرية في المطبخ الإسباني، وخاصة في منطقة الأندلس، يحمل بصمات مغربية واضحة. هذا التأثير المتبادل لم يقتصر على المكونات فحسب، بل امتد إلى تقنيات الطهي وأساليب التقديم التي تعكس عمق التبادل الثقافي عبر قرون من التفاعل الحضاري.

أنماط العيش والقيم الاجتماعية: انصهار الثقافات المتوسطية

تظهر التأثيرات المتبادلة في تصميم المنازل التقليدية، وتنظيم المدن القديمة، والحرف اليدوية، والملابس التقليدية. فالمنزل المغربي التقليدي «الرياض» بفنائه الداخلي ونافورته يشترك في عناصر كثيرة مع المنازل التقليدية في جنوب إسبانيا وصقلية.

كما أن تخطيط المدينة المغربية القديمة بأزقتها الضيقة وأسواقها المتخصصة يشبه إلى حد كبير تخطيط المدن القديمة في جنوب أوروبا وقد انتقلت العديد من الحرف اليدوية المغربية إلى أوروبا، مثل صناعة الجلود والنحاس والفضة.

وبرغم الاختلافات الدينية والثقافية، هناك قواسم مشتركة تجمع شعوب حوض المتوسط، مثل أهمية العائلة، والاحتفاء بالضيف، والميل إلى الحياة الاجتماعية في الأماكن العامة.

وفي مجال الأزياء، شهد المغرب تأثيرات أوروبية واضحة، خاصة في المدن الكبرى، مع الحفاظ على الألبسة التقليدية في المناسبات والأعياد. وفي المقابل، أثرت الأزياء المغربية-الأندلسية في الموضة الأوروبية، خاصة في فترات تاريخية معينة، كما يظهر ذلك في لوحات الفنانين الأوروبيين في عصر النهضة.

رغم الاختلافات الدينية والثقافية، هناك قواسم مشتركة تجمع شعوب حوض المتوسط، مثل أهمية العائلة، والاحتفاء بالضيف، والميل إلى الحياة الاجتماعية

أما في مجال الاحتفالات والأعياد، فرغم الاختلافات الدينية، هناك أوجه تشابه في طريقة الاحتفال بالمواسم الزراعية والأعياد المرتبطة بالقديسين في المسيحية والأولياء في الثقافة الشعبية المغربية. فمهرجانات الحصاد ومواسم الأولياء في المغرب تحمل بعض السمات المشتركة مع الاحتفالات الشعبية في إسبانيا وإيطاليا واليونان.

استقبل المغرب تأثيرات فنية أوروبية، خاصة من فرنسا وإسبانيا وإيطاليا، وهو ما يظهر في الفن التشكيلي المغربي المعاصر الذي يمزج بين الأصالة المحلية والمدارس الفنية الأوروبية

المغرب جسر ثقافي: قراءة تحليلية

يمكن القول إن العلاقة بين الضفتين كانت أعمق وأكثر تعقيداً من مجرد تأثير أحادي الجانب، واتسمت بالتغير عبر الفترات التاريخية المختلفة. في العصر الذهبي للأندلس، كان التأثير المغربي-الأندلسي على جنوب أوروبا واضحاً وقوياً، خاصة في العلوم والفلسفة والعمارة.

كان للعلماء والفلاسفة الأندلسيين والمغاربة كابن رشد وابن طفيل وابن زهر وابن باجة وابن حزم وابن البيطار وعباس بن فرناس وغيرهم تأثير عميق على الفكر الأوروبي الوسيط ونهضته. كما كان للتقنيات الزراعية التي طورها الفلاحون المغاربة والأندلسيون دور كبير في تطوير الزراعة في جنوب أوروبا.

ومع انتهاء الوجود الإسلامي في الأندلس وتصاعد القوة الأوروبية، انعكس اتجاه التأثير الحضاري، حيث أصبحت التأثيرات الأوروبية أقوى في المجتمع المغربي. غير أن هذا التأثير لم يكن استلاباً كاملاً، بل تميز بتفاعل خلاق أنتج هوية ثقافية متميزة.

وخلال فترة الحماية «1912-1956»، تعزز التأثير الأوروبي في المغرب ومع ذلك، نجح المغرب في استيعاب هذه التأثيرات وتطويعها وفق خصوصيته الثقافية. وبعد الاستقلال، أصبح شريكاً فاعلاً في الحوار المتوسطي.

في النهاية، يمكن القول إن المغرب، بحكم موقعه الجغرافي وتاريخه العريق، يمثل نموذجًا فريدًا للتفاعل الحضاري بين إفريقيا وأوروبا، وبين العالم العربي الإسلامي وأوروبا المتوسطية المسيحية. وهذا التفاعل، بما حمله من تبادل ثقافي وفني وعلمي، ساهم في إثراء التراث الإنساني المشترك لشعوب حوض المتوسط، مؤكدًا أن البحر المتوسط لم يكن يومًا حاجزًا بين الثقافات، بل كان دائمًا جسرًا للتواصل والتفاعل الحضاري.

خاتمة

يتضح من خلال هذا المقال أن العلاقات بين المغرب ودول حوض المتوسط الأوروبية عبر التاريخ اتسمت بالتعقيد والغنى والتنوع، منتجةً نسيجاً ثقافياً فريداً يميز منطقة المتوسط بأكملها.

لقد أظهرت الأدلة التاريخية أن المغرب لعب دوراً محورياً في نقل المعرفة والخبرات بين ضفتي المتوسط، وساهم بشكل كبير في إثراء الثقافة المتوسطية. وفي المقابل، استفاد من تفاعله مع الثقافات المتوسطية الأوروبية، واستوعب العديد من العناصر والتأثيرات التي أعاد صياغتها وفق خصوصيته الثقافية.

يجمع الطرب الأندلسي بين التراث الموسيقي العربي الإسلامي والتأثيرات الأمازيغية والإيبيرية، ويتألف من أحد عشر طبعاً «مقاما»

إن الهوية المتوسطية للمغرب ليست مجرد انتماء جغرافي، بل هي نتاج تاريخ طويل من التفاعل والتبادل الثقافي عبر البحر المتوسط في عالم اليوم الذي يشهد تحديات متزايدة وصراعات ثقافية، يقدم النموذج المغربي المتوسطي درساً قيماً في إمكانية الجمع بين الأصالة والانفتاح، بين التمسك بالهوية والتفاعل الإيجابي مع الآخر كما يذكر المفكر عبد الله العروي. وربما كان هذا هو الدرس الأبرز الذي يمكن استخلاصه من دراسة «المغرب المتوسطي» وعلاقاته التاريخية مع دول الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط.

تشكيل

بسيـرة أخـرى

التراث المغربي بعيـون إسبانيـة

د. لطيفة لبصير

كاتبة وأستاذة التعليم العالي بكلية الآداب بنمسيك، جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء

تثير كثير من لوحات الفنان الإسباني خوسيه طابيرو إي بارو كثيرًا من الجدل، خاصة في بعدها الاستشراقيّ. فالبعضُ ينظر إليها على أنها لوحات فنية نمطية لا تعكس رؤية حقيقية، والبعضُ يراها إبداعًا إثنوغرافيًّا استمر مع الزمن حتى أنّ مدينة طنجة نفسَها، التي عاش فيها الفنان أحيت أعماله الفنية في هذا العام، بحفل فنيّ دام لأيام، وكأنه ضوء يتجدد عبر الزمن.

إن المتأمل لأعمال طابيرو إي بارو من حيث هو فنان مستشرق عاش في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، يجد نفسه أمام مبدع له طابعه الخاص في تأمل الوجوه ونقلها بدقة شديدة كأنها توثيق واقعيّ، خاصة أنه أعطى أهمية خاصة للبورتريهات في نقل الوجوه مثل كلّ مصور فوتوغرافيّ في الزمن الحاضر، وهو ما يثير الانتباه ونحن نقرأ هذه الأعمال المائية التي منحته لقب سيد الألوان المائية وسيد البورتريهات لشدة تأصيله للتفاصيل والجزئيات وملامح الوجوه والتقاط النظرة إلى غيرها.

نقل خوسيه طابيرو كثيرًا من الوجوه والأماكن في مدينة طنجة، ووثق تراثها الذي كان مزدهرًا في حقبة عاشها المغرب أواخرَ القرن التاسع عشر وبدايةَ القرن العشرين، بريشته الصباغية ورؤيته الفنية في كثير من العادات والتقاليد، خاصة أن هذه المدينة عُدَّت معبرًا لحضارات مختلفة، إذ عاشت صراعات أوروبية وإفريقية فضلًا عن أنها تعجّ بالأساطير التي ما زالت حية أمامنا، والتي صنعت منها مرتعًا خصبًا لخيال واسع ألهَمَ غير قليل من الفنانين والمبدعين، حتى أنهم أقاموا فيها، مثل ما حدث للفنان طابيرو الذي عاش في طنجة لما يقرب من أربعين عامًا حتى وفاته.

تعدُّ لوحات طابيرو، وغيره من المستشرقين، بمنزلة تكريس للدفء والشمس والضوء، فعلى الرغم من أن طنجة لا يغيب عنها المطر، إلا أن المستشرقين حاولوا التقاط أشعة الشمس والدفء، ولذا نجد الألوان التي تميل إلى السواد تستهويهم أكثر. فقدرةُ خوسيه طابيرو على التقاط الفروق الدقيقةِ في التعبيرِ، المجسدةُ في تفاصيل اللوحة التي تكشف عن حِرْفية العين الرائية الأجنبية، تظهر نوعًا متقدمًا من تمظهر التراث الخاص بالبلد في تلك الحقبة، التي تُخْلِّي فيها عن كثير من الصور النمطية التي تكشف عن النساء العاريات والحريم صورةً ينتظرها الأجنبيّ. ففي لوحاته الفنية تم تجاوز البعدُ الرومانسيُّ الذي ضجت به كثير من الأعمال التي كانت تنحو المنحى التجاريّ، لتؤصل لبعد فنيٍّ راقٍ أنشأ علامة مختلفة. في لوحته «عروس بربرية»، وهي نموذج خاص من نماذج

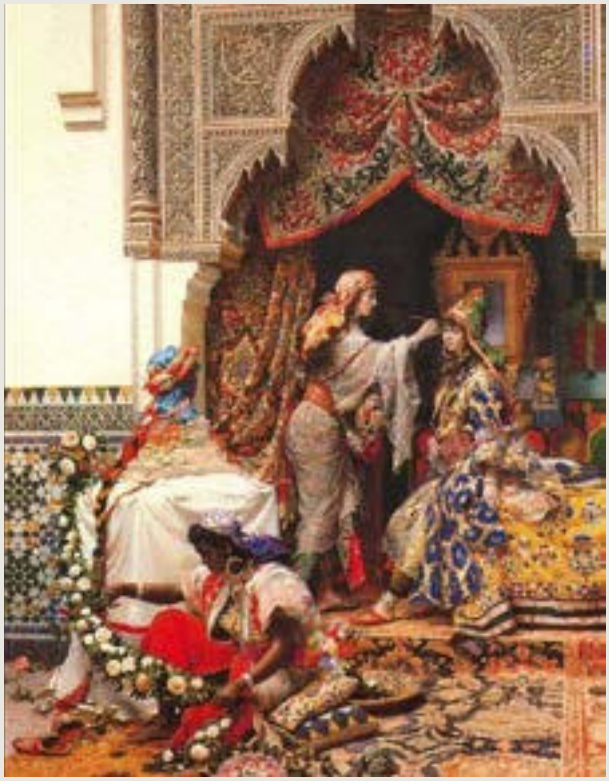

الصراعات التي عاشتها طنجة والأساطير التي تعج بها، صنعت منها مرتعًا خصبًا لخيال واسع ألهَمَ الكثير من الفنانين والمبدعين، حتى أنهم أقاموا فيها، مثل طابيرو الذي أقام بها أربعين عاماً

طابيرو في فن البورتريه، نرى أنه لم يكن مشغولًا بخلفية الصورة، بل كان منتبهاً للوجه واللباس والمجوهرات، بحيث تخلو الخلفية من أي تفاصيل أخرى سوى البياض، ويبدو وجه السيدة كما لو أنه لفحته الشمس حتى غدا أسمر، ونجد امرأة أخرى بعنوان «سيدة من طنجة» ترتدي اللباس نفسه مع تغيير في الإكسسوارات، بحيث نرى بشرتها السوداء تجمع بين الظل والضوء. ورغم تنوع الوجوه إلا أنّ كثيرًا من المجوهرات وأنواع اللباس التقليديّ لتلك الحقبة يؤرخ لحقبة هامة من تاريخ المغرب، التي كلما تقادمت بزغ الحنين إليها ومعها إلى الزمن القديم، وهو شيء لا يستطيع علماء النفس تفسيره، بحيث يكون التعلّق النفسيّ بحقبة قديمة مرت في تاريخ الإنسان،

تعدُّ لوحات طابيرو، وغيره من المستشرقين، بمنزلة تكريس للدفء والشمس والضوء، فعلى الرغم من أن طنجة لا يغيب عنها المطر، إلا أن المستشرقين حاولوا التقاط أشعة الشمس والدفء

وفي كثير من الأحيان يُعاد إلى هذه الموروثات كما لو أن الأمر يتعلق باسترجاع الحقبة في نفسِها، كأن نرى لوحته الشهيرة «امرأة مغربية بالحجاب» التي تعبر عن مظاهر الحجاب في تلك الفترة واختلافه من لوحة لأخرى، أو نرى لوحة «مجذوب في طنجة» التي تجسد البعد السلميّ لعيساوي بلا عنف، إذ يتقدم اللوحة رجل أسمر في جذبة روحانية تأملية للطقوس التي تتلبس كيانه.

وبغض النظر عن الفكرة التي تَرى في هؤلاء الفنانين مشاركين في حملات عسكرية ووجوهًا للتجسس على بلدان أخرى، فضلًا عن الفوقية أو الاستعلاء في فكرة الاستشراق، فإننا يمكن أن نقف عند الجانب الحَسَن لتفاصيل حضور هذه الثقافة والتقاليد في المغرب، وهي من أهم المعطيات التي توثق لهذا التراث المغربيّ الذي يمتد بصور أخرى.

وضمن لوحات الفنان طابيرو، نجد لوحة «زفاف بنت شريف طنجة» أو استعدادات لزفاف بنت شريف مدينة طنجة، وهي من الطقوس التي ركز عليها الفنان طابيرو لإبراز الجانب التراثيّ للمنطقة سواء في طنجة أو تطوان شمال المغرب، ففي هذه اللوحة نرى بأنه اشتغل بواقعية تشبه الأفلام الوثائقية؛ امرأةٌ تزين العروس وهي ما يسمى في شمال المغرب «الزيّانة» التي تسهر على تجميلها، وحتى الجلوس بجانبها طيلة الحفل لكي تصحح

المتأمل لأعمال طابيرو من حيث هو فنان مستشرق عاش في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، يجد نفسه أمام مبدع له طابعه الخاص في تأمل الوجوه ونقلها بدقة شديدة كأنها توثيق واقعيّ

بعض التفاصيل في زينتها، وترتدي الزيّانة غطاء نسميه «السبنية» وهو غطاء مشهور في المغرب إلى يومنا هذا، وترتدي القفطان المغربيّ بشكله في ذلك الوقت، الذي يمثل جذور التراث المغربيّ في التصميم، الذي تعود إليه الآن دور الأزياء في استلهام أشكاله القديمة نوعًا من النوستالجيا لحقبة زمنية مرّت.

تتزين العروس بالتكشيطة، وهو قفطان مغربيّ من قطعتين بأكمام عريضة، والشربيل الصم، والحزام الفاسيّ، والخلخال الكبير في القدم، والسروال المطرز، وكذلك بوضع أقراط ومجوهرات بالغة التعقيد تُبرز فخامة بنت شريف طنجة واحتفالها المميز.

أعمال خوسيه طابيرو المائية منحته لقب سيد الألوان المائية وسيد البورتريهات

في اللوحة قفطان مغربيٌّ فضفاض يسمى قفطان طرز الخنجر، وتأريخ هذا النوع من اللوحات لهذا النوع من القفطان يثبت دقة تفاصيل رؤية طابيرو لكل هذه الخصائص، إذ إنّ هذا النوع من التطريز أصبح يوظف في السنوات الأخيرة في كثير من الأزياء.

في اللوحة أيضًا البوجة «هودج العروس» التي تشتهر بها منطقة شمال المغرب، التي تختلف عن العمارية في وسط المغرب. إن نقل المكان وفخامته يبرز العمارة المغربيّة الذي تشكل هندسته الدقيقة وأشكاله الخارجية دقة في التفاصيل، فضلًا عن الزليج الملون الذي يرصع الجدار، ونجد الزربية التي تدل أيضًا على علاقة المغاربة أو العرب بالمكان.

إن التقنيات والأساليب التي اعتمدها طابيرو إي بارو في نقل التقاليد الشعبية، هي التي أضفت بعدًا فنيًّا ورؤية استشراقية ناضجة استمرت على مدى السنين، وما تنفك تعود بين الفينة والأخرى نموذجًا ينقل مرحلة مرّ منها الشرق ووُثّقَت بصور متعددة تخدم الدراسات السوسيولوجية والإثنوغرافية للشعوب التي تبهرنا على مدى السنين وكأنها تحف قديمة تستعيد بريقها على مرّ الأزمنة.

تراث

بلاريجيا

مدينة تسكنها الذاكرة:
فسيفساء الحياة اليومية في المدينة الملكية

د. بلال الشابي

خبير في
التراث الثقافي
بالإيسيسكو

تونس

قبل أن نغوص في تفاصيل الحجارة والنقوش،
وقبل أن نفكّ رموز المعمار،
دعونا نصغي لنبض الأرض كما تردّده القصيدة،
فبلاريجيا ليست مجرد موقع أثري،
بل ترتيلةٌ من الزمن...

تراتيل بلاريجيا

يا بلاريجيا، يا قصيدةَ حجرٍ...
يا نشيدَ الحضارةِ الخالدةْ...
يا عبيرَ العصورِ في صمتِها...
يا حكايا الوجودِ المجيدةْ...
فيكِ نامتْ نوميديا الحُرَّةُ...
في ظلالِ الجبالِ العنيدةْ...
ومشتْ فوقَ تُربكِ قرطاجُ...
تنسُجُ المجدَ شمسًا فريدةْ...
ثم جاءتْ رُوما بأحلامها...
فاستوتْ فوقَ أرضكِ المجيدةْ...
يا خلاصةَ تاريخِنا الأبديّ...
يا معارجَ حضارةٍ تليدةْ...
حين أمشي إليكِ يخفقُ قلبي...
في دروبِ الخلودِ السعيدةْ...
حين أمشي إليكِ يخفقُ قلبي...
في دروبِ الخلودِ السعيدةْ...

حيـن تنطـق العمـارة...

في قلـب الشـمال الغربـي مـن تونـس، حيـث تتماهـى الأرض مـع الأفـق فـي مشـهد ريفـيّ لا يخلـو مـن رهبـة الجمـال، وعلـى أطـراف تلالٍ تغفـو بيـن همسـات الريـح وهمسـات الضـوء، تنهـض بلاريجيـا كمدينـة محفـورة فـي ذاكـرة الحجـر، ومعلقـة بيـن زمنيـن: زمـن قرطـاج المتجـذر فـي عمـق التاريـخ، وزمـن رومـا المنبسـط علـى سـطح الإمبراطوريـة.

ليست بلاريجيا كباقي المدن التي شيدتها روما في إفريقيا، فهي لا ترفـع هامتهـا علـى الأعمـدة فقـط، ولا تفتخـر بمـا بقي مـن معابدها المنتصبة كأنها تحرس التاريخ، ولا تكتفي بأرضيـات فسيفسـائية تنبـض بالآلهـة والرمـوز، بـل تتجلـى عظمتهـا فـي ذلـك الاختيـار المعمـاريّ الجـريء: أن تكـون المنـازل نصفهـا فـي العـراء ونصفهـا فـي أحضـــان الأرض.

لقـد قـرر الإنسـان هنـا أن يسـكن فـي جـوف التراب، لا جبنًا من وهج الشمس، بـل وفـاءً لفهـم عميـق للطبيعـة، واحترامًـا لحكمـة الأجـداد الذيـن عرفـوا كيـف يجعلـون مـن الأرض ملاذًا وظلًا، ومـن عمقهـا مسـكنًا حميمًـــا لا يخـذل.

> **بلاريجيا مدينة محفورة في ذاكرة الحجر، ومعلقة بين زمنين**

إنهـا بلاريجيـا، المدينـة التـي لا تكتفـي بـأن تُـرى، بـل تُكتشـف. لا تُفصـح عـن أسـرارها لمـن يمـرّ مـرور العابـر، بـل تهمـس بهـا لمـن يُصغـي لصـوت الحجـر، ويقـرأ ظلال الأعمـدة، ويشـعر ببرودة الغـرف السـفلى التـي عاشـت فيهـا عـائلات كاملـة، تنظـم نهارهـا بيـن النـور والظـل، بيـن السـوق والمحـراب، بيـن عبـادة الآلهـة وطقـوس الحيـاة اليوميـة.

فـي بلاريجيـا، كل شـيء كان محسـوبًا بدقـة: زاويـة الضـوء، مسـار المـاء، فتحـة القبـو، شـكل العمـود، انحنـاءة القبـة. كل تفصيـل معمـاري كان نتيجـة فهـمٍ عميـق للطبيعـة، وحنكـة حضاريـة تجيـد الإصغـاء للمـكان. وهكـذا لـم تكـن المدينـة مجـرد تجمـع عمرانـي، بـل كيـان حـيّ، ينمـو ويتنفـس، يـروي، ويحفـظ، ويـؤوي. كانـت الأرض فيهـا ليسـت فقـط سـطحًا يُبنـى عليـه، بـل شـريكًا فـي البنـاء، ووعـاءً للمعيشـة، ومصـدرًا للسـكينة.

ومن هنا تبدأ الحكاية: كيف عاش الناس؟ كيف بنوا بيوتهم؟ كيف تفاعلوا مع المناخ، ومع السلطان، ومع الدين؟

كيف تنقّلت المرأة بين أروقة البيت وهي تحفظ النظام الداخلي؟

وكيف عبّرت الفسيفساء عن الأحلام والأساطير؟

كل هـذه الأسـئلة لا تُجـاب بالنصـوص فقـط، بـل تُسـتخرج مـن جـدران صامتـة، تنبـض بالحكايـة لمـن يفـكّ شـفرتها.

تـميّزت منازل بلاريجيا بهيكل معماري فريـد في جوهره، بديع في منطقه، نصفها يعلـو في الهواء، يلتقط الضوء ويصافح النسيم، والنصف الآخر يهبط في صمت الأرض، يكتنز البرودة، ويحتضن دفئًا متدرجًا

بيوت في نصفها السرّ...

مـا إن تطـأ قدمـك أطلال بلاريجيـا، حتـى تستشـعر أنـك أمـام معجـزة هندسـية صامتـة، تتـوارى عـن الأبصـار فـي تواضـع النصـف الغائـر وتسـمو فـي صمـت النصـف الظاهـر. فبيـوت هـذه المدينـة، التـي نسـجها خيـال الإنسـان بـعين المهنـدس وبقلـب العـارف بالمـكان، لـم تُبنَ علـى الأرض فحسـب، بـل غاصـت فـي أحشـائها، تبحـث عـن تـوازن لا تمنحـه الطبيعـة إلا لمـن يُصغـي إليهـا.

تـميّزت منـازل بلاريجيـا بهيـكل معمـاري فريـد فـي جوهـره، بديـع فـي منطقـه، نصفهـا يعلـو فـي الهـواء، يلتقـط الضـوء ويصافـح النسـيم، والنصـف الآخـر يهبـط فـي صمـت الأرض، يكـتنز البرودة، ويحتضـن دفئًـا متدرجًـا لـم تخلقـه نـار ولا موقـد. فـي الجـزء العلـوي، فنـاء رحـب تحيـط بـه الأعمـدة في هندسة بيرسـتيلية متناظرة، يفتح قلبه للسماء، ليكون نقطـة التقـاء الضـوء بالحيـاة، ملتقـى النسـاء فـي أشـغالهن، والرجـال فـي مداولاتهـم، والأطفـال فـي ضحكاتهـم العابـرة. أمـا فـي العمـق، حيـث يمتـد الطابـق السـفلي ككائـن خجـول منسـي، فقـد احتضـن غـرف النـوم، ومجالـس الطعـام، ومرافـق الخدمـة، حيـث كان السـكون سـيد اللحظـة، وكان الهـواء يحبـو بين جدرانـه محـمّلاً ببرودة الأرض وعطـر الـجير والرطوبـة القديمـة.

لـم يكـن هـذا الانغـراس فـي الأرض مـن قبيـل المصادفـة، بـل قـراراً واعيـاً، تُرجـم إلى لغـة الحجـر. فـي مواجهـة شـمس الهضـاب القاسـية، وحـرارة الصيـف الممتـد، كانـت هـذه البيـوت تهـرب مـن السـطح لا خوفـاً، بـل ذكاءً. فـالأرض، كما عرفهـا بنّـاؤو بلاريجيـا، ليسـت مجـرد سـطح يُشـيَّد عليـه، بـل كائـن حـيّ يُعانـق السـاكن إذا أحسـن إليـه التصميـم.

لقـد اسـتثمر الرومـان فـي هـذا النمـط أفضـل مـا أبدعتـه عقولهـم فـي الهندسـة: اسـتخدموا القبـاب والقبـوات البرميليـة والمعقـودة، وأتقنـوا توزيـع الـوزن علـى جـدران

سـميكة ومدعّمـة، فجـاءت الممـرات السـفلى مقبّبـة، عاليـة نسـبياً، مزخرفـة أحيانـاً، لكنهـا دائمـاً تـحترم وظيفـة المـكان. ولئن كانـت روح روما حاضرة في تلك الانحناءات المعمارية والانضباط الهندسي، فإن القلب الذي ينبض خلف الجدران ظـلّ قرطاجياً: عملياً، حميماً، مغلقاً دون أن يكون منعزلاً، شـديد الخصوصيـة مـن غير أن يُقصي العالـم.

فـي هـذه البيـوت، لـم يكـن المعمـار مـأوى فقـط، بـل نظـام حيـاة متكامـل. كل عـنصر فيهـا صُمـم ليخـدم غايـة دقيقـة: الفنـاء لتوزيـع الضـوء والهـواء، السـلالـم الداخليـة لربـط المسـتويين مـن غير صـدام بصري، الأعمـدة لتظليـل الزوايـا، والنقـوش لتزيين الحضـور اليومـي بالحلـم والأسـطورة. كانـت الحيـاة تُخطـط كمـا يُخطـط القـوس فـي قبـة تحـت الأرض، بدقـة، واتـزان، وانحنـاءة محسـوبة تضمـن البقـاء والراحـة والجمـال فـي آن.

ولعـل أجمـل مـا فـي هـذه البيـوت، أنهـا تظهـر فلسـفة وجوديـة: التعايـش مـع الطبيعـة لا ضدهـا، الإنصـات لصـوت الأرض لا تحدّيهـا، واختيـار العمـق لا الانفصـال، والتواضـع المكانـي حيلـةً للبقـاء الأجمـل.

هكـذا كانـت منـازل بلاريجيـا: نصفًـا فـي الشـمس، ونصفًـا فـي السرّ؛ نصفًـا يُـرى، ونصفًـا يُحـسّ؛ نصفًـا يحتضـن العالـم، ونصفًـا يحتضـن الـروح.

حجارة تتكلم...

ما يجعل بيوت بلاريجيا تقاوم الزمن، ليس فقط روعة تصميمها، بل المادة التي نُحتت منها: الحجر الجيري المحلي، الذي استُخرج من قلب الجبال المحيطة، لا لتوفره فحسب، بل لما يحمله من خصائص فيزيائية وجمالية لا تُقدّر بثمن. فهذه المادة الطبيعية كانت مثالية لهندسة تقوم على الحكمة والتجربة: حجر يحتفظ بالبرودة في جوفه، يُقاوم تعاقب الفصول، ويمنح للفراغات الداخلية بيئة معتدلة ومستقرة.

جدران هذه المنازل جمعت بين الوظيفة والجمال، بين القوة والصياغة الفنية. لم يكن البناء عملاً ميكانيكيًا، بل فنًّا تشكيليًا، تُمارسه أيادٍ خبيرة تعرف كيف تجعل من الجدار بيانًا بصريًا. الفسيفساء التي زُيّنت بها الأرضيات - خصوصًا في الطوابق السفلى - لم تكن زخرفة زائدة، بل شهادة حية على تلاقي الأسطورة باليومي، كما في بيت «أمفيتريت»، حيث تتوسط إلهة البحر المشهد، محاطة بكائنات بحرية ملونة، في لوحة لا تزال تُخطف لها الأبصار بعد ألفي عام.

تقنيات البناء لم تكن أقل إثارة للإعجاب. اعتمد البناؤون على أسلوب «الأوبوس إنسيرتوم»، أي استخدام الحجارة غير المنتظمة في ترتيب ذكي، مدعوم بالجص المصقول، ما وفّر مرونة في التشكيل وسرعة في التنفيذ، من غير تفريط بالصلابة. أما السقوف، فكانت عوالم قائمة بنفسها: قبوات برميلية تقود إلى أخرى معقودة، تتقاطع وتتناغم، وتُوزّع الوزن بتوازن هندسي يُبهر حتى المعماريين المعاصرين.

الأقبية التي احتضنت الحياة تحت الأرض لم تُصمّم لتحمّل ضغط التربة فحسب، بل صُمّمت لتقاوم الزمن. قبابها ما زالت قائمة، ودهاليزها ما زالت ترشد الزائرين، ومجاريها ما زالت تنبض بصدى حياة لم تُنس. هذه ليست براعة تقنية فقط، بل فلسفة معمارية تقوم على تحالف القوة مع الحصافة، وعلى زواج الجمال بالضرورة.

وإذا كانت العناصر الرومانية واضحة في تنسيق الأروقة وشكل الأقواس، فإنّ العقلية القرطاجية لا تخطئها العين في التوظيف العملي للمساحات، والتقشّف الذكي في استخدام الزخرفة، والتناغم العميق مع الموقع الطبيعي.

ففي النهاية، لم تكن الحجارة نُصُبًا صماء، بل كلمات ناطقة بلغة العمران: لغةً لا تُكتب بالحبر، بل تُنقش على الجدران، وتُقرأ بأصابع الزمان.

الهوية...

ورغم الحضور الطاغي للعناصر الرومانية في ملامح بلاريجيا المعمارية، من الأعمدة المرتفعة التي تحاكي شموخ المنتصر، إلى الفسيفساء التي تحاكي أذواق الأرستقراطية الإمبراطورية، فإن المدينة لم تتخلّ عن جذورها القرطاجية، بل احتضنتها في عمقها كمن يحتفظ باسم الأم خفيًّا في قلبه، حتى وهو يلبس ثوبًا جديدًا في بلاط سياسي غريب.

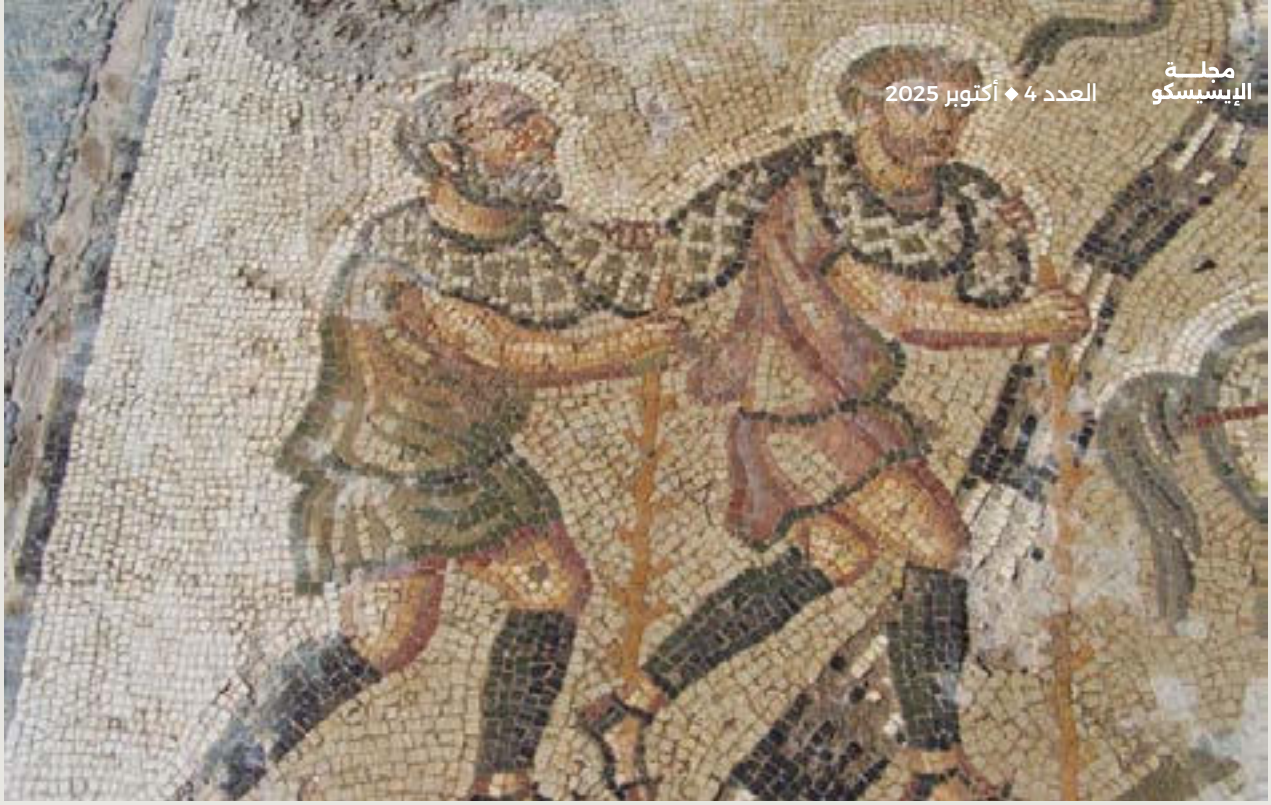

لقد ظلّت روح قرطاج تسري في التصميمات الداخلية للمنازل، في الاقتصاد الذكي للمساحات، في تفضيل الطابق السفلي كمركز للحياة، وفي الحميمية الدافئة التي تحيط بالمكان دون أن تعلن عن نفسها.

هذه الاستمرارية لم تكن رفضًا صريحًا أو عصيانًا معماريًا، بل كانت شكلاً راقيًا من التفاوض الحضاري، وصيغة هادئة للتكيّف دون الذوبان. فقد قبل المعماري في بلاريجيا الإطار الروماني، لكنه أعاد تعبئته بالمعنى القرطاجي. لم يكن التماهي مع رموز القوة الرومانية خضوعًا، بل اختيارًا مدروسًا، يُعلن الانفتاح دون التفريط، ويُمارس الانتماء دون التنكّر للأصل.

وحين تزاوجت الثقافتان في هذا الفضاء المعماري، لم يكن الناتج نسخة مطابقة للهندسة الرومانية، بل عمارة هجينة تنبض برصانة الشرق وعقلانية الغرب، وتُخفي في تفاصيلها منظومة من القيم المحلية التي لم تتبخّر، بل أعادت تشكيل نفسها لتلائم المرحلة الجديدة. هنا، لم يكن «الفتح» انقطاعًا، بل طبقة إضافية فوق طبقة أعمق، وكل قوسٍ رومانيّ كان يستند، في نهاية الأمر، إلى جدار قرطاجي الجذور.

هكذا غدت بلاريجيا، في جسدها المبني، عقدَ قرانٍ أنيقٍ بين حضارتين: روما، بما حملته من تنظيم مدني صارم، وخطوط هندسية مستقيمة، وزخارف مهيبة تسعى لإبراز السلطة والجمال؛ وقرطاج، بما مثّلته من حكمة عملية، وثقافة عريقة لا تصرخ ولكنها تهمس في المفاصل العميقة للمكان. لقد كانت الهوية هنا تُصاغ بالحجر كما يُصاغ الشعر بالحرف: بهدوء، بإصرار، وبدراية من يعرف أن العمارة يمكنها أن تُفاوض، أن تتذكّر، وأن تكتب تاريخًا لا يُملى من الأعلى، بل يُخطّ من الداخل.

من زمن بلاريجيا...

مع بزوغ الفجر، حين تبدأ الشمس بإرسال خيوطها الذهبية فوق رؤوس الأعمدة، تبدأ بلاريجيا بالاستيقاظ على إيقاع حجرٍ يتنفس. الأصوات الأولى تنبعث من باعة التين، من أبواب تُفتح على استحياء، من جرار الماء التي تُرفع من الآبار، من خطوات رشيقة لنساء خرجن مبكرات يملأن السلال، ويملأن الشوارع برائحة الخبز والزيت.

في السوق، تتعالى الأصوات: مفاوضات، ضحكات، صياح أطفال يركضون بين ظلال الأعمدة، روائح القرفة والكمّون، والأسماك المجففة التي تعلّق في زوايا الطاولات. في زاوية من الزوايا، نقش فسيفسائي جديد يُرصّع على أرضية بيت، بينما عامل يُثبّت قطعة من الرخام، بعينٍ تعرف الصنعة، ويدٍ تعرف الوتر بين الدقة والجمال.

في الطريق إلى المسرح، يجتمع الفتيان يرددون أبياتًا سمعوها في الليلة الماضية من الشاعر الطليق، وفي مكتبة المدينة، يجلس ابن تاجر، يقرأ بشغف رسالة فُلوطرخس عن الفضيلة، فيما تهمس له الكاتبة العجوز بأسماء الكتب المخفية خلف الرفوف.

وحين تنتصف الشمس كحبة عنب فوق السماء، تعود النساء إلى طوابقهن السفلى، حيث البرودة والهدوء، حيث تنضج الوجبات وتُروى الحكايات. الطابق السفلي يبدأ نهاره، وتبدأ الحياة المنزلية في دورها الآخر: نسيج، طقوس صغيرة، عناية بالأطفال، وسلام لا تزعجه حرارة الظهيرة.

لم تكن بلاريجيا مدينةً جامدة، بل حياة تُغزل من حجارة وطقوس، من زقزقة عصافير ومن نداء الباعة، من أصوات المزامير في المعبد، ومن ضحكات تنبعث من جوف بيتٍ عتيق. كانت المدينة حوارًا متصلاً بين الأرض والناس، بين النور والظل، بين الأعلى والأسفل، حيث لا شيء يُفصل، ولا شيء يُهمل.

ما يجعل بيوت بلاريجيا تقاوم الزمن، ليس فقط روعة تصميمها، بل المادة التي نُحتت منها

كان البيت أكثر من جدران، والمعبد أكثر من صرح، والسوق أكثر من بيع وشراء. كانت الحياة في بلاريجيا نسيجًا حيًا من بشر وأرواح، من آلهة وأطفال، من نساء يُصلين في الظلال، ومن رجال يكتبون للمستقبل فوق حجارة تحفظ كلّ شيء، حتى الهمسات.

مدينة تسكنها الذاكرة...

في بلاريجيا، لا ينفصل المعمار عن الإنسان، ولا تنفصل الحياة اليومية عن الفلسفة العميقة للعيش في بيئة قاسية، وثقافة متعددة الجذور. هي ليست فقط مدينة أثرية محفوظة، بل شهادة حية على قدرة الإنسان المغاربي على التكيّف، والابتكار، وبناء حياة كاملة تحت الأرض لا تقل إشراقًا عمّا فوقها.

ولعل من اللافت أن هذه المدينة تُعرف أيضًا باسم **«بلا الملكية" أو «المدينة الملكية"**، وهي تسميات لا تأتي من فراغ، بل تعكس مكانتها التاريخية والسياسية كإحدى الحواضر الكبرى التي جمعت بين الحكمة القرطاجية والرؤية الرومانية، واستحقت أن تُعدّ عاصمةً للحياة المتوازنة بين السلطة والفن، بين الإيمان والعقل.

في فسيفساء من الفضاءات والوظائف والطقوس، تُقدّم بلاريجيا درسًا معاصرًا في الاستدامة، والهوية، والعمارة العضوية. بيتها ليس مأوى، بل بيانٌ حضاريٌّ منقوش بالحجارة: **هنا عاش أناس، أحبّوا، بنوا، وحلموا... ثم تركوا لنا الحجارة لتروي الحكاية.**

وهذه الحجارة لم تعد صامتة. فهي تنطق بموسيقى الزمن، وتكشف عن عمارة لم تكن فقط استجابة للمناخ، بل تعبيرًا عن رؤيا جمالية وإنسانية معقّدة: عن بيتٍ ينفتح على السماء ويتّسع في الأرض؛ عن امرأة تخيط في الداخل صلاةً صامتة، وطفلٍ يركض في الفناء الخلفي للحضارة.

بلاريجيا ليست بقايا جدران، بل منظومة فكرية بُنيت على إدراك عميق لوحدة الإنسان والمكان. كل فسيفساء هي قصيدة، وكل مدخل نصف جوفي هو استشرافٌ ذكيّ لمفهوم العمارة المستدامة قبل أن نعرف اسمها. إنها المدينة التي سبقت عصرها، لا بمبانيها وحدها، بل بفلسفتها المتجذرة في التوازن بين الإنسان والطبيعة، بين المعتقد والتقنية، بين الانفتاح والخصوصية.

اليوم، وبينما يعيد العالم اكتشاف أهمية العيش المتناغم مع الأرض، تعود بلاريجيا لتهمس في آذان المعماريين، والمؤرخين، وعشّاق التراث:

> ابنوا كما بنينا، لا ضد الطبيعة، بل معها؛ لا خارج الهوية، بل في عُمقها.
>
> فالحجر الذي حفظ ظلّ الإنسان، ما زال يعلّمنا كيف نعيش، لا فقط كيف نتذكّر.
>
> بلاريجيا... لم تكن مدينة فقط، بل كانت وما زالت، مدينة ملكية من نورٍ ونسيجٍ وأمل.

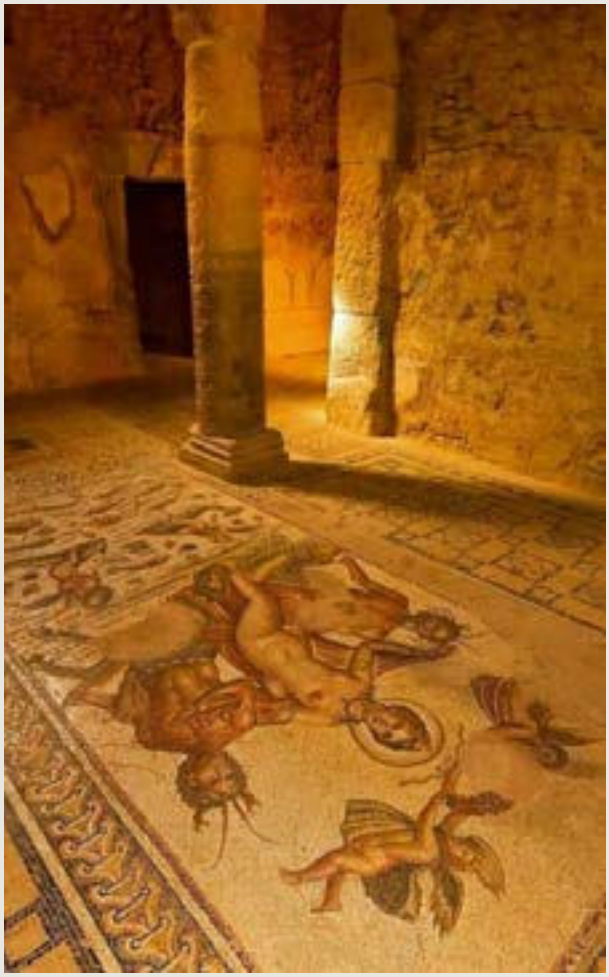

الإيسيسكو والذكاء الاصطناعي

الذكاء الاصطناعي ليس وليد اللحظة، بل هو استمرار لرحلة عقل الإنسان نحو فهم الوجود، ومحاولة لمحاكاة قدراته في التحليل والاستنتاج.

فتاريخ الذكاء الاصطناعي لا يختزل في مختبرات القرن الحادي والعشرين، بل يعود إلى أسس فكرية تراكمت عبر قرون، ساهم فيها علماء العصر الذهبي للحضارة الإسلامية مساهمات جليلة، من خلال أبحاثهم في مجالات المنطق والرياضيات والميتافيزيقا ونظرية المعرفة، التي أرسَت قواعد التفكير المنهجي والرياضي التي ترتكز عليها علوم الحوسبة والذكاء الاصطناعي اليوم.

د. قيس الهمامي

مدير مركز الاستشراف والذكاء الاصطناعي بالإيسيسكو

تونس

قد زرع أولئك العلماء بذورًا ما زلنا نقطف ثمارها حتى اليوم. فقد أسهم عالم الرياضيات الخوارزمي في وضع حجر الأساس لمفهوم **الخوارزمية** وتطوير علم الجبر، مقدمًا منهجية نظامية لحل المعادلات الخطية والتربيعية. وكان للفيلسوف والعالم الكندي إسهامات متميزة في مجال التشفير، إذ قدّم أول وصف معروف لتحليل الرموز المشفرة عبر دراسة تكرارات الحروف «تحليل التردد»، وهو ما أرسى الأسس الأولى للتعميم الإحصائي في معالجة البيانات. أما العالم بن الهيثم فكان مُقدّمًا حقيقيًا للمنهج العلمي الحديث من خلال تشديده على الملاحظة الدقيقة والتجريب كأساس لصياغة الفرضيات واختبارها. وقد صاغ الفيلسوف والطبيب ابن سينا في كتاباته مناهج تصنيفية ولغوية تقترب من مبادئ الذكاء، واقترح تجربة فكرية شهيرة «الرجل الطائر» لتحديد جوهر الوعي الذاتي مستقلًا عن الحواس المادية. كل هذه المعارف التاريخية في الجبر والخوارزميات والمنهج التجريبي والفلسفة العقلية أسهمت نظريًا في تكوين البنية المعرفية المبكّرة للذكاء الاصطناعي في زمن لاحق.[1]

هذا الإرث العريق، الذي يمزج بين العلم والعقل والأخلاق، لم يكن مجرد محطة تاريخية في مسار الحضارة الإسلامية، بل هو رؤية ممتدة، تسعى الإيسيسكو إلى بعثها من جديد في قلب النقاش العالمي حول الذكاء الاصطناعي

ومن هذا الامتداد الحضاري، ننتقل إلى واقعنا الراهن، حيث نجد أنفسنا في صميم عصر رقمي يتسم بتسارع غير مسبوق للتقدم التكنولوجي. اذ لم يعد الذكاء الاصطناعي مجرد طموح نظري أو سيناريو مستقبلي، بل أصبح قوة محركة لجلّ ان لم نقل لكل الابتكارات المعاصرة، فقد أصبح يتغلغل في بنى الاقتصاد، ويعيد رسم ملامح الحياة اليومية، من التعليم إلى الثقافة، ومن الصحة إلى الحوكمة.

اذ يتوقع أن يتجاوز حجم سوق الذكاء الاصطناعي العالمي 740 مليار دولار بحلول عام 2030، بمعدل نمو سنوي يتجاوز 2.20% كما تشير الدراسات إلى أن الذكاء الاصطناعي قد يسهم بما يزيد عن 19.9 تريليون دولار في الاقتصاد العالمي بحلول نفس السنة[3]، منها ما يفوق 1.2 تريليون دولار في الاقتصادات الناشئة، التي منها دول العالم الإسلامي.[4]

في هذا السياق، تبرز أهمية الجهود التي تبنتها منظمة الإيسيسكو. إذ يضم العالم الإسلامي أكثر من ملياري نسمة، أي ما يقارب ربع سكان العالم، ومن المتوقع أن يصل عدد المسلمين إلى نحو 2.47 مليار نسمة بحلول عام 2034، أي ما يمثل 28% من إجمالي سكان الكوكب.[5] وتشير التقديرات المستقبلية إلى أنه بحلول عام 2070، سيُشكّل العالم الإسلامي أكبر كتلة ديموغرافية على وجه الأرض.[6]

> **أسهم عالم الرياضيات الخوارزمي في وضع حجر الأساس لمفهوم الخوارزمية وتطوير علم الجبر، مقدمًا منهجية نظامية لحل المعادلات الخطية والتربيعية**

وتكمن خصوصية هذا التجمّع السكاني في تركيبته الشبابية؛ إذ تُظهر بيانات عام 2024 أن نحو 70% من المسلمين هم دون سن الأربعين، ما يعني أن الطاقات الشابة تمثل موردًا استراتيجيًا لا غنى عنه في بناء اقتصاد معرفي تنافسي.[7]

وعند استشراف ملامح المستقبل القريب، نجد أن الذكاء الاصطناعي مقبل على إحداث تحولات جذرية في سوق العمل العالمي. ففي الوقت الذي تُحذِّر فيه بعض التقديرات من احتمال فقدان نحو 92 مليون وظيفة

1 Early origins of AI in Islamic and Arab thinking traditions. «2024, December 9». Diplo. https://www.diplomacy.edu/blog/ai-in-islamic-and-arab-thinking-traditions/

2 Global AI market size 2030. «n.d.». Statista. Retrieved June 2, 2025, from https://www.statista.com/forecasts/1474143/global-ai-market-size

3 IDC: Artificial Intelligence Will Contribute $19.9 Trillion to the Global Economy through 2030 and Drive 3.5% of Global GDP in 2030. «n.d.». IDC: The Premier Global Market Intelligence Company. Retrieved June 2, 2025, from https://my.idc.com/getdoc.jsp?containerId=prUS52600524

4 PricewaterhouseCoopers. «n.d.». The potential impact of AI in the Middle East. PwC. Retrieved June 2, 2025, from https://www.pwc.com/m1/en/publications/potential-impact-artificial-intelligence-middle-east.html

5 Pew Research Center. «2011, January 27». The future of the global Muslim population: Projections for 2010-2030. Pew Research Center. https://www.pewresearch.org/religion/2011/01/27/the-future-of-the-global-muslim-population/

6 Wormald, B. «2015, April 2». The Future of World Religions: Population Growth Projections, 2010-2050. Pew Research Center. https://www.pewresearch.org/religion/2015/04/02/religious-projections-2010-2050/

7 Wormald, B. «2015, April 2». The Future of World Religions: Population Growth Projections, 2010-2050. Pew Research Center. https://www.pewresearch.org/religion/2015/04/02/religious-projections-2010-2050/

نتيجة الأتمتة بحلول عام 2030، فإن التوقعات تشير أيضًا إلى إمكانية خلق أكثر من 170 مليون فرصة عمل جديدة في مجالات ناشئة، تشمل علوم البيانات، وأخلاقيات الذكاء الاصطناعي، والأمن السيبراني، وصيانة الأنظمة الذكية، وتصميم واجهات التفاعل بين الإنسان والآلة.[8]

إن هذه الاتجاهات المعقّدة والعالمية هي التي دفعت الإيسيسكو لتتبوأ مكانة استباقية محوريّة ترمي الى تعبئة طاقاتها الفكرية وقدّراتها المؤسسية من أجل بلورة رؤية للذكاء الاصطناعي تستشرف المستقبل، دون أن تغفل الأسس الأخلاقية التي يجب أن تُصاحبها. فالمنظمة تضع استراتيجية شاملة تمزج بين الاعتبارات الأخلاقية والتنموية وتتميز بالمسؤولية الجماعية والشراكات المتعددة، ليس فقط في دعم الدول الأعضاء لمواكبة هذه التحولات، بل أيضًا في تمكينها من أن تكون فاعلًا رئيسيًا في صياغة هذا المستقبل الرقمي، على نحو يوازن بين التقدم التكنولوجي والمرجعية القيمية.

إن الإيسيسكو لم تتعامل مع الذكاء الاصطناعي بوصفه اتجاهًا تقنيًا مؤقتًا، بل تبنّته خيارًا استراتيجي بالغ الأهمية. ومنذ إستحداث مركزها للاستشراف والذكاء الاصطناعي، عملت المنظمة على ترسيخ موقعها في قلب مشهد القيادة.

كما أن استراتيجية الإيسيسكو للذكاء الاصطناعي ليست مقتصرة على البُعد الرقمي أو التكنولوجي، بل تتعداه لتشمل الجوانب المؤسسية، والحوكمة، والإنتاج المعرفي. وتقوم هذه الاستراتيجية على خمس ركائز مترابطة: تمثل ركيزة **«استشراف المستقبل»** منها حجر الزاوية في توجه المنظمة نحو الذكاء الاصطناعي والتقنيات الناشئة. وتهدف هذه الركيزة إلى تمكين الدول الأعضاء من عدم الاكتفاء بالتكيف مع المتغيرات، بل من المشاركة الفاعلة في صياغة ملامح المستقبل.

أما ثاني الركائز فهي **(التمكين المؤسسي)** عبر دعم الدول الاعضاء في إعداد استراتيجيات وطنية للذكاء الاصطناعي، تراعي الخصوصيات المحلية وتستلهم أفضل الممارسات العالمية. تليها ركيزة **(التعليم وبناء القدرات)** من خلال تطوير برامج تدريبية رائدة، باللغات الرسمية للإيسيسكو (العربية والإنجليزية والفرنسية)، تتيح للشباب والباحثين والمهنيين اكتساب المهارات اللازمة للتفاعل مع الذكاء الاصطناعي بفعالية وأخلاقية. بعدها تضاف الركيزة الرابعة التي هي **(البحث العلمي والابتكار)** عبر دعم مشاريع بحثية ومبادرات مبتكرة تعزز من الإنتاج المعرفي في مجالات الذكاء الاصطناعي ذات الصلة باحتياجات المجتمعات الإسلامية. وأخيرا ركيزة **(الحوكمة الأخلاقية والقيمية)** وذلك بتقديم أدلة ومبادئ توجيهية لضمان تطوير واستخدام الذكاء الاصطناعي في إطار من الشفافية والمسؤولية، واحترام حقوق الإنسان والخصوصية والعدالة.

8 World Economic Forum. «2025, January». The future of jobs report 2025. World Economic Forum. https://www.weforum.org/press/2025/01/future-of-jobs-report-2025-78-million-new-job-opportunities-by-2030-but-urgent-upskilling-needed-to-prepare-workforces/

وقد حدّدت الإيسيسكو بوضوح رسالتها في هذا المجال والتي تتجسد في تعميم ثقافة الاستشراف، وتعزيز الذكاء الاستراتيجي، وتدعيم السيادة الرقمية للدول الأعضاء. وتعمل المنظمة في هذا الإطار كحاضنةً فكريةً ومحفزا عمليا، من خلال أدوات متنوعة تشمل بناء القدرات، وإشراك الشباب، وتنظيم المؤتمرات الاستشرافية، واعتماد مناهج التخطيط المستند إلى السيناريوهات المستقبلية.

في إطار رؤيتها الاستشرافية الطموحة لتعزيز الذكاء الاصطناعي الأخلاقي والمسؤول في العالم الإسلامي، اضطلعت الإيسيسكو، من خلال مركز الاستشراف والذكاء الاصطناعي بدور ريادي وشامل، في تحويل الذكاء الاصطناعي من تقنية فحسب إلى أداة استراتيجية للنهوض بالمجتمعات الإسلامية، وتعزيز جاهزيتها لمتغيرات المستقبل. فقد اعتمدت المنظمة مقاربة شاملة تدمج بين التمكين البشري، والابتكار التقني، والحوكمة الأخلاقية، مساهمة بذلك في ترسيخ الذكاء الاصطناعي رافعة للتنمية المستدامة وبناء اقتصاد معرفي راسخ.

تاريخ الذكاء الاصطناعي لا يختزل في مختبرات القرن الحادي والعشرين، بل يعود إلى أسس فكرية تراكمت عبر قرون، ساهم فيها علماء العصر الذهبي للحضارة الإسلامية، من خلال أبحاثهم في مجالات المنطق والرياضيات والميتافيزيقا ونظرية المعرفة

ومنذ عام 2020، أطلقت الإيسيسكو أكثر من أربعين مبادرة استراتيجية نوعية، توزعت على مختلف المناطق الجغرافية والقطاعات، ممتدةً من الرباط إلى مسقط، مرورًا بالرياض. ففي عالم يُنظر فيه إلى الذكاء الاصطناعي عاملا قد يعمّق الفجوات أو يعزز التضامن، تبنّت المنظمة رؤية متوازنة تجمع بين الاستباقية والحماية في آنٍ واحد، إدراكًا منها أن الذكاء الاصطناعي ليس أداة تقنية فقط، بل قوة دافعة قادرة على إعادة تشكيل المجتمعات وصياغة ملامح المستقبل.

وقد تجسدت هذه الرؤية من خلال تنظيم عدد من المبادرات والمنتديات الفكرية التي ساهمت في صياغة

صاغ الفيلسوف والطبيب ابن سينا في كتاباته مناهج تصنيفية ولغوية تقترب من مبادئ الذكاء، واقترح تجربة فكرية شهيرة «الرجل الطائر» لتحديد جوهر الوعي الذاتي مستقلًّا عن الحواس المادية

التوجهات الكبرى للذكاء الاصطناعي في العالم الإسلامي، إضافة إلى بناء قدرات وطنية، سيما لدى النساء والشباب، عبر برامج تدريبية رائدة، وهاكاثونات، ومبادرات ميدانية متميزة، من أبرزها كرسي الإيسيسكو «المرأة في العلوم: الذكاء الاصطناعي والمستقبل».

وفي موازاة العمل الميداني، انخرطت المنظمة بفاعلية في بلورة الأطر الأخلاقية والتنظيمية لحوكمة الذكاء الاصطناعي، مكرّسة بذلك ريادتها في ترسيخ مبادئ الاستخدام المسؤول. كما عزز حضورها في الساحة الدولية

ميثاق الرياض للذكاء الاصطناعي في العالم الإسلامي - الإيسيسكو يمثل إطارًا مرجعيًّا رائدًا يُجسّد طموحًا جماعيًا في توجيه الذكاء الاصطناعي بالحكمة، والكرامة، والعدالة

من خلال مشاركته في محافل عالمية مرموقة، وتوقيع شراكات استراتيجية مع منظمات كبرى مثل اليونسكو، ومنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية، والمنتدى الاقتصادي العالمي.

وقد تُوِّج هذا المسار الطموح بعدة إنتاجات معرفية مرجعية، من أبرز ثماره «مؤشر الذكاء الاصطناعي للعالم الإسلامي»، وسلسلة تقارير استشرافية تناولت مستقبل التعليم والذكاء الاصطناعي التوليدي، مما عزز مكانتها مصدرا موثوقا للرؤى والتحليلات في هذا المجال الحيوي.

وبفضل هذا التراكم الاستراتيجي، رسخت الإيسيسكو موقعها كبيت خبرة ومرجعية إقليمية ودولية، تواكب تحولات الذكاء الاصطناعي وتوجه مساراته نحو خدمة التنمية، في إطار أخلاقي وإنساني ينسجم مع خصوصيات العالم الإسلامي وتطلعاته المستقبلية

وقد تجلّت هذه الرؤية بأبهى صورها في "**ميثاق الرياض للذكاء الاصطناعي في العالم الإسلامي -الإيسيسكو**"، الذي يمثل إطارًا مرجعيًّا رائدًا يُجسّد طموحًا جماعيًا في توجيه الذكاء الاصطناعي بالحكمة، والكرامة، والعدالة. ويُعد هذا الميثاق حجر الأساس في الاستراتيجية الشاملة التي تنتهجها الإيسيسكو، مسترشدةً برؤيتها وتوجهاتها الاستراتيجية، بغية تمكين الدول الأعضاء، وصون القيم الأصيلة، وضمان مستقبل رقمي إنساني وآمن.

لم يكن الميثاق نتاجَ عمل فردي أو مبادرة أحادية، بل هو ثمرة مسار تشاوري وتعاوني واسع النطاق، امتدّ على مدار عامين كاملين، وتميّز بالدقة العلمية، والانفتاح متعدد التخصصات، والرؤية الأخلاقية المتجذّرة في المنظومة القيمية للعالم الإسلامي. لقد عكس هذا المسار التزام

تشير التقديرات المستقبلية إلى أنه بحلول عام 2070، سيُشكّل العالم الإسلامي أكبر كتلة ديموغرافية على وجه الأرض 70% منها هم دون سن الأربعين

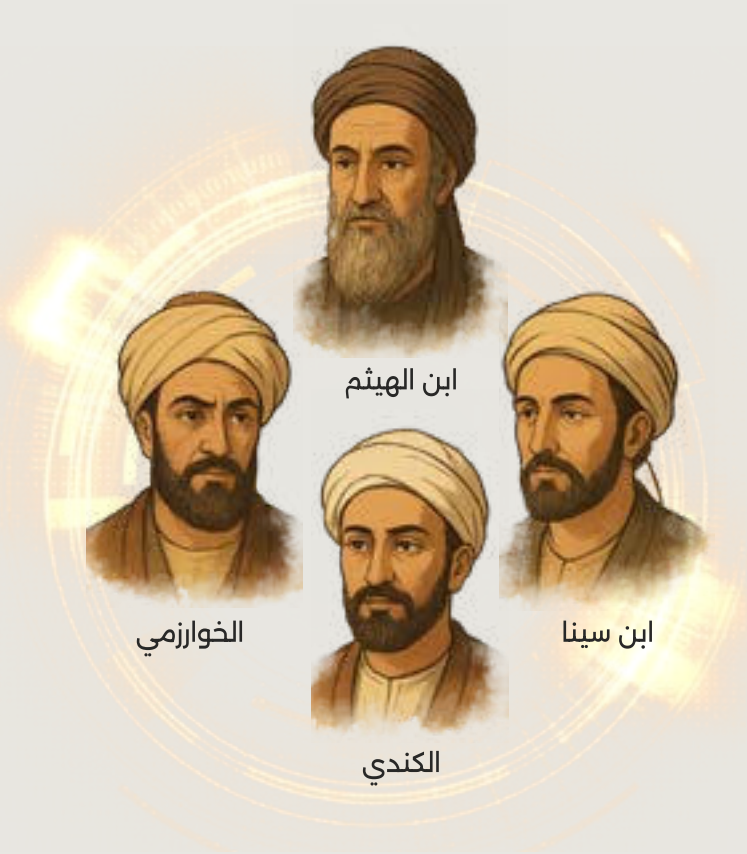

وكان للفيلسوف والعالم الكندي إسهامات متميزة في مجال التشفير، إذ قدّم أول وصف معروف لتحليل الرموز المشفرة عبر دراسة تكرارات الحروف «تحليل التردد»

الإيسيسكو العميق بمبادئ المشاركة، والاستشراف، والشمولية، باعتبارها دعامات أساسية للابتكار المسؤول والمستدام.

وقد شارك في صياغة هذا الميثاق ثلة من الخبراء في الذكاء الاصطناعي وعلوم البيانات والتقنيات الناشئة، إلى جانب علماء في الفلسفة والفقه والأخلاق، وممثلين عن هيئات حكومية، ومؤسسات أكاديمية، ومنظمات مجتمع مدني، ومندوبين من مختلف الدول الأعضاء. هذا التنوّع لم يكن فقط عامل إثراء، بل كان ضمانًا لعدالة التمثيل وواقعية التوصيات.

ولم يُصَغ الميثاق ليكون وصفة جاهزة أو إطارًا تقنيًّا جامدًا، بل جاء في شكل بوصلة أخلاقية جماعية، ترشد الدول الأعضاء إلى سُبل تطوير نموذج أصيل ومتكامل للذكاء الاصطناعي، ينبثق من خصوصياتها الثقافية والاجتماعية، ويتفاعل بانفتاح مع القيم الإنسانية الكونية والتوجهات التكنولوجية العالمية.

وقد جاء ميثاق الرياض متماسكًا في بنائه، شاملًا في محاوره، متدرجًا من الأساس الأخلاقي إلى آليات التنفيذ العملي، ويتكون من أربع وحدات رئيسة:

1. الديباجة

2. المبادئ الأخلاقية

3. التوصيات

4. خارطة الطريق الاستراتيجية للتنفيذ

إنّ استعراض المسار التاريخيّ الذي سلكته الإيسيسكو في مجال الذكاء الاصطناعي ليس مجرّد رصدٍ لمحطاتٍ تقنيةٍ أو مبادراتٍ مؤسسية، بل هو تأكيدٌ على رؤية حضارية متكاملة، تسعى إلى ترسيخ مكانة الذكاء الاصطناعي رافعة للعدالة، والتنمية، والكرامة الإنسانية، في إطارٍ يستلهم خصوصيات العالم الإسلامي، ويتفاعل في الوقت ذاته مع القيم الإنسانية.

لقد أثبتت الإيسيسكو، من خلال استراتيجيتها الطموحة ومشروعاتها المتعددة الأطراف، أنّ الذكاء الاصطناعي لا يجب أن يُترك رهين النماذج المستوردة أو المصالح الأحادية، بل ينبغي أن يُعاد تعريفه وتوجيهه ليُصبح أداةً للتمكين المجتمعي، والنهضة العلمية، والارتقاء بالقيم.

ومع انتقال "ميثاق الرياض للذكاء الاصطناعي في العالم الإسلامي - الإيسيسكو" إلى مرحلة التنفيذ، تدخل المنظمة ومعها دولها الأعضاء حقبةً جديدةً من العمل الجماعي، حيث لا تقتصر الغاية على مواكبة التحولات العالمية، بل تتعداها إلى المشاركة في صياغة معالمها، بإسهام معرفي وأخلاقي يعكس عبقرية الحضارة الإسلامية وعمقها الإنساني.

إنّ التحدي اليوم لا يكمن في سرعة التكنولوجيا فحسب، بل في قدرتنا الجماعية على توجيه هذه السرعة نحو مستقبلٍ أكثر عدالة وشمولًا واستدامة. وفي هذا السياق، تبقى الإيسيسكو ملتزمة بلعب دور الريادة، فكرًا وممارسة، في بناء منظومة ذكاء اصطناعي تُحاكي حاجات أوطاننا، وتعبّر عن آمال شعوبنا، وتُرسّخ القيم التي نؤمن بها: الحكمة، الكرامة، التضامن، والعدل.

وتأسيسا على ما سبق فهذه النبذة عن الذكاء الاصطناعي في الايسيسكو لن تتوقف عند هذا الحد بل ستبدأ منها فصول جديدة تُكتب بجهود جماعية ورؤى استشرافية، تُجسّد وعد الذكاء الاصطناعي حين يُوجَّه بعقلانيةٍ أخلاقية، وينبثق من سياقٍ ثقافيٍّ يُثمّن الإنسان ويصون كرامته.

تاريخ

بغداد في عيون الرحالة

د. سعد الحسني

رئيس قسم اللغة الإنجليزية
كلية الآداب
جامعة الإسراء

العراق

لم تكن بغداد مجرد مدينة عريقة امتد تاريخها إلى آلاف السنين، بل ولأن سكان وادي الرافدين كانوا أول من بنى حضارة بشرية اتسمت بتغيير العالم ودفعه نحو منعطف أكثر من قوة ما فعلته الثورة الصناعية في العالم. ليس فقط أن العجلة المدورة المدولبة قد اخترعت أول مرة في وادي الرفدين، وليس فقط أن الكتابة المسمارية قد وجدت لأول مرة على الرُقم الطينية الأولى لهذه الحضارة، بل إن تشريع حمورابي يعتبر أول تشريع نظم سياقات الحياة اليومية والاجتماعية والقانونية والأخلاقية في العالم أجمع. ومن هذا المنطلق ركز الكثير من الأثاريين والرحالة الأجانب في جانب كبير من دراساتهم على حضارة وادي الرافدين، فمنهم من تجشم عناء زيارة العراق في أوقات مختلفة ومنهم من عاش ومات ودفن حباً في العراق، مثل المس بيل الضابطة السياسية البريطانية التي جاءت مع قوات الأحتلال وساهمت في خلق أول دولة حضارية حديثة مستندة إلى شغف لا حدود له بالبلد.

كما ساهمت الكاتبة البريطانية فريا ستارك وهي من أشهر من كتب في أدب الرحلات، سيما وأنها انتقلت من مكان إلى آخر في الجزيرة العربية والعراق وبلاد فارس، في إعطاء صورة جلية واقعية عن الحياة اليومية وسلوكيات الناس في فترة الثلاثينات من القرن الماضي في بغداد. وقد اعتبرها النقاد وكتاب السيرة من أكثر النساء المغامرات جرأة. ووثقت ستارك رحلاتها وعملها بشكل خاص في العراق في عدة كتب ألفتها بدءًا على شكل ملاحظات ومشاهدات يومية، ثم أن عملها كضابط مخابرات بريطاني أتاح لها حرية التنقل من وإلى أماكن كثيرة وكذلك الالتقاء بعدد كبير من الناس والشخصيات. تندرج ملاحظاتها ضمن أدب الرحلات الذي أتاح لها توثيق بعض الأحداث وملء الفراغ التاريخي الذي تتركه الكتب التاريخية عادةً، ولكن بمخيلة ديموغرافية لها علاقة بالسكان وطباعهم وعاداتهم.

> **اعتبرت المس بيل «خاتون بغداد» وهي أعلى صفة تقدم احتراما إلى سيدة أجنبية**

ولم تصور فريا ستارك ومثلها المس بيل أو تصف انطباعياً من تلتقي بهم، بل كانت تقدم تحليلاً أخاذاً من شأنه أن يلقي الضوء على كثير من القضايا السياسية والتاريخية، من دون أن تغفل عن كتابة ذلك بشكل أدبي راقٍ لا يرتكز على مجرد السرد الممل والتحقيق الذي يخلو من الشفافية. وفعلت المس بيل بشكل مماثل من خلال رسائلها وعلاقاتها الشخصية، ما جعلها

فريا ستارك

المس بيل

تعتبر «خاتون بغداد» وهي أعلى صفة تقدم احتراما إلى سيدة أجنبية، أحبها العراقيون رغم أنها تعتبر عضوا في قوة الاحتلال. أما بالنسبة إلى فريا ستارك فلعل أفضل من كتب سيرة حياتها هي جين فليتشر جينيس في كتابها الموسوم « البدوية العاطفية: حياة فريا ستارك – Th- Passionate Nomad: The Life of Fraya Stark»، الذي صدر عن دار راندوم، وفيه تتحدث الكاتبة عن مشاعر القلق والهواجس واحتقار الذات التي تعتبرها جميعاً عناصر مكونة لشخصيتها، والتي دفعت بها إلى ترك بلدها والتجوال في قفار يخشى ارتيادها الرجال حتى استقرت وعشقت بغداد وتحدثت عنها في كتابها الذي الفته وترجمه د. سعد الحسني بثلاث طبعات نظراً لأهميته التوثيقية الواقعية.

كما أصدرت فريا ستارك مجموعة كبيرة من الكتب التي أعتبرها النقاد فاصلةً أدبيةً مهمة في القرن العشرين، جسرت من خلالها كثيراً من الفجوات التاريخية والجغرافية والسكانية لكثير من المناطق العراقية. ويشكل كتابها «صور بغدادية – Baghdad Sketches» وثيقةً مهمةً تقوم فيها ستارك بمسح جغرافي وديموغرافي شامل لكافة ألوية «محافظات» العراق في الثلاثينات، كما تنصب أهمية الكتاب على إعطاء مؤشرات قوية حول تفاعل هذه المرأة الاستخبارية الاستثنائية مع كثير من البيئات المختلفة التي قامت بزيارتها. وقامت ستارك أيضاً بعمل ذي أهمية كبيرة في توثيق مشاهداتها بصورة فوتوغرافية أو تخطيطية لكثير من المواقع وهو نشاط قامت به في أغلب مؤلفاتها مثل «شتاء في الجزيرة العربية – Winter in Arabia» حيث ضمنته 87 صورة فوتوغرافية التقطتها إضافة إلى ثلاث خرائط كبيرة.

وينطبق نفس الشيء على كتابها الأخير الموسوم « البوابات الجنوبية للجزيرة العربية – The Southern Gates of Arabia» الذي شرعت بتأليفه عام 1934 حيث مضت في رحلتها إلى البحر الأحمر باتجاه عدن واستقرت في رأس شبه الجزيرة العربية، ومن ذلك الموقع شرعت ستارك بمشروع أعتبر من أهم المغامرات بالنسبة لها، فبعد أن سارت في طريق البخور لوادي حضرموت وهو أشهر موقع يتميز بخصوبة تربته في الجزيرة العربية، إلا وخطر في بالها أن تصبح أول امرأة غربية استطاعت تحديد موقع المدينة المفقودة المسماة «شبوة» وتوثيقها.

وبتسجيل رحلتها هذه عبر المدن والمواقع التي مرت بها في حضرموت فأنها قدمت تسجيلاً حياً ورواية مؤثرة عن الشيوخ والسلاطين، وعن المأساة والانتصار. وبرغم الادعاء أن اكتشاف «شبوة» لا يعود إلى فريا ستارك إلا أن كتابها عن ذلك يعد من كلاسيكيات أدب الرحلات الفذة إضافة إلى وصفها وتحليلها المعمق في أعماق الناس الذين التقت بهم خصوصاً في بغداد.

> **العراق بلد لا يجيد التحدث عن نفسه كثيراً بقدر ما يجيد التحدث عنه كل من زاره، أو درس تراثه**

عوداً على ذي بدء نقول إن كتاب «صور بغدادية» يطرح تسجيلاً مسحياً للعراق في فترة الثلاثينات تقدم فيه الكاتبة منهجاً سايكولوجياً لكل فرد، وكل بيئة وكيفية تأثيرها وتأثرها بعوامل الطبيعة، مع تأكيد خاص على سلوكيات بعض الأشخاص الذين قابلوا الكاتبة أثناء تجوالها.

ومن خلال مقابلة تلفزيونية في برنامج شهير على قناة الشرقية «أطراف الحديث»، التقى مقدم البرنامج بي لأتحدث عن كتابين عن العراق أحدهما بعنوان « الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق» لمؤلفه حنا بطاطو وقد طبع الكتاب طبعتين الأولى في لندن والثانية في بيروت، أما الكتاب الثاني فهو «صور بغدادية» لفريا ستارك، وكان جل الحوار يدور حول اعتبار ما كتبه هؤلاء الرحالة عملاً تجسسياً ضمن مجال اهتمامهم كضباط سياسيين، جاؤوا مع قوات الاحتلال لبلدانهم، أم هو عمل وثائقي بحت يعد ضمن المشاهدات التي أثارت اهتمام هؤلاء الناس.

والعراق الذي تحظى الكثير من مواقعه الأثرية بالتسجيل ضمن قائمة التراث العالمي، هو بلد لا يجيد التحدث عن نفسه كثيراً بقدر ما يجيد التحدث عنه كل من زاره، أو درس تراثه فقد نجد كاتبة تونسية مرموقة هي حياة الرايس تتحدث بأسهاب وبشغف لا نظير له عن تجربة دراستها في بغداد، وكيف تتلمذت على يد أعرق الأساتذة في علم الاجتماع، فاعتنت الكاتبة بإصدار رواية هي أشبه ما تكون سيرة ذاتية لها واصفة بغداد بأنها عاصمة الثقافة والسلام.

متاحف

مُتحف شانغريلا بهاواي:
نافذةٌ على عظمة الفنّ الإسلاميّ

د. محمد أحمد عنب

أستاذ الآثار والحضارة الإسلامية- كلية الآثار- جامعة الفيوم

مصر

يشكل الفن الإسلامي جزءا مهما من التراث الثقافي العالمي، ليس فقط لجمالياته الفريدة، بل أيضا لعمقه الفكري والثقافي، وتنوعه الجغرافي الذي يمتد من الأندلس غربا إلى آسيا الوسطى شرقا. وقد كان هذا التراث محط اهتمام الغرب وإعجابهُم، فأقبل المستشرقون على استكشافه، ومن بين هؤلاء كانت السيدة دوريس ديوك، عاشقة الشرق وفنونه، التي تعد من أبرز الشخصيات التي أسهمت في نقل الفنون الإسلامية إلى الغرب؛ إذ سخرت حياتها وجزءا كبيرا من ثروتها لدعم هذا التراث من خلال اقتنائها لكثير من التحف الفنية التي جمعتها من رحلاتها لمناطق مختلفة من العالم الإسلامي، ووضعتها في قصرها بمدينة هونولولو، عاصمة ولاية هاواي الأمريكية، الذي حول إلى متحف يعرف بمتحف شانغريلا للفن الإسلامي، وأصبح من أهم المعالم الثقافية التي تجسد فن العمارة الإسلامية، ومركزا عالميا للتعريف بروعة الفن الإسلامي وتقديمه للغرب بأسلوب يظهر جمالياته وثراءه الحضاري.

تاريخ المتحف وقصة نشأته: ينسب هذا المتحف إلى السيدة دوريس ديوك«1912 - 1993م» Do-Duke ris التي كانت تُعرف بأنها «أغنى طفلة في العالم» أو «طفلة الملايين»؛ فقد ورثت مئات الملايين من الدولارات من والدها التاجر الشهير جيمس بوتشنان ديوك[1] «1856 - 1925م» James Buchanan Duke، وهو مؤسس كبرى شركات التبغ الأمريكية الذي تُوفي سنة 1925م، وكانت ابنته دوريس في عمر 13 عاما، وكانت محبة للخير، وقضت حياتها في النشاطات الخيرية، وكانت مشغوفة بالفنون والثقافة.

ترجع قصة بناء هذا القصر الذي تحوّل إلى مُتحف لعام 1935م عندما قامت دوريس وزوجها الأول جيمس كرومويل «1896 - 1990م» James H. R. Cromwell برحلة شهر العسل التي زارا فيها أنحاء مختلفة من

1 David W. Duke, The Duke legacy, iUniverse LLC, Bloomington, 2014

العالم[2]، واشتملت الجولة على زيارة مدن الشرق المختلفة، وأعجبت دوريس بما شاهدته من الطرز العمارية الفنية الإسلامية، خاصة في إيران والهند وسوريا وتركيا ومصر وغيرها من بُلدان المنطقة، وبدأت باقتناء التُحف الفنية الإسلامية من هذه البلدان، واصطحبتها معها.

وانتهت رحلتها بزيارة ولاية هاواي الأمريكية Hawaii سنة 1935م التي أُعجبت بها وبمناخها الرائع على مدار العام، وبطبيعتها الساحرة، ووصفتها بأنها واحدةٌ من أجمل الأماكن في العالم، ولذلك قرّرت شراء قطعة أرض بعاصمتها مدينة هونولولو الساحلية Honolulu سنة 1936م لبناء قصرها بموقعه الرائع المطل على شاطئ وايكيكي، الذي مَكثت فيه أثناء إقامتها في هاواي، وقرّرت أن يكون تصميم القصر على غرار ما شاهدته من طرز العِمارة الإسلامية المُتنوّعة في البُلدان والمناطق التي زارتها، ووضعت فيه المقتنياتِ الفنيةَ التي جلبتها معها[3].

تصميم القصر وجماليات العمارة الإسلامية يمتاز تصميم القصر بجماله العماريّ المُستوحى من طرز العمارة الإسلامية المختلفة، وقد بدأ بناء القصر في سنة 1937م، بتكلفة بلغت مليون دولار، وبلغت مساحته 4.9 أفدنة، وأُسند أمر إنشائه إلى شركة «ويث وكنج» للأعمال العمارية والإنشائية، وكان المعمار «ماريون سيمزويث» والمعمار المشرف «هـ. دريوري بيكر» هما من قاما بتصميم هذا القصر، وقد اشتركت معهما السيدة دوريس في وضع الشكل العام للقصر، والملامح العمارية المُميزة التي تتماشى ورؤيتَها وولعَها الشديد بفنون العالم الإسلاميّ وطرزه العمارية، وأمدَّتهما بالصور الفوتغرافية التي

دوريس

جيمس كروميل

التقطتها للعمائر الإسلامية في مدن الشرق التي زارتها؛ ليُشيّدا القصر على نسقها، واستعانت دوريس بحِرْفيّيْنَ وعُمّالٍ مَحليّين من هذه المدن من الهند وإيران وسوريا والمغرب لتنفيذ العناصر العمارية والزُخرفية المختلفة للقصر، حتى تُنفّذ بأسلوبٍ دقيق على وفق الطُرز الأصلية لهذه المدن، وأوضحت دوريس ذلك في مقال نشرته سنة 1947م بعنوان "My Honolulu Home"، "La Shangri أنّ قصرها ليس نتاج شخص واحد، بل عدد من المعماريين والحِرْفيّين من جميع أنحاء العالم، وهذا أعطى للقصر طابعه المُميّز، فجاء مزيجًا من الطرز العمارية المختلفة.

واكتمل بناء القصر سنة 1938م، ليُصبح واحدًا من المعالم المُميّزة بعناصره العمارية والزخرفية المُقتبسة من الطُرز الإسلامية المختلفة، وأطلقت دوريس على قصرها اسم « شانغريلا» وجاء سبب التسمية بهذا الاسم نسبة لأسطورة هندوسية قديمة مأخوذة من «كتاب الفردوس المفقود»، والاسم يعني بحسب الكتاب: «جنة بعيدة وسرية لا يكبر المرء فيها أبدًا»، وأصبح القصر تحفةً عمارية وفنية متفردة، ليس في هاواي فحسب، بل في الولايات المتحدة الأمريكية قاطبة.

2 فرانشيسكا كارتييه بريكل، عائلة كارتييه.. القصة غير المروية لإمبراطورية المجوهرات، ترجمة طارق راشد، دائرة الثقافة والسياحة، أبوظبي، مركز أبوظبي للغة العربية، 2022م.

3 Linda Komaroff, Doris Duke's Shangri-La, A House in Paradise: Architecture, Landscape, and Islamic Art, Doris Duke Foundation for Islamic Art, 2012.

تحويل القصر إلى مُتحف: اتخذت دوريس من القصر مقرًّا شتويًّا لها، وقد خصّصت جزءًا كبيرًا من ثروتها الضخمة في جمع وشراء التُحف والمُقتنيات الإسلامية النادرة من شتى أنحاء العالم لوضعها في قصرها، وفي سنة 1965م كتبت دوريس وصيتها وأضافت بندًا فيها يدعو إلى إنشاء مؤسسة دوريس ديوك للفنون الإسلامية، ومن هنا جاءت فكرة تحويل القصر إلى مُتحفٍ عامٍّ يهدف إلى دراسة وفهم العمارة والفنون الإسلامية، وبعد وفاة دوريس سنة 1993م، أصبحت مجموعة الفنون الإسلامية والجنوب شرق آسيوية تحت مسؤولية أمناء مؤسسة دوريس ديوك الخيرية، وبعد دراسة متأنية، قرر الأمناء أنّ دوريس ديوك كانت ترغب في مشاركة هذه القطع مع الجمهور، ووافقوا على خطة للتبرُّع بمجموعتها النادرة للمتاحف المُتخصصة، فحصل مُتحف الفن الآسيوي في سان فرانسيسكو ومُتحف والترز للفنون في بالتيمور على عدد كبيرٍ من هذه القطع[4].

> **يُنسب مُتحف الفن الإسلامي بهاواي إلى السيدة دوريس ديوك«1912 - 1993م» Doris Duke التي كانت تُعرف بأنها «أغنى طفلة في العالم»**

وبعد عقد من وفاتها، حُوِّل القصر إلى مُتحفٍ وافتُتِح سنة 2002م[5]، هذا المُتحف الذي يُتيح لزواره فرصة استكشاف جَماليات العِمارة والفنون الإسلامية في تصميمه الرائع،

> **يُشَكِّلُ الفنُّ الإسلامي جزءًا مُهِمًّا من التُّراث الثقافيّ العالميّ، ليس فقط لجمالياته الفريدة، بل أيضًا لعُمقه الفكريّ والثقافيّ**

وعناصره المعمارية والزُّخرفية المُميّزة، وبما يضمه من مجموعاتٍ قيمة ونادرة من القطع والتحف الفنية التي يصل عددها إلى حوالي 4500 قطعة من مناطق غنية بالفن الإسلاميّ، كالأندلس والمغرب ومصر وسوريا وإيران وآسيا الوسطى والهند وأجزاء من جنوب شرق آسيا جمعتها دوريس خلال60عامًا بدءًا من عام 1935م عندما كانت في الثانية والعشرين من عمرها، ليُصبح أكبر مُتحف للفنون الإسلامية في الولايات المتحدة الأمريكية.

جماليات العمارة والفنون الإسلامية في المُتحف: يزخر المُتحف بكثير من المؤثّرات والمَلامح المعمارية الإسلامية المُميَّزة التي تتنوّع بين العناصر والوحدات المعمارية، والعناصر الزُّخرفية الإسلامية، ويتميّز تصميم المسجد بالجمع بين العناصر الجمالية الإسلامية وعناصر العمارة المعاصرة في الوقت الحاضر، وكانت كثير من مُشتريات دوريس الأولى من القطع الفنية ذات طابعٍ وظيفيّ كالبَلاطات الخزفية وقطع السجاد المختلفة، والمشغولات الخشبية الأثرية المُتنوّعة التي استخدمتها في تزيين جُدران قصرها وأسقفه، وتنوعّت الزخارف الإسلامية داخل القصر، فتستقبلك كتابة بالخط العربيّ تعلو مدخل المتحف مضمونها جزء من الآية القرآنية«46» من سورة الحجر: «ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ»، وصُمِّمَ المتحف وفقًا لنمط العمارة الإسلامية التقليدية، مستلهِمًا تخطيط البيوت العربية الإسلامية، فقد أُنشئ حول فناء مركزيٍّ واسع تتوزّع حوله الأجنحة والوحدات المختلفة للقصر، وقد رُوعيَ في هذا التخطيط مبدأ الخصوصية، الذي يُعدّ من المبادئ الأساسية في العمارة الإسلامية، من خلال الفصل الواضح بين أماكن الإقامة كحجرات النوم الخاصة، وأماكن الاستقبال العامة مثل البهو الرئيسيّ والمرافق الأخرى، ويُظهر هذا التصميم اهتمامًا بالغًا بالوظيفة العمارية والحفاظ على التقاليد الاجتماعية التي تُعزِّز الخصوصية والراحة، واستُخدمت عناصر العمارة الإسلامية ومفرداتها المختلفة في أجزاء القصر المختلفة كأشكال الأعمدة والعقود الإسلامية، والعناصر الزخرفية الإسلامية كأشكال المُقرنصات والأطباق النَجمية وغيرها.

4 Nancy Tingley, Tingley: Doris Duke, South-eastern Art Collection Hardcover – July 31, 2003

5 الموقع الرسمي للمتحف https://www.shangrilahawaii.org/

ويتميّز القصر بحدائقه الرائعة التي استوحتها دوريس من الحدائق المغولية التي شاهدتها خلال رحلتها إلى جنوب آسيا، في الهند وباكستان وكشمير، وعند عودتها، قرّرت إنشاء حديقة خاصة في قصرها مستوحاة من تلك الحدائق، وذكرت دوريس في مذكراتها تأثُّرها العميق بحديقة «شاليمار» في لاهور بباكستان، وأشارت إلى أنّها كانت مصدر إلهام رئيسٍ لتصميم حديقتها، فجاءت حديقة القصر على شكل ممرٍّ طويل تتوسّطه قناة مائية مزودة بعدة نافورات، وتُحيط بها الأشجار الخضراء من الجانبين، مِما يُضفي على المكان جوًّا من الجمال والهدوء مُستوحًى من الطراز المغوليّ.

وتُعدّ حجرات القصر تُحفًا فنية قائمة بنفسها، إذ تعبّر كل حجرة عن أحد الطرز العمارية الإسلامية المُتنوّعة، ومن أبرز تلك الحجرات «الحجرة الدِمشقية»، التي صمّمتها دوريس بعد زيارتها لسوريا ولبنان في أوائل الخمسينيّات، فقد أعادت دوريس تصميم هذه الحجرة لتكون نسخة طبق الأصل من حجرات البيوت الدمشقية التقليدية، مُستخدمة بقايا حجرات تعود إلى القرن الثامن عشر، إذ جَلبتِ الألواحَ الخشبيةَ المُزخرفةَ والمَطليةَ بالذهبِ، والسقفَ، والعناصرَ العمارية والفنية المُتنوّعة، وقامت بتركيبها بعناية فائقة، فكانت دوريس مُنبهرة بها؛ نظرًا للقيم التراثية والجمالية وثراء المعاني الزُخرفية للغرف الدِمشقية، وقد حُوكيَتْ هذه الغرفة في كثير من البيوت والمتاحف العّالمية لعل أشهرها الحجرة الموجودة في متحف المتروبوليتان للفنون بنيويورك، وتُعبّر هذه الغرفة عن الثراء الفنيّ للعصر الذي صُنعت فيه، وعن القيم الجمالية للعمارة والفنون الإسلامية.

أمّا حجرة نومها الخاصة، فاستوحت تصميمها من الطراز الهنديّ، بعد زيارتها لضريح تاج محل سنة 1935م، وقامت دوريس بتصميم إطارات الأبواب والمشربيات والألواح الرخامية على غرار الطراز العماريّ لتاج محل، والحجرة غنية بالقطع الثمينة التي جلبتها من الهند، بما في ذلك البُسُط الفاخرة والأثاث المطعّم والمزخرف، مِما يُظهِر مزيجًا من التقاليد الفنية الإسلامية والهندية، ويضم المُتحف «الحجرة المغربية» و«الحجرتين التركيّتين»، اللتين تتوزّع فيهما بعناية كثيرٌ من القطع والتحف الفنية العثمانية، التي صُنعت في تركيا وسوريا خلال القرنين السادس عشر والتاسع عشر الميلاديين، وقد استخدمت البلاطات الخزفية بألوانها وأشكالها المُميّزة في تكسية جدران حجرات القصر المُختلفة، وتُزيّن الجدرانَ الخَزاناتُ الخشبية المتنوّعة في تصاميمها.

ومن الحجرات المُميّزة في القصر«حجرة المحراب»، التي تربط بين حجرة المعيشة وغرفة الطعام، وتتميّز هذه الحجرة بوجود محراب فريد يعود لعصر الدولة الإيلخانية في إيران، الذي اقتنته دوريس، وأعادت تصميم الغرفة وفقًا للتقاليد الفنية الإيرانية، وتُعدّ هذه الحجرة ذات أهمية خاصة لدى مؤرخي الفنون الإسلامية، إذ زُيّنت جدرانها ببلاطات القاشاني ذات اللون الفيروزي المُميّز، مِما أضفى عليها طابعًا فنيًّا فريدًا.

> **أطلقت دوريس على قصرها اسم «شانغريلا» ويعني: «جنة بعيدة وسرية لا يكبر المرء فيها أبدًا»**

وتوزّعت التحف الفنية في مختلف حجرات المُتحف، وتنوّعت بين الفخار والخزف الإيرانيّ، والمشغولات المعدنية، والمنسوجات والسجاد، وتعود هذه التحف لحِقَبٍ تاريخية متنوعة، مثل المغولية الإيلخانية، والتيمورية، والقاجارية، والعثمانية، وقد أعادت تصميم بعض حجرات القصر لتتلاءم مع هذه المقتنيات، ويضم المتحف أيضًا مكتبة كبيرة تحتوى كثيرًا من المؤلفات المتخصصة في تاريخ الفنون، لا سيما الفنّ الإسلاميّ، ما يظهر شغف دوريس بالثقافة والفنون وتقديرها للتراث الفنيّ.

وأخيرًا يُعَدُّ متحف شانغريلا للفنون الإسلامية أكثر من مجرد مكان لعرض التحف الفنية؛ فهو جسرٌ يربط بين الشرق والغرب، ومَعلمٌ يُجسّد جمال الفنّ الإسلاميّ وروعته وتاريخه العريق من خلال مقتنياته الفريدة وتصميمه العماريّ المُستلهم من طُرزٍ متنوعة، يروي المتحف قصة عشقٍ للفنون والثقافات الإسلامية، ويُعزّز الحوار الثقافيّ بين الحضارات، ليبقى رمزًا للإبداع والتنوع والثراء الحضاريّ الذي أثرى التراث الإنسانيّ على مرّ العصور.

الإيسيسكو في دمشق

د. أدهم محمد علي حموية

خبيرٌ في مركز اللغة العربية للناطقين بغيرها الإيسيسكو

سوريا

مُستلهِمةً روحَ البقاء عبْرَ صروف الدهر وعواديه؛ تستحيي الشامُ اليومَ أسرارَها وأنوارَها، وتُسعِّر أُوار الأشواق إلى رُباها ومغانيها، وترسم أحداث حُلُم العودة، عودةِ المجد إليها، ولم لا، وهي صفوةُ الله من أرضه؟!

قـــرأتُ مَجْـــــدَكِ في قلبـــــي وفـــي الكُتُـــــــبِ
شـــآمُ.. مـــا المجـــد؟ أنـــتِ المجـــــدُ لم يَغِـــــبِ

> **يا شام، كم سابقةٍ سبقتِ بها الأمم، وعجزتْ عن مثْلِها الحضارات..!**

شآمُ، أنتِ المجدُ أعزَّ من سعى لعودته.. شآمُ، أنتِ المجدُ أذلَّ من سعى لغيبته.. يا شامة الدنيا ووردتها، أنتِ المجدُ تحكيه الأوائل والأواخر، وتقصُّه سِيَرُ الأوابد والعمائر، وتصونه الأعلام في البوادي والحواضر، وكم سابقةٍ سبقتِ بها الأمم، وعجزتْ عن مثْلِها الحضارات..!

فمن سوابق المدنية في الشام أن دمشق أقدمُ عاصمة للعالمين؛ بعمرها الذي يزيد عن أحد عشر ألف عام، وأن حلب أقدمُ مدينة مأهولة في العالم، منذ تأسيسها قبل نحو اثني عشر ألف عام، وأن حمص ابتدع أهلُها الحساب في سالف الأزمان، لأنهم كانوا تجارًا يحتاجون إلى الحساب في أرباحهم، وأن حماة بنواعيرها ما زالت فريدة العصور، وأن الفينيقيين انطلقوا من أوغاريت على شواطئ الشام ليَهبُوا شعوبَ البحر الأبيض المتوسط الأبجديةَ الأولى، وأن زنوبيا حكمت في تدمر من صحراء الشام، فكانت ملكة ملكات الشرق.

وجاء في أخبار الأوائل أن صفة الأرض على صفة النسر، فالرأسُ الشامُ، والجناحان المشرقُ والمغربُ، وإذ وعى أهلُ الشام هذا الخبر رَكَزُوا ذاك الوصف في عاصمتهم، وتمَّ لهم في أعجوبتهم الخالدة؛ جامع بني أمية الكبير، حيث جعلوا قبَّته بمنزلة رأس النسر، وسمَّوها باسمه، وعن يمينها وشمالها جناحاه، وهو على ما وُصف، بل أكثر، جوهرةٌ تحكي خيوطُ شعاعها قصصَ من تعبَّدوا في ذلك المكان؛ وثنيِّهم ونصرانيِّهم ومُسلِمهم، حتى استحقَّ أن يكون أقدم مكان استمرَّ فيه التعبُّد عبر التاريخ.

ومن سوابق العلم في الشام، أن عمود الكتاب احتُمل من تحت رأس رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فعُمد به إلى الشام، وهناك مَلَكَ أولُ مَلِكٍ في الإسلام، خالُ المؤمنين، معاويةُ بن أبي سفيان رضي الله عنه وأرضاه، وهو أولُ

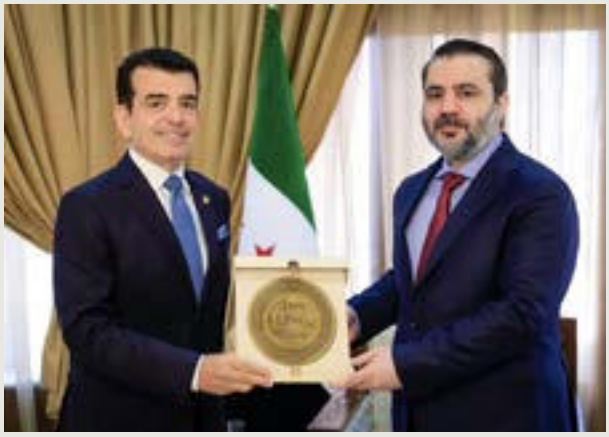

من أنشأ الكتاتيب لتعليم أبناء المسلمين، وهناك أيضًا أنشأ خالدُ بن يزيد - حكيمُ آل مروان، وعالِمُ قريش - أولَ خزانة كُتُبٍ في الإسلام، وهو من باشر ترجمة علوم اليونان إلى العربية، ثم أُنشئت في دمشق أولى مدارس القرآن عام 444 للهجرة، فكانت فاتحة دُوْرِ علوم الشرع ومدارس الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة، ومنها خَرَجَ أعاظم الملة - كما يقول محمد كرد علي - وكانت من أعظم الأدوات في إخراج المسلمين من الأميَّة، وكذا سُجِّل لدمشق إنشاءُ أولى كليات الطب المتخصصة في العالم، هي المدرسة الدخوارية، أُنشئت في القرن السابع الهجري، وهناك أيضًا كان إنشاءُ المجمع العلمي العربي عام 1919، ليكون أولَ معقل من معاقل الذَّود عن حياض اللغة العربية.

> **في دمشق، دُرَّة المجد، وسُرَّة الأرض، وخير مدائن الشام..**

وفي العصر الحديث كانت دمشق عاصمة لحراك عربي مختلف المشارب والأقطار؛ من أجل الإعلان عن أولِ دولة عربية ديمقراطية مستقلة برئاسة الملك فيصل الأول، في 8 آذار / مارس 1920، وهذي سابقةٌ لها ما لها من معانٍ واعتبارات في هذه الأيام.

لذا وغيرِه ما زالت الشامُ مهوى الأفئدة، ومرامَ العقول، ومطمعَ الطامعين، ومطمحَ الطامحين، تَهَبُ العالمَ حضارتها الأثيرة بعلومها وفنونها وأعلامها، وتستهوي زائرَها وقاصدَها برُباها ومغانيها، وذلك أنَّ عنصر ما سَبَقَ هو الإنسان؛ به وله كانت تلك السوابق، وعلى ذلك اتَّفقتِ الديانات، وترافدتِ الحضارات، وتعالقتِ الثقافات؛ التي عرفتْها الشام:

شَـــآمُ يـــا ابنـــةَ مـــاضٍ حـــاضرٍ أبـــدًا
كأنَّـكِ السَّيـــفُ مَجْـــدَ القـــولِ يَخْتَصِـــرُ
حَمَلْـــتِ دنيـــا علـــى كَفَّيْـــكِ فالْتَفَتَـــتْ
إليـــكِ دُنْيـــا وأغْضَـــى دُوْنَـــكِ القَـــدَرُ

وفي دُرَّة المجد، وسُرَّة الأرض، وخير مدائن الشام؛ حلَّ أهلًا ووطئ سهلًا وفدُ منظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة «إيسيسكو»، برئاسة مديرها العام، معالي الدكتور سالم بن محمد المالك، وذلك بعد انقطاع لا تعنينا أسبابه بقدرِ ما يعنينا ما قَبْلَه وما بَعْدَه، فإنها دمشق؛ حيثُ الربوةُ ذات القرار والمعين، والجلَّنارُ والياسمين، حيثُ اجتماعُ الأوَّلين والآخرين، وأعجِبْ بها مدينةً اجتمع فيها من الأعراق ما يصعب إحصاؤه في حين أنها «لا يُطيق نزولَها إلا الملوك»، كما قال بعضُ وُلاتها..! جَمَعَتِ النقائض، واحتوتْ على الفرائد، يحكيها تاريخُها العريق؛ جوامعُها، وأديارُها، ومدارسُها، ودُورُها، وقصورُها، وأسواقُها، وخاناتُها، وحمَّاماتُها، وغوطتُها، وما فيها من محاسن الصنعة ومراتع الألفة، حتى استحقَّت دمشق أن تكون مدينة من مُدُن الجنَّة:

دمشـــــــقُ فـــــــي أوصافِهـــــــا
جنَّـــــــةُ خُلْـــــــدٍ راضيَـــــــهْ
أمـــــــا تـــــــرى أبوابَهـــــــا
قـــــــد جُعِلَـــــــتْ ثمانيَـــــــهْ؟!

على قدرِ أهلِ العزم تأتي العزائمُ..

هناك تتأكَّد أن العزائم تأتي على قدرِ أهلِ العزم، وما أكثر العزوم في الشام..! عزمٌ على إحقاق الحق وإبطال الباطل، عزمٌ على الخلاص من سحابة ظلمٍ جثمت على الصدور عقودًا، عزمٌ على النهضة من بين ركام البشر والحجر، وإجمالُ تلك العزوم وغيرها أنها عزمٌ على المجد، أي على أن تكون الشام شامًا، ولا غَرْوَ، فإن الشام تَغلِب لا تُغلَب؛ قد غلبت ساكنتَها على مرِّ العصور، وانتفعت باختلاطهم إذ شحذتْ عزومَهم وأمضتْها، وطوَّعتْهم ليصنعوا مجْدَها - بل مجْدَهم - ويذودوا عنه، ولسان حالهم اليومَ يقول:

أيُّهـــــــا التاريـــــــخُ عُدْنـــــــا
قـــــــد رجعْنـــــــا مـــــــن جديـــــــدْ
بالدِّمـــــــاءِ قـــــــد كتبْنـــــــا
صفحـــــــةَ المجـــــــدِ الثَّليـــــــدْ

وفي دمشق - وأخواتها - ترى عزومًا لا تلين من أجل إرساء أُسُسٍ مستقبل يُلبّي تطلُّعات شعْبِ سورية العريق إلى حياة كريمة ملؤها السلام والاستقرار والازدهار، فالطموح ما زال جبلَّة أهْلِ الشام وديدنهم، وتلك مآثرهم علومًا وأعلامًا ومعالم؛ تحكي عُمْقَ أرومتهم، وعُلُوَّ همَّتهم، وشدَّة عزيمتهم، فإنهم جمعوا علومَ الدين والدنيا، وأفاضوا فيها تمحيصًا وتأليفًا، ولو ذكرتُ بعْضَ أعلامهم لجحدتُ من لم أذكرهم، فإنهم تسالفوا وتخالفوا؛ سابقُهم ولاحقُهم، وكلٌّهم ذو فضلٍ حيث أُقيم، وأما المعالم فقد تقدَّم بعْضُ أشهرها، ويضيق عن غيرِها المقامُ.

ولأن الشامَ فسطاطُ المسلمين كما أخبر سيِّد المرسلين، عليه أفضل السلام وأتمُّ التسليم؛ لن تعجز عزومُ أهلِها اليومَ ولن تتأخَّر - كما لم تعجز يومًا ولم تتأخَّر - عن أن تجعل الشامَ أمثولةً حضاريةً عالمية، يُشعُّ منها ما يحتاجه العالم من معاني الوسطية والسلام والتكريم، وسماحة الدين القويم:

ظمِـــئ الشَّـــرقُ فيـــا شـــامُ اسكُبـــي
واملئـــي الكـــأسَ لـــهُ حتَّـــى الجَمَـــامْ
أهلُـــكِ التَّاريـــخُ مـــن فُضْلَيهـــم
ذِكْرُهـــم فـــي عُـــروةِ الدَّهـــرِ وِسَـــامْ

ومن ثمَّ كانت زيارة وفْدِ الإيسيسكو إلى دمشق؛ في إطار رؤيتها الاستشرافية وتوجُّهاتها الإستراتيجية التي تعتمد ترسيخَ قيمِ التعايش والسلام والحوار الحضاري، ودعْمَ المنظومات التربوية والعلمية والثقافية في دولِ العالم الإسلامي، وذلك يتقاطع مع عزوم أهل الشام اليومَ على تعافي سورية الجديدة، وتنميتها، وازدهارها، وإعادة مجدها.

وقد رسمت تلك الزيارةُ معالمَ مبادرةٍ شاملةٍ يمكن أن تتعاون فيها الإيسيسكو مع الجهات الوطنية السورية المعنيَّة، من أجل تحقيق غاياتها في مجالات التربية والعلوم والثقافة.

ففي المجال التربوي عزمٌ على حشدِ الدعم لبناء المدارس المدمَّرة، وترميم المتضرِّرة، وتجهيزها، مع إصلاح المنظومة التربوية بالاستفادة من كلِّ التجارب العالمية الناجحة في

تطوير المناهج وتوحيدها، ودمْجِ التقانة في التعليم، وبناء قدرات المعلمين، واستحداث الأساليب التربوية المبتكرة.

وفي المجال العلمي عزمٌ على الارتقاء بالتعليم العالي، وتطويره عبْرَ الاستثمار في الشباب، ودعمِ البحث العلمي، وتعزيز ثقافة الابتكار في اقتصاد المستقبل ومِهَنِ الغد، وتمتين التعاون العلمي مع الجامعات المرموقة، وما يُرافق ذلك من بناء القدرات، وإنشاء الحاضنات البحثية في الجامعات السورية، وتوفير المنح الدراسية لطلبتها، والبحثية لأساتذتها.

رسمت زيارةُ الإيسيسكو إلى دمشق معالمَ مبادرةٍ شاملةٍ للتعاون مع الجهات الوطنية السورية

وفي المجال الثقافي عزمٌ على دعمِ جميع جوانب العمل الثقافي الوطني بما تشمَلُه من فنون وتراث وأدب، وذلك عبْرَ معاينة المواقع التراثية التاريخية والدينية، وتقييم أضرارها إثْرَ سنوات من الدمار والتخريب، ومن ثمَّ العمل على ترميمها وإحيائها، وتسجيلها في قوائم التراث العربي والإسلامي والعالمي، وكذلك بناء قدرات الشباب السوري للنهوض بالثقافة السورية بكلِّ أطيافها.

وليس بخفيٍّ أن العزوم في تلك المجالات رهانُها على الإنسان أولًا وآخرًا، وهي منسلكة في سلْكِ ما تقدَّم بيانُه من أن الإنسان عنصرُ السوابق التي سبقتْ بها الشامُ الأممَ، وعجزتْ عن مثلِها الحضاراتِ، فلطالما كان الاستثمار في الإنسان أنبلَ الغايات وأشرفَ المقاصد، وكلُّ استثمارٍ غيره إنما هو تَبَعٌ له ومُتمِّمٌ إياه ومُوصِلٌ إليه، وهو ما تعمل عليه سورية الجديدة، لتستعيد مكانتها الحضارية في مسيرة التاريخ الإنساني.

ومن منطلق وعيِها تلك المكانة، وحرصِها على الإسهام في تحقيقها؛ لبَّتِ الإيسيسكو سريعًا نداءَ واجبِ التعاون مع الإدارة السورية الجديدة في مسعاها، وأثمرت جهودُها - حتى اليوم - عدةَ اتفاقات وتفاهمات لدعمِ ترميم بعضِ المدارس المدمَّرة والمتضرِّرة وتجهيزها، وتقديمِ منحٍ دراسية للطلبة الجامعيين، وعقدِ مؤتمر دولي لمشروع إحياء المكتبة الوقفية ومخطوطاتها في حلب، وتسجيلِ عدة مواقع تراثية تاريخية ودينية في قائمة الإيسيسكو للتراث الإسلامي، فضلًا عن ترشيح دمشق لتكون عاصمة للثقافة في العالم الإسلامي للعام 2027.

الاستثمار في الإنسان أنبلُ الغايات وأشرفُ المقاصد..

إن الإيسيسكو بمكانتها المتميزة بين المنظمات الدولية، وحضورها الراسخ في مجالات اختصاصها، ومستفيدة من شبكة علاقاتها الوثيقة؛ لَتُسخِّرُ كلَّ طاقاتها من أجل أن تكون جزءًا من استعادة سورية مجْدَها، ولَتَعْمَلُ مع الجهات الوطنية السورية المعنيَّة من أجل الإسهام في بناء مستقبل أكثر سلامًا واستقرارًا وازدهارًا في الجمهورية العربية السورية:

حيُّوا دمشقَ وحيُّوا الشَّامَ قاطبةً
فقد تولَّى عن الأحبابِ إظلامُ
ولتفرحي فرحًا يا شامُ يُطربُنا
وخلِّدي عَوْدَكِ الميمونَ يا شامُ

المواد المتقدمة

محور التحول في عصر الصناعة 5.0

يُشكل علم المواد حجر الزاوية في هذه الثورة التقنية المتسارعة

أ.د. مريم المعاضيد
جامعة قطر

تطورت المجتمعات البشرية عبر مراحل متعددة، بدءاً من مجتمع الصيد، ثم المجتمع الزراعي والمجتمع الصناعي، وصولاً إلى مجتمع المعلومات، وأخيراً المجتمع الذكي 5.0 «Society 5.0» أو ما يسمى بمفهوم اخر الثورة الصناعية الخامسة «الصناعة 5.0- Industry 5.0 ». حيث يشهد عالمنا المعاصر تحولاً جذرياً مع انطلاقها والتي تغير حاليا ملامح الصناعة والاقتصاد.

ولعل أبرز ما يميز المجتمع 5.0 هو تركيزه على الإنسان كمحور أساسي للتطور، فهو لا يسعى فقط إلى التقدم التقني، بل يهدف إلى تحسين نوعية الحياة من خلال خدمات مخصصة لكل فرد. كما يولي اهتماماً خاصاً بالاستدامة بمفهومها الشامل: بيئياً عبر حماية الموارد الطبيعية، واجتماعياً من خلال تعزيز الترابط المجتمعي، واقتصادياً عبر خلق فرص عمل جديدة وتحفيز النمو المستدام.

يرتبط علم المواد ارتباطاً وثيقاً بهذه التغيرات حيث يمثل حجر الأساس في تطوير التقنيات المتقدمة التي تميز هذه الحقبة الصناعية الجديدة. تركز الصناعة 5.0 على التكامل بين الإنسان والآلة، وتهدف إلى خلق تناغم بين التقدم التكنولوجي والاحتياجات البشرية، وهنا يأتي دور علم المواد في توفير المواد المتطورة اللازمة لتحقيق هذا التكامل. حيث يمثل الركيزة الأساسية التي تستند إليها التطورات التقنية الحديثة. من خلال هذا العلم، تتفتح أبواب جديدة للابتكار، وتتسع آفاق التصنيع المتقدمة.

ما هو علم المواد ؟

علم المواد يمثل نقطة التقاء بين الفيزياء والكيمياء والهندسة. يهتم هذا العلم بدراسة وفهم خصائص المواد المختلفة وكيفية تطويرها لتلبية احتياجات التطبيقات المتنوعة في حياتنا اليومية. ويتناول دراسة مجموعة واسعة من المواد، بدءاً من المعادن وسبائكها، مروراً بالبوليمرات والسيراميك، وصولاً إلى المواد المركبة والمواد النانوية المتقدمة. يركز العلماء في هذا المجال على فهم التركيب الداخلي للمواد على المستوى الذري والجزيئي، ودراسة خصائصها المختلفة مثل القوة الميكانيكية، والكهربائية والحرارية، والخصائص الضوئية والمغناطيسية.

يشهد القطاع الصحي فرصاً واعدة لتطوير مواد حيوية ذكية قادرة على محاكاة الأنسجة الطبيعية للجسم بشكل أفضل. هذه المواد ستفتح المجال لتطوير أعضاء اصطناعية أكثر توافقاً مع جسم الإنسان، وأنظمة توصيل دواء أكثر فعالية تستهدف الخلايا المريضة بدقة عالية

تاريخ علم المواد يمتد إلى عصور قديمة، وقد أسهم العلماء العرب والمسلمون بشكل كبير في تطويره. ويُعد كتاب «الجواهر في معرفة الجواهر» للبيروني من أهم المراجع العربية القديمة في علم المعادن والأحجار الكريمة. أما علم النانو «وهو جزء من علم المواد» فقد أنطلق عام 1959 في محاضرة «هناك متسع كبير في الأسفل» التي ألقاها ريتشارد فاينمان، حيث طرح فيها فكرة إمكانية التحكم بالمواد على المستوى الذري والجزيئي، مقدماً أمثلة عملية مثل إمكانية كتابة موسوعة كاملة على رأس دبوس، مما فتح آفاقاً جديدة في عالم التصغير والتقنيات النانوية.

في مدى النانو «والنانو لا يتجاوز حجمه جزءاً من الألف من حجم شعرة الإنسان»، تظهر خصائص فريدة للمواد تختلف عن خصائصها في المقاييس الأكبر. فتح هذا آفاقاً

جديدة وإمكانيات هائلة لتطوير المواد وتحسين خصائصها وتحولات كبيرة في مختلف المجالات الصناعية والتقنية وتطوير مواد مبتكرة بخصائص تتحدى التقليدية.

تظهر أهمية علم المواد في العدد الكبير من التطبيقات. ففي الصناعة، يساهم في تطوير مواد أقوى وأخف وزناً لصناعة المركبات المختلفة مثل السيارات والطائرات. وفي مجال الإلكترونيات، يلعب دوراً حاسماً في تطوير أشباه الموصلات والمواد المستخدمة في صناعة الأجهزة الإلكترونية والبطاريات والخلايا الشمسية. أما في مجال الطب فنراه في المواد الحيوية المتوافقة مع جسم الإنسان والمستخدمة في زراعة الأعضاء والأدوات الطبية وتطوير مواد طبية جديدة وغيرها. ويساهم في تطوير مواد صديقة للبيئة وقابلة لإعادة التدوير، وتحسين كفاءة استخدام الطاقة من خلال تطوير مواد جديدة للخلايا الشمسية والبطاريات المتقدمة. فهو يعد عنصراً أساسياً في التنمية المستدامة.

الفرص المستقبلية

يفتح علم المواد آفاقاً واسعة من الفرص المستقبلية التي تبشر بتحول تكنولوجي في مختلف المجالات. في مجال الطاقة، تتجه الأبحاث نحو تطوير مواد فائقة الكفاءة للخلايا الشمسية وابتكار الخلايا الشمسية الحرارية التي تحسن قدرتها على جمع وتخزين الطاقة الشمسية والخلايا المدمجة في المباني وغيرها، هذا يؤدي إلى خفض تكاليف إنتاج الطاقة المتجددة وزيادة كفاءتها. كما يعمل العلماء على تطوير بطاريات متقدمة ذات سعة تخزين أعلى وعمر افتراضي أطول، مما سيحدث نقلة نوعية في مجال السيارات الكهربائية، والأجهزة الالكترونية وتخزين الطاقة. ومع تزايد الاعتماد على الطاقة المتجددة عالمياً، تبرز الحاجة لإنتاج بطاريات بكميات كبيرة لتخزين فائض الطاقة الكهربائية، لضمان استمرار الإمداد خلال

فترات انخفاض إنتاج الطاقة الشمسية والرياح وغيرها. وهذا يدعم التوجه نحو مصانع أكثر استدامة وصديقة للبيئة، وهو أحد الأهداف الرئيسية للصناعة 5.0.

ويشهد القطاع الصحي فرصاً واعدة لتطوير مواد حيوية ذكية قادرة على محاكاة الأنسجة الطبيعية للجسم بشكل أفضل. هذه المواد ستفتح المجال لتطوير أعضاء اصطناعية أكثر توافقاً مع جسم الإنسان، وأنظمة توصيل دواء أكثر فعالية تستهدف الخلايا المريضة بدقة عالية. من جهة أخرى تمثل الأجهزة القابلة للارتداء والزرع في مجال التكنولوجيا الحيوية تقدما في الرعاية الصحية الذكية من خلال تطبيقاتها التشخيصية والعلاجية. تشمل التطبيقات التشخيصية مراقبة المؤشرات الحيوية كالسكر وضربات القلب وضغط الدم وأنماط النوم، بينما تتضمن التطبيقات العلاجية توصيل الأدوية وتحفيز الأنسجة والأعصاب وتنظيم وظائف الجسم. تتميز هذه التقنيات بدقتها العالية وقدرتها على المراقبة المستمرة وسهولة دمجها في الحياة اليومية، مما يحسن جودة حياة المرضى ويقلل التكاليف الصحية، مجسدة بذلك التكامل بين التطور التكنولوجي والرعاية الطبية المتخصصة.

تاريخ علم المواد يمتد إلى عصور قديمة، وقد أسهم العلماء العرب والمسلمون بشكل كبير في تطويره. ويُعد كتاب «الجواهر في معرفة الجواهر» للبيروني من أهم المراجع العربية القديمة في علم المعادن والأحجار الكريمة

في مجال الإلكترونيات والحوسبة، تبرز فرص هائلة لتطوير مواد جديدة للحوسبة الكمومية، مما سيؤدي إلى ثورة في قدرات المعالجة وتخزين البيانات. كما يعمل الباحثون على تطوير مواد إلكترونية مرنة وذكية تغير نفسها حسب الظروف المحيطة «مثل الحرارة، الضغط، الدرجة الحمضية» مما سيفتح المجال لتطبيقات جديدة في مجال الإلكترونيات القابلة للارتداء والشاشات المرنة. هذه المواد الإلكترونية المرنة يمكن أن تؤمن التواصل السلس بين الإنسان والآلة، وخاصة من خلال الحساسات الدقيقة المتخصصة في رصد وجمع البيانات، والمواد الذكية التي تتحمل العمل في ظروف مختلفة «عالية الحرارة والضغط وغيرها» والتي تمكن الروبوتات من التفاعل بشكل أكثر أماناً وكفاءة مع البشر. هذه المواد تتميز بقدرتها على الاستشعار والاستجابة للمؤثرات الخارجية، مما يجعل التعاون بين الإنسان والآلة أكثر سلاسة وفعالية. هذه التطورات تسمح بتصميم أجهزة أكثر راحة وكفاءة للمستخدم، مما يعزز تجربة التفاعل بين الإنسان والتكنولوجيا في بيئات العمل المختلفة.

وفي مجال التصنيع الذكي، يساهم علم المواد في تطوير مواد ذاتية التشخيص والإصلاح التي تعمل مثل الجلد البشري في قدرته على شفاء نفسه تلقائياً عند التعرض للخدوش والأضرار فعندما يتعرض السطح المعدني المطلي للخدش، تبدأ هذه المواد الذكية في إصلاح نفسها تلقائياً، تماماً كما يلتئم الجرح في جسم الإنسان. وهذا يعزز موثوقية وكفاءة خطوط الإنتاج ويعمل على تقليل وقت الصيانة، مما يؤدي إلى تحسين جودة المنتجات. وتأتي روعة هذه التقنية من إمكانية استخدامها لمواد طبيعية صديقة للبيئة، مثل مستخلصات الحناء والألوة فيرا، إلى جانب تقنيات النانو المتقدمة. وقد وجدت هذه التقنية طريقها إلى العديد من الصناعات المهمة في حياتنا. فنراها تحمي هياكل السيارات من الخدوش، وتحافظ على السفن في المياه المالحة، وتطيل عمر أنابيب النفط والغاز. ورغم أن تكلفتها لا تزال مرتفعة، إلا أن مستقبلها يبدو مشرقاً مع تطور الأبحاث والتقنيات الجديدة.

يشهد علوم المواد في مجال المباني الذكية تطوراً ملحوظاً يتمحور حول تطوير مواد متقدمة تجمع بين الذكاء والاستدامة. تتميز هذه المواد بقدرتها على التكيف مع الظروف المحيطة وتحسين كفاءة استهلاك الطاقة، حيث تساهم في تحقيق مفهوم المباني صفرية الطاقة أو حتى المباني التي تنتج طاقة أكثر مما تستهلك. يتم تحسين مواد البناء من حيث المتانة والخفة ومقاومة

في مجال التصنيع الذكي، يساهم علم المواد في تطوير مواد ذاتية التشخيص والإصلاح والتي تعمل مثل الجلد البشري في قدرته على شفاء نفسه تلقائياً عند التعرض للخدوش والأضرار

الظروف البيئية المختلفة والقدرة على تنظيم درجة الحرارة تلقائياً، وإصلاح الشروخ ذاتياً، مما يضمن استدامة المباني على المدى الطويل. كما تساعد المواد المتقدمة في تطوير أجهزة استشعار دقيقة تمكننا من فهم بيئتها المحيطة بشكل أفضل. وتتكامل المواد المتقدمة مع أنظمة الاستشعار وإنترنت الأشياء لخلق بيئة صحية ومستدامة. تقوم هذه المواد بمراقبة وتنظيم مستويات ثاني أكسيد الكربون والرطوبة والضوضاء، مما يساهم في تحسين جودة البيئة الداخلية. هذا التكامل التقني في مواد البناء بدمج أجهزة الاستشعار وأنظمة المراقبة مباشرة في مواد البناء يسمح بجمع وتحليل البيانات في الوقت الفعلي، مما يمكن من اتخاذ قرارات فورية لتحسين الأداء.

وتتسارع الابتكارات في علوم المواد التي تدعم البيئة والاستدامة، فهناك تطوير مواد قادرة على امتصاص وتحويل ثاني أكسيد الكربون، مما سيساهم في مكافحة التغير المناخي. كما يتجه البحث نحو تطوير مواد قابلة للتحلل الحيوي بشكل كامل، وتقنيات متقدمة لإعادة تدوير المواد المختلفة بكفاءة أعلى، وأذكر هنا على سبيل المثال استخدام المخلفات الزراعية خاصة الياف النخيل واضافتها الى البوليمرات المعاد تدويرها مما يمكن ان يحسن من خواصها الميكانيكية ويفتح أبوبا جديدة للصناعات المحلية.

وتحل المواد المتقدمة تحدياً مزدوجاً في الفضاء يتمثل في الحاجة لخصائص فائقة لمقاومة البيئة القاسية، مع قصور في أدائها عند درجات الحرارة المتطرفة. يركز البحث العلمي حالياً على تطوير مواد مبتكرة تشمل المركبات الهجينة والتقنيات النانوية، رغم محدودية نشر النتائج بسبب سرية برامج الفضاء العالمية. يبرز دور الذكاء الاصطناعي والنمذجة الحسابية، في تطوير جيل جديد من الهياكل الفضائية مما يفتح آفاقاً واعدة لمستقبل الاستكشاف الفضائي.

يفتح علم المواد آفاقاً واسعة من الفرص المستقبلية التي تبشر بتحول تكنولوجي في مختلف المجالات

يمثل تحدي التصنيع على نطاق واسع عقبة رئيسية أخرى، فبينما قد تنجح التجارب المخبرية في تطوير مواد ذات خصائص مميزة، إلا أن نقل هذه النجاحات إلى مستوى الإنتاج الصناعي قد يواجه بعض الصعوبات. تشمل هذه الصعوبات الحفاظ على جودة المنتج، وضبط تكاليف الإنتاج، وتحقيق الاستقرار في الخصائص المطلوبة على نطاق واسع.

يبرز البعد البيئي كأحد أهم التحديات المعاصرة في مجال علم المواد. فمع تزايد الوعي البيئي العالمي، أصبح من الضروري تطوير مواد مستدامة وصديقة للبيئة. يتطلب هذا يمثل دمج الذكاء الاصطناعي في علم المواد تطوراً ثورياً في مجال ابتكار وتطوير المواد وقد بدأ استخدامه في تطوير المواد في الثمانينيات وتطور بشكل كبير مع ظهور تقنيات التعلم الآلي والتعلم العميق وأصبحت التنبؤات والاكتشافات أكثر دقة مع تطور هذه التقنيات. يستخدم هذا المجال نماذج التعلم الآلي لتحليل كميات من البيانات التجريبية، مما يسمح بمحاكاة وتوقع خصائص المواد بدقة عالية. هذا التطور والتكامل يساعد في تسريع عملية اكتشاف مواد جديدة وتحسين خصائصها لتطوير صناعات مختلفة في الطب والفضاء، وغيرها، وتحسين السلامة، والكفاءة.

التحديات

يواجه علم المواد مجموعة متنوعة من التحديات التي تؤثر على تطوره وتطبيقاته المستقبلية. نظرا للتطور المتسارع في هذا المجال، يواجه قطاع التعليم والتدريب والبحث صعوبات مختلفة تستدعي تحديث المناهج التعليمية باستمرار، وتطوير المهارات المهنية لمواكبة المستجدات التقنية المتلاحقة. كما أن التكلفة العالية للبحث والتطوير تتطلب معدات متطورة ومختبرات متخصصة باهظة الثمن. وتستغرق وقتاً طويلاً وتتطلب استثمارات كبيرة، مما قد يشكل عائقاً أمام العديد من المؤسسات البحثية والشركات الصغيرة والمتوسطة.

إيجاد بدائل للمواد الضارة بيئياً، وتطوير عمليات تصنيع أكثر كفاءة في استهلاك الطاقة، وتحسين قابلية المواد لإعادة التدوير. كما يجب مراعاة الأثر البيئي للمواد طوال دورة حياتها، من مرحلة الاستخراج إلى التخلص النهائي.

كما يمثل تحدي الموارد والمواد الخام مشكلة متنامية، فالعديد من المواد الأساسية المستخدمة في التطبيقات التكنولوجية المتقدمة، مثل العناصر الأرضية النادرة، محدودة في توافرها وتتركز في مناطق جغرافية معينة. هذا يخلق تحديات في سلاسل التوريد ويؤثر على استقرار الأسعار والتوافر المستمر للمواد الخام.

ومع تسابق العالم في مضمار الابتكار تتصاعد التوقعات من الباحثين والمؤسسات لتطوير مواد جديدة بسرعة أكبر وتكلفة أقل. هذا يتطلب موازنة دقيقة بين جودة البحث العلمي ومتطلبات السوق، مع الحفاظ على الميزة التنافسية في السوق العالمية.

يتطلب التغلب على هذه التحديات تعاوناً وثيقاً بين مختلف الأطراف المعنية، من مؤسسات أكاديمية وصناعية وحكومية، بالإضافة إلى استثمارات كبيرة في البحث والتطوير والبنية التحتية. كما يتطلب تبني استراتيجيات مبتكرة للتعامل مع هذه التحديات وتحويلها إلى فرص للتطور والنمو.

> **يسعى مجتمع 5.0 إلى تحقيق التوازن بين التقدم التكنولوجي واحتياجات الإنسان والتركيز على تحسين جودة الحياة للجميع**

نرى أهمية الاستثمار المستمر في البحث والتطوير في مجال المواد المتقدمة، حيث سيكون لهذا التطور دور حاسم في تشكيل مستقبل الصناعة وتحقيق أهداف التنمية المستدامة وتحسين جودة الحياة وهذه اساسيات مفهوم المجتمع 5.0. حيث يسعى هذا المجتمع إلى تحقيق التوازن بين التقدم التكنولوجي واحتياجات الإنسان والتركيز على تحسين جودة الحياة للجميع.

ونؤكد مرة اخرى أن نجاحه مرهون بالتعاون الفعال بين كافة أصحاب المصلحة، والتخطيط الاستراتيجي المتكامل وتبني رؤية شاملة تجمع بين الجوانب التقنية والاجتماعية والاقتصادية.

المجتمع *

*** التمثيل التخطيطي للألياف المختلفة المستخدمة في المجتمعات على مر العصور**

Al Maadeed, M.A.A., Ponnamma, D. Fiber chemistry and technology: their contributions to shaping Society 5.0. Discover Nano 18, 115 «2023». https://doi.org/10.1186/s11671-023-03888-4

صور توضح الترميم الذاتي للمواد و الذي يشبه الترميم الذاتي للجروح في الجسم

الشعراء

حسام شديفات

شاعر

الأردن

مِن لثغةٍ بفمِ اللُّغاتِ تحدَّروا
وتخيّروا شكلَ الكَلامِ وثرثروا

مُذ راودوا الأفكارَ قبلَ صُعودِها
لم يُمسِكوا إلا التي تتبخّرُ

في السّيرَةِ الأُولى
يُقالُ بأنَّهُم قَفزوا مِنَ الفردوسِ
ثُمَّ تصحّروا

في السّيرَةِ الأُخرى،
يُقالُ: بأنَّهُم قمحٌ،
يسيلُ معَ الحُقولِ وزعترُ

المُستَحيلُ يَقولُ:
كانوا هاجساً بينَ السُّطورِ
ولحظَةً لا تُذكَرُ

لم يَقلَقُوا للحزنِ لكنْ
فلسفوا للدَّمعِ
أنَّ وجوهَهُم تتعطَّرُ

لا يُتقنونَ العزفَ
لكن كلّما عَزَفوا،
رواقيٌّ يصبُّ ويسكرُ

ولَهم طفولَتُهُم
فلونُ خيالِهم مهمّا تعرّيهِ المواسِمُ أخضَرُ

مُتشبّثونَ بِها
كأنَّ أصابِعاً في القلبِ للبيتِ القَديمِ تؤشِّرُ

ومرابطونَ عَلى البَساطَةِ كُلَّما
طَرأوا عَلى بالِ الزُّقاقِ تَبعثروا

المنشئونَ مِنَ الفراغِ
حَبيبةً وَلْهى
بدونِ حَبيبِها لا تَسهَرُ

والهاربونَ إلى القَصيدَةِ،
فالقَصيدَةُ إمبراطورٌ يثورُ وقيصَرُ

في جُبَّةِ الحلّاجِ مرّوا فكرَةً
صوفيّةً، وعَلى الصّليبِ تكسَّروا

لم يحفظوا لأبي العلاءِ رسالةَ الغُفرانِ
قالوا: عينُهُ لا تُبصِرُ

وتبادلوا بجهنَّمَ الضَّحِكاتِ
حتَّى أدركوا أنَّ الجَحيمَ مسعَّرُ

قالوا: نتوبُ عنِ القَصائدِ والنِّساءِ
ويعرِفونَ بأنَّهُمْ لن يقدِروا

يا ربُّ تَعرِفُنا برغمِ ذُنوبِنا
يا ربُّ تَعرِفُ أنّنا لا نصبِرُ

خُذنا إلى مُدِنٍ بِها
شعرٌ
ودندَنَةُ الرُّعاةِ
وعندليبٌ أسمَرُ

خُذنا إلى مُدُنٍ بِها
ليلٌ
وفلسفةٌ
وأحلامٌ تَطيرُ
وأنهُرُ

نحنُ اليتامى الطّيبونَ،
نَعيشُ موسيقى
ونَهرمُ نوتَةً ونُعَمِّرُ

ونَموتُ لكنْ لا نموتُ
لأنَّنا صوتُ الإلهِ
يُعيدُنا ويُكرِّرُ

مخطوطٌ فقدَه مؤلِّفُه

الاستمساكُ بأوثق عُرْوة في الأحكام المُتعلِّقة بالقَهْوة

لابنِ الطيِّبِ الفَاسِيِّ «ت 1170هـ»

د. أحمد عبد الباسط

خبير بمركز الخط والمخطوط في الإيسيسكو

مصر

أبـو عبـد الله محمَّـدُ بـنُ محمَّـدِ بـن الطيِّـبِ الشرقـيُّ الفاسـيُّ، أحَـدُ أفـذاذِ المغـربِ العربـيِّ فـي القـرن الثانـي عشر الهجـري. وُلِـدَ بمدينـة فـاس أوائـلَ القـرن الثانـي عشر الهجـري «1110هـ»، وتلقَّى بها تعليمَه الأوَّل بين أحضانِ أُسْرَتِه العَالِمة؛ فوالـدُه محمَّـدٌ الطيِّـبُ «ت قبـل 1144هـ» مِـن جُملـةِ شُـيوخِه؛ سـمعَ منـه جملـةً مِـن المُسلسلاتِ الحديثيـة التـي ذكرَهـا ولـدُه ابـنُ الطيِّب فـي فهرسِه الصغير «إرسال الأسانيد»[1]، كمَا استجازَ له - وعمرُه سنتانِ - مِـن مُسْنِدِ الحجاز آنـذاك أبـي الأسرارِ حسـنِ بـنِ عليٍّ العُجَيْمـيِّ «ت 1113هـ»، وفـي ذلـك يقـولُ تلميـذُه محمـد مُرتضى الحُسيني الزَّبيـديُّ «ت 1205هـ» فـي «ألفيـة السَّنَدِ»:

وصَـحَّ أنَّ حَسَـنَ العُجَيْمِـي أجَـازَهُ كُتْبًـا بِغَـيْرِ ضَيْـمِ[2]

وعمَّتُـه الزَّهْـراءُ بنـتُ محمَّـدٍ زوجـةُ أبـي علـيٍّ الحسَـنِ بـنِ مَسْعُودٍ اليُوسـيِّ «ت 1102هـ»، تتلمـذَ لها ورَوَى عنها بعـضَ المُسَلسلاتِ الحديثيَّةِ التي أوردَها فـي كتابِه «عُيـون المـوارد السَّلْسـلة»، منهـا: المُسَلسـلُ الأوَّل الخـاص بحديـث الرحمـة، الـذي يرويـه عنها وعـن والـدِه أيضًـا، ووصفَها بقولـه: «عمتنـا الشـيخة التقيّـة المسـندة المُقرئـة الزهـراء بنـت محمـد»[3]. وقـالَ عنها فـي المُسَلسل الثاني والأربعين الخاص بالشعراء: «عمَّتي الشيخة البرَّة التقيَّة البارعـة فـي الفنـون»[4].

أمَّـا جَـدُّه لأبيـه أبـو عبـد الله محمَّـدُ بـنُ موسـى فقـد كانَ - كما ذكرَهُ حفيـدُه - عَالِمًا صالحًا أديبًا بارعًـا[5]. كما كانت لأختِه آمنـةَ «المدعـوة: منَّانـة، أو: يَامْنـة» بين أهـل فـاس سِيرَةٌ حميـدةٌ، فقـد ترجـمَ لهـا الكتَّانـي فـي **«سـلوة الأنفـاس»**، فقـال: «المـرأةُ السـالكةُ الصالحـةُ الـخيِّرةُ المُفْلِحـة، الناشـئةُ مِـن صغرهـا فـي طاعـةِ الله، والمقبلـةُ علـى شـؤونها كُلِّهـا آمنـة، المدعـوَّة منَّانـة، بنـت السـيد الطيـب بـن محمـد الشرقـي الفاسـي، أخـت العلامـة اللغـوي الأديـب أبـي عبـد الله محمـد... كانـت مِـن العابـدات الذاكـرات العارفـات، المعرضـات عـن الدنيـا وأهلهـا وزينتهـا»[6].

نشـأ ابـنُ الطيِّـبِ الفاسـيُّ فـي جـوِّ هَـذِه الأُسْرَةِ العَالِمـة، فوجـدَ نفسَـه مُحاطًـا بتقاليـدَ علميَّـةٍ مُتـوارثةٍ، وعـاداتٍ فـي التربيَّـةِ والسُّـلوكِ والتديُّـنِ، فتأثَّـرَ بذلـك تأثُّـرًا كبيرًا، وكانَ لِزَامًـا عليـه اتِّبـاعُ تلـك الخُطـى العِلْميَّـةِ التـي فتـحَ عينَيْـه عليـه، فأخـذَ يطلـبُ العِلْـمَ بجـدٍّ فـي مدينـةِ فـاس وغيرِهـا مِـن مُـدنِ العِلْـمِ المغربيَّـةِ. حتـى أطلَّـت سـنة 1139هـ، فرأينـا فيهـا

1 إرسال الأسانيد وإيصال المصنَّفات والأجزاء والمسانيد، الصفحات: 92، و95، و103، و104، و114، و122، و146، و149.

2 ألفيَّة السند، ص 104

3 عيون الموارد السّلسلة، لوحة 8

4 عيون الموارد السّلسلة، لوحة 34

5 إرسال الأسانيد، ص157

6 سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بِمَن أُقبر من العلماء والصلحاء بفاس 3: 66- 67

> **صرَّحَ ابنُ الطيِّب بأنَّ الصياغةَ الأولى لهذه الرحلة قد سُرِقت وهو في طريقِ عَوْدته إلى فاس في مكانٍ يُدْعَى «مغارة شُعيب»**

عالمًـا موسـوعيًّا، لـه مؤلفـاتٌ وتلاميـذُ ومريـدون، وأشـعارٌ ومُـراسلاتٌ وأجوبـةٌ؛ ممـا يـدلُّ علـى أن الـفترةَ الأولـى مِـن حياتِـه كانـت حياةَ جِـدٍّ وعملٍ وتحصيلٍ، فما كان ليصلَ إلى مكانتِـه تلـك بـغيرِ كبيرِ عنـاءٍ، كما يُـشير إلى ذلـك فـي قَوْلـه:

يومًا بفاسٍ وفي «مكناسةٍ» زمنًـا وتـارةً في زوايـا العـمِّ والخـالِ

وبُرْهـةً سفـري «صفـرو» وآونـةً «تازا»، وطَوْرًا أُرَى أفلي الفَلا الخالي[7]

وفـي السَّـنةِ نفسِـها ـ أعنـي: 1139هـ ـ تاقـت نفسُـه إلى السَّـفرِ نحـو المَشْرقِ بعامـةٍ، وبلادِ الحجـازِ بخاصَّـةٍ؛ إذ كان المشرقُ - مِـن وجهـةِ نَظَـرِه - ملتقًـى للعلـمِ والعُلمـاءِ، ومنْـهَلا عَذْبًـا للاستزادةِ مِـن الخبراتِ، وسـبيلًا لانـطلاقِ شُـهْرَتِه وذُيـوعِ صِيتـه، وهـو مَـا عبَّر عنـه بقولـه:

وأَرْجِـعُ مملـوءَ الحَقَـائِبِ عـامرًا
بِمَا شِئْتُ مِن عِلْمٍ وحِلْمٍ ومَا ومَا

وتَخْدُمُنـي الدُّنيـا وأُصْبِحُ في غَدٍ
لَدَى رُتْبَةٍ شَمَّاءَ في مَنْزِلٍ سَمَا[8]

إذا أَضَفْنَـا إلـى ذلـك تلـكَ النشـأةَ الدِّينيَّـةَ الصوفيَّـةَ التـي نشـأَ عليهـا ابـنُ الطيِّـبِ بين أُسرتِه أوَّلًا، ثُـمَّ تَلْمذَتَه لِعُلمـاء الزوايـا الصوفيَّـةِ وشُـيوخِها، أمثـال: شـيخَيْه ابـن المَسْـناويِّ «ت 1136هـ»، وابن الشَّاذليِّ «ت1137هـ» وَرِيثي الزاويـة الدِّلائيـة بفـاس، وأحمـدَ بـن نـاصرٍ الدَّرعـيِّ «ت 1129هـ» شـيخِ الزَّاويـة النَّاصريَّـةِ = فإنَّنـا سـوفَ نُـدْرِكُ تمامًـا تلـك اللَّوْعـةَ وذلـك الشَّـوْقَ إلـى زِيـارةِ بيـت اللهِ الحـرامِ والوقـوفِ أمـامَ القـبرِ الشَّـريف، وهـو مَـا عبَّر عنـه فـي مواضـعَ كـثيرةٍ مِـن رحلتِـه الحجازيَّـة التـي وصلـت إلينـا.

7 إضاءة الراموس وإضافة الناموس على إضاءة القاموس 1: 25

8 الرحلة الحجازية، ص177

رحـلَ ابـنُ الطيِّـبِ الفاسـيُّ إلـى الـمشرقِ لأوَّلِ مـرَّةٍ فـي رحلتِـه الحجازيَّـةِ الأُولى، التي استغرقت ستةَ عشرَ شـهرًا، بـدأت بالخُـروجِ مِـن مدينتِـه فـاس صبيحـةَ يـوم الأربعـاءِ، الرابـعَ مِـن رجـبٍ الفَـرْد سـنة 1139هـ، وانْتَهـت بالرجـوعِ إليها صبيحـةَ يـوم الثلاثـاء، السَّـادسَ مِـن ذي القَعْـدةِ سنة 1140هـ. وقـد أبقى لنا الزَّمانُ نسُخةً خطيَّةً فريدةً مِـن هـذه الرحلـة الحجازيَّـةِ9، سـجَّلَ فيهـا ابـنُ الطيِّـب الفاسـيُّ مُذكّراتِـه اليوميَّـة التـي تضمَّنـت الحديـثَ عَـنِ البُلْـدانِ التـي مَـرَّ بهـا، وتضاريسِـها، وعـاداتِ أهْـلِ الـمَشْرِقِ، وذِكْـرِ مَـنْ لقيهـم مِـن الأعلامِ والعُلمـاء، ومَـا نظمَـه وألَّفَـه فـي المُناسباتِ المُختلفةِ.

وتُمثِّـلُ هـذه النُّسـخةُ الخطيَّـةُ الفريـدةُ مِـن الرحلـةِ الصياغـةَ «التسجيلةَ» الثانيةَ منها؛ إذ صرَّحَ ابـنُ الطيِّب نفسُه بأنَّ الصياغةَ الأولى لهـذه الرحلـة قـد سُرِقـت وهـو فـي طريـقِ عَوْدتِـه مِـن المدينـةِ المنـوَّرةِ، فـي مـكانٍ يُدْعَـى «مغـارة شُـعيب»[10] فطلـبَ منـه أحـدُ الأصدقـاء وهُـو بـمصرَ إعـادةَ كتابتِهـا مـع تذكُّـر مـا يمكـنُ أنْ يتذكَّـرَه، فشرعَ فـي إعـادة كتابتهـا عـام 1140هـ، وزادَ عليها ما تضمَّنَتْه الرحلةُ مِن أحوال السَّفرِ إلى فاسٍ بعد أداء الحجِّ. يقـولُ ابـنُ الطيِّب: «وكُنَّا جَمَعْنَا في طريقِنا نُبْذَةً تحتوي علـى مَـا سَـلَكْنَاه مِـن المَرَاحـلِ، وتَعُـدُّ مَـا نَزَلْنـاه مِـن المنـازلِ، وتشـتملُ عَلى ذِكْرِ مَـن لقينـاهُ أو تكلَّمنـا معـهُ فِـي نازلـةٍ مِـن النـوازلِ، وفِـي ضمـنِ ذلـك أبيـاتٌ كانَ يَقْتَضِيهـا الحـال، وقصائـدُ شرَّفْناهـا بذكـر تلـك المحـال، وفوائـدُ مُهمَّـةٌ يَعْتَنِـي بهـا ذو الهِمّـةِ. **فاسـتولتْ علـى ذلـك كلِّـه يَـدُ الضيـاعِ، وسَرَقَهـا سَـارِقٌ مـع مَـا كان لدينـا مِـن كُتـبٍ ومتاعٍ**... وحيثُ ألْقينَـا عصـا التَّسْـيار، واسـتقرَّت بِنَـا مِـن الحجـازِ فِـي مصر الديـارُ - طلـبَ منَّـا بعـضُ مَـن يجـبُ علينـا إسـعافُه وموافقتُـه أنْ نَسْـتجمَّ القريحـةَ الجامـدةَ، ونسترجـعَ الفكـرةَ الخامـدةَ؛ لعلَّهـا أنْ تتلافَـى بعـضَ مَـا تلاشَـى مِـن تلـك الرِّحْلـةِ البديعـة، وتقصـدَ مِـن كلِّ مقصـدٍ عجيبـةً وبديعـة. فاعتـذرتُ، فأبـى أنْ يقبـلَ الاعتـذارَ، **ثـم أجبتُـه بعـد الاسـتخارةِ عَلـى مَـا بـي مِـن الأَعْـذارِ، مُسْـتعينًا بقـوّةِ مَـنْ لـه القـوةُ والحـولُ**، مستمدًّا مِـن فضلِ مَالِكِ الفضلِ والطَّـوْلِ»[11]. ويقـولُ فـي موضعٍ آخـر: **«ولمَّـا أَشْرَفنَـا علـى مَغـارةِ شُـعَيب** أردنـا زيارتَهـا، وكانَ معنـا الفقيـه الخيِّرُ المُسِـنُّ أبـو العبـاس أحمـد الطيلوني، فتذاكرنـا معـه فـي ذلـك..... وفـي تلـك اللَّيْلـةِ ظَهَـرَ فضـلُ اللهِ علينـا وبَانَ، وعَلِمْنـا أنَّ اللهَ تعالـى تقرَّبَ مِنَّا القُرْبان؛ **إذ فِيهـا سُرِقَ لنـا الخُـرْجُ بما فيه، وضاعت لنـا تلـك الرحلـةُ البديعـةُ** التي لا يُستكملُ بليغ وَصْفِها ولا يستوفيه، **مـع غيرِهـا مِـن الكتـب القديمـةِ والحادثـةِ»**[12].

«القَهْوةُ» لفظةٌ عربيَّةٌ لا شُبْهةَ في فَصَاحتِها

ومِـن تلـك المُؤلَّفـاتِ التي صنَّفَها ابنُ الطيِّبِ الفاسيُّ وفقدَها فـي رحلتِـه تلـك، مؤلَّـفٌ أسْـمَاهُ: **«الاستمسـاكُ بأوثـق عـروة فـي الأحـكام المُتعلِّقـةِ بالقَهْـوة»**. وكان الدافـعُ لتأليفِـه هذا المؤلَّـفِ أنَّـهُ لمَّـا دخل مصرَ فـي رِحْلـةِ ذهابِـه إلى الحجاز ضيَّفَـه أحدُهم بأنواعٍ مِن الأطعمةِ، ثُـمَّ أحضرَ شرابَ القهـوةِ، «التي لا يعرفُها المغاربةُ، ولا يعدُّونَها في الأطعمةِ، ولا في الأَشْرِبـة، ولا فـي الأدويـةِ ولا فـي المُشْـتهيات»[13].

و«القَهْـوةُ» لفظـةٌ عربيَّـةٌ لا شُـبْهةَ فـي فَصَاحتِهـا، علـى زِنَـة «فَعْلـةٍ»، تُطْلَـقُ فـي أَصْلِهـا علـى الخَمْـرِ، التـي سُـمِّيت بذلـك - كما نـصَّ الخليـلُ «ت 170هـ» لأنَّها «تُقْهِي الإنسانَ، أي: تُشْبِعُه،

9 تحتفظ بها مكتبة جامعة «لايبسك» Leipzeg الألمانية، تحت رقم «476»، وتقع في «134» لوحة. وقد نشرها نور الدين شُوبد في طبعةٍ أولى عن دار السويدي، بأبي ظبي، سنة 2014م. هذا، ولابن الطيب رحلة ثانية إلى الحجاز لم يُدوِّنها، كانت سنة 1143هـ، وهي التي أدَّت بها إلى المُقام بالمدينة المنورة والوفاة بها عام 1170هـ.

10 تُعرف اليومَ بـ «البِدْع»، وهو وادٍ ذو مياه متدفقة عذبة شديدة البرودة. معجم معالم الحجاز، ص1628؛ والرحلات المغربية والأندلسية، ص322. ويبدو أنَّ هذا المكانَ كانَ معروفًا بقُطَّاعِ الطُّرق مِن قبل؛ فقد ذكرَه العَبْدريُّ «ت بعد 700هـ» في رحلته، التي بدأها عام 688هـ، وأشارَ إلى أنَّه كان يوجدُ قريبًا منه قَبْرُ الشَّفَّافِ، وهو رجلٌ كان يسكنُ هنالك، ويقطعُ على الحُجَّاج، فلا يكادُ يسلمُ منه أحدٌ. رحلة العبدري، ص-341 342

11 الرحلة الحجازية، ص-98 100

12 الرحلة الحجازية، ص509

13 الرحلة الحجازية، ص299

وتَذْهبُ بشَهْوةِ الطَّعَامِ»[14]، أو أنَّها مُشتقَّةٌ مِن «الإقهاء»، ومعناهُ: «الإقعادُ؛ لأنَّها تُقْعِدُ عَنِ النَّومِ»[15]. ثُمَّ ما لبثت أنْ أُطلقت في المُعجماتِ المتأخِّرة كـ«تاج العروس»، للزَّبيديّ «ت 1205هـ»، لتدلَّ - أيضًا - على «مَا يُشْربُ - الآنَ - مِن البُنِّ لثمرِ شَجرٍ باليَمَنِ، يُقْلَى على النَّارِ قليلًا، ثُمَّ يُدَقُّ ويُغْلَى بالماءِ»[16].

وقد أثارَ شرابُ قَهْوةِ البُنِّ، ومَا ارتبطَ به مِن عاداتٍ اجتماعيَّةٍ ومجالسَ، جدلًا قديمًا بينَ العُلماء في حِلِّ ذلك الشرابِ أو تحريمِه، وإنْ كانَ أكثرُهم مائلين إلى الإباحة، ونُظِمَت فيها القصائدُ، وذهبَ بعضُهم إلى المُغالاةِ في مَدْحِها وتعظيمِ فوائدها، ورأوا أنَّ شُرْبَها قُربةٌ إلى الله، وذكرُوا أنَّ «البُنَّ شجرةٌ في الجنَّةِ، غَرَسَها سبعون ألف مَلَكٍ، تُسَمَّى «شجرة السُّلوان»، فلمَّا أهبطَ اللهُ آدمَ هبطَ بها معه... ورماها في هذه الأرضِ، وهي أرضُ زَيْلع الحبشَةِ»[17]، بينما بالغَ آخرون في ذَمِّها، حتى ذهبَ بعضُهم إلى أنَّ شاربَها «يُحْشَرُ يومَ القيامةِ ووجهُه أسودُ مِن قُعور أوَانيها»[18]، وأفتى آخرُون بتحريمِها وإغلاق الحوانيت التي تُبَاعُ فيها، مثلما كان بمكَّة أيَّام الشيخ شمس الدين محمد الحنفيّ، نقيب قاضي القضاة؛ الذي تزعَّم مجلسَ الفقهاء الذين أَغْرَوا مُحْتَسِبَ مكَّة خاير بك «ت 922هـ» بتحريمِها وَرَدْعِ مَن يقولُ بحلِّها، ورفَعَ محضرًا بذلك إلى السُّلطانِ المملوكي قنصوه الغوري «ت922هـ»؛ ثم بمصرَ أيَّام الشيخِ أحمد بن أحمد بن عبد الحقِّ السُّنباطيّ «ت 995هـ» الذي أفتى بتَحْريمِها ومَنْع شُربها؛ تبعًا لأبيه الذي بنى فتواه عام 939هـ على شهادةِ طبيبَيْنِ أعجميَّيْنِ قدما مِن الحجازِ إلى مصرَ؛ الأمرَ الذي أثارَ غضبَ الناسِ واستياءَهم، حتى قال أحدُهم في الأوَّل:

قَهْوَةُ البُنِّ حُرِّمَتْ فَاشْرَبُوا قهوةَ الزَّبِيبْ
ثُمَّ طِيبُوا وعَرْبِدُوا وانْزِلُوا في قَفَا الخَطِيبْ

وقالَ آخر في الثاني:

حَرَّمُوا القَهْوَةَ عَمْدًا قَدْ رَوَوْا إفْكًا وبَهْتَا
إنْ سألْتَ النَّصَّ قَالُوا: إنَّ عبدَ الحَقِّ أَفْتَى[19]

14 معجم العين «هـ. ق. و ـ ق. هـ. و» 4: 64
15 عمدة الصفوة في حل القهوة، ص180- 181؛ ومعجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية 5: 171
16 تاج العروس «ق. هـ. و» 39: 371
17 مقدمة في فضل البن «مخطوط»، 49ظ
18 عمدة الصفوة في حل القهوة، ص179
19 عمدة الصفوة في حل القهوة، ص197؛ ومعجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية 5: 172- 173

استنهضَ كلُّ ذلك هِمَّةَ ابنِ الطيِّب الفاسيّ؛ وأرادَ أنْ يُدْلِيَ بدَلْوِه في هذا المِضْمَارِ، فصرَّحَ في «الرحلة الحجازيَّة» بتأليفِه هذا المؤلَّفَ **«الاستمساك بأوثق عروة في الأحكام المُتعلِّقةِ بالقَهْوة»** عند وُرودِ سؤالٍ بشأنها في الحرم المكّي، كما نصَّ في الرحلةِ نفسِها على ضياعِه مِن جُملةِ ما ضاعَ مِن كُتبِه بالمكان المعروفِ بـ «مغارةِ شُعيبٍ». يقول: «وقد كانَ وردَ عليَّ ونحنُ في الحَرمِ الشَّريفِ سُؤَالٌ يتضمَّنُ أبحاثًا نَفِيسةً تتعلَّقُ بالقهوةِ وأحكامِها، **فجمعتُ في ذلك تأليفًا مستقلًّا حافلًا، سمَّيْتُه: الاستمساك بأوثقِ عروةٍ في الأحكام المتعلّقةِ بالقهوةِ**، ورتّبتُه على مُقدِّمةٍ وأربعةِ فصولٍ وخاتمةٍ. وأبديتُ فيه مِن نَفِيسِ الأبحاثِ ودقيقِ الأنظارِ مَا يشهدُ بتحريرِه عندَ مُشَاهدتِه جميعُ النظَّارِ، **فعَدَا عليه ذلكَ السَّارقُ، وأخذَه في ما أخذَ مِن القراطيسِ والمهارقِ. تقبَّلَه اللهُ على التَّلفِ، وعوَّضَنا فيه وفي غَيْرِه خيرَ خَلَفٍ»**[20].

20 الرحلة الحجازية، ص301

ولئن فُقِدَ هذا النصُّ الذي تأثَّر مؤلِّفُه كثيرًا بفَقْدِه وغَيْرِه مِن القصائدِ[21] التي أنشدَها، والمسائلِ التي دوَّنها = فقد احتفظت لنا الرِّحْلةُ بآثارةٍ منه، ومُوجَزٍ عنه، وقد سَلَكَ فيه صاحبُه مَسْلكًا وسَطًا:

فقد بدأ كلامَه عن القهوةِ بإيرَادِ كلامِ داود بن عمرَ الأنطاكي «ت 1008هـ» في «تذكرته» عَنِ البُنِّ، من جِهَةِ البُرودةِ واليبوسة، وفائدتِه في «تَجْفيفِ الرُّطوبات، والسُّعالِ البَلْغميِّ، والنَّزلاتِ، وفَتْحِ السُّدَدِ، وإدْرَارِ البَوْل»، وأنه إذا حُمِّصَ وطُبِخَ بالماء فإنَّه «يُسكِّنُ غليانَ الدَّمِ، وينفعُ مِن الجُدريِّ والحَصْبَةِ»[22].

> **كان الدافعُ لتأليفِ ابن الطيب هذا المؤلَّفِ أنَّهُ لمَّا دخل مصرَ في رِحْلةِ ذهابِه إلى الحجاز ضيَّفَه أحدُهم بأنواعٍ من الأطعمةِ، ثُمَّ أحضرَ القهوةَ، «التي لم يكن المغاربةُ يعرفونها، ولا يعدُّونَها في الأطعمةِ، ولا في الأَشْرِبة، ولا في الأدويةِ ولا في المُشْتهيات»**

ثُمَّ أوردَ كلامَ بعضِ العُلماء في أنَّ القَهْوةَ تَحْرُمُ على مَنْ طَبْعُه السَّوْداءُ، وتُكْرَهُ على مَن طَبْعُه الصفراءُ، فصحَّحَ ذلك، وذكرَ أنَّ ذلك يَنْطبقُ - أيضًا - على «غيرها مِن أنواعِ المَطْعُوماتِ والمَشْرُوبات؛ يحرمُ تناولُ ما يضرُّ منه على مَنْ علمَ أنَّه يضرُّهُ، ولا يكونُ ذلكَ موجِبًا لتحريمِه مُطلقًا كما لا يَخْفى»[23]، ودلفَ بعدَها في إيرادِ كلامٍ طويلٍ لأبي سالم العيَّاشي «ت 1090هـ» في رحلتِه الحجازيَّة، المعروفة بـ «الرحلة العيَّاشية»، صدَّره برأيه الوسطيِّ في أنَّها إنَّما تحرمُ في حقِّ مَنْ يشربونها في أماكنَ «قلَّما تَخْلُو مِن لهوٍ، وحضورِ مَن لا يحلُّ حضورُه مِن الجَوَاري ومَنْ في معناهم مِن المُرْدِ، مع آلاتِ الطَّربِ والغِنَاء، فهؤلاء الحاملُ لهم على شُرْبِها اتِّباعُ الأهواء، والتلذُّذُ بما قارنَها مِن الأُمورِ المذمومةِ»[24].

وختمَ ابنُ الطيِّبِ كلامَه عن القهوة - استنادًا لما نقلَه عن أبي سالم العيَّاشيِّ وغَيْرِه مِن كلامِ الفُقهاء - بأنَّ حِلَّيتَها صريحةٌ مِن عمومِ قَوْلِه تعالى: (قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا)، الآية [الأنعام، آية 145]، «فقد قرَّرَ أهلُ الأصولِ أنَّها دليلٌ على أنَّ أصلَ كلِّ مَطْعُومٍ مِن نباتٍ وغيرِه الحِلِّيَّةُ، إلا ما استثناهُ اللهُ تعالى، أو أدَّى إلى عُذْرٍ في عَقْلٍ أو بدنٍ»[25].

وبعدُ؛ فهذا ما يمكنُ تلمُّسُه ممَّا أوجزَه ابنُ الطيِّب الفاسيُّ في رحلتِه الحجازية، عن كتابِه المفقود «الاستمساك بأوثق عروة في الأحكام المُتعلِّقة بالقهوة»، وقد أشارَ في الرحلة - كما سبق - إلى أنَّه رتَّبَه «على مُقدِّمةٍ، وأربعةِ فصولٍ، وخاتمةٍ»، لا نعلمُ يقينًا عُنواناتِها، لكنَّ أُلْفَتَنا بتلك الشخصيَّةِ العبقريَّة ومؤلَّفاتِها تدفعُنا إلى القَوْلِ بأنَّ كتابَه المفقودَ هذا قد تناولَ الموضوعاتِ التالية:

1. **التأصيل اللغوي للفظ «القهوة» ومُسمَّياتِها؛** فالمؤلِّفُ ذو خلفيَّةٍ لُغويَّةٍ أصيلة، وكانَ أحدَ المُحشِّين على «قاموس» الفيروز آبادي، بكتابه «إضاءة الراموس وإضافة النَّاموس على إضاءة القاموس».
2. **المؤلَّفات السابقة عليه التي أُلِّفَت في القهوة**؛ لقولِه: «وقَدْ ألَّفَ فيها جماعةٌ مِن أهل مصر والقاهرةِ والحرمَيْنِ والشَّامِ وغيرِهم مؤلَّفاتٍ عديدةً، وقفتُ على جُلِّها، وأثْبَتُّ خُلاصتَها في ذلك الكتاب».

21 يقول في رحلته الحجازية، ص99، متأثِّرًا، والضميرُ في «لينه» يعودُ على السارق:
فيَـا لَيْتَه لَوْ رَدَّ مِنْهـا قَصِيـدةً وسامحتُه في المَالِ أَجْمعَ والكُتْبِ

22 الرحلة الحجازية، ص300-301

23 الرحلة الحجازية، ص301

24 الرحلة الحجازية، ص301-302، والنصُّ منقول عن الرحلة العياشية 1: 236

25 الرحلة الحجازية، ص310-311

3 **فوائد القهوة ومنافعها، وما ينبغي أنْ يُؤكل معها لحصول المنافع الناشئة منها وتجنُّب ضررها؛** فقد صدَّرَ كلامَه عنها، بما أورده من كلام داود بن عمر الأنطاكي «ت1008هـ» في تذكرته، كما ردَّ على بَعْضِ ما أوردَه عبدُ القادر بن محمد الجزيري «ت نحو 977هـ» في قصيدةٍ له بشأن منافعِها أو شربها على هيئة مخصوصةٍ، من خلال كلامٍ لداود الأنطاكي أيضًا.

4 **ما قيلَ في القهوة مِن قصائد وأشعار ومُساجلات بين الأدباء؛** وهو أمرٌ ظاهرٌ في ما أوردَه ابنُ الطيِّب في هذا الموجزِ - على صِغَرِه - مِن قصائد أشعارٍ لرضيِّ الدين ابن الحنبليِّ «ت 971هـ»، وابن عراقٍ الحنبلي «ت963هـ»، وعبد القادر بن محمد الجزيري «ت نحو 977هـ»، إضافةً إلى تلك الذائقة الأدبية التي طغت في كثيرٍ مِن مؤلَّفاته.

5 **حكم شراب القهوة، وما قيل فيها من الأسئلة والأجوبة؛** وهو الغرضُ الرئيسُ مِن تأليفِه الكتاب، وذلك حينما وردَ عليه وهو في الحرم الشريف - كما يقول - «سؤالٌ يتضمَّنُ أبحاثًا تتعلَّقُ بالقهوةِ وأحكامِها»، كما مرَّ.

ختامًا، كم مِن نُصوصٍ فَقَدَتْها حضارتُنا الزَّاهيةُ في أتُون الفِتَنِ والصِّرَاعاتِ والسَّلْب والنَّهْب لا نعلمُ عنها شيئًا..! وكَم هي تلك المُخبَّأة في خِزانَات المخطوطات، تنتظرُ مَن يكشفُ الغُبارَ عَنْها، ويُعِيدُها إلى الحياةِ، ويُقدِّمها للقارئ المُعاصر في أبْهى صورة..!

> **كم مِن نُصوصٍ فَقَدَتْها حضارتُنا الزَّاهيةُ في أتُون الفِتَنِ والصِّرَاعاتِ والسَّلْب والنَّهْب لا نعلمُ عنها شيئًا...! وكَم هي تلك المُخبَّأة في خِزانَات المخطوطات، تنتظرُ مَن يكشفُ الغُبارَ عَنْها، ويُعِيدُها إلى الحياةِ**

ثبتُ المصادر والمراجع

- **إرسال الأسانيد وإيصال المصنَّفات والأجزاء والمسانيد**، لابن الطيب الفاسي «ت1170هـ»، تحقيق: عثمان لمبركي، ولحسن إبورك. أطروحة لنيل درجة الإجازة «2005-2006م»، بكلية الآداب والعلوم، جامعة ابن زهر، أغادير.
- **إضاءة الراموس وإضافة الناموس على إضاءة القاموس**، لابن الطيب الفاسي «ت1170هـ»، تحقيق: عبد السلام الفاسي، والتهامي الراجي الهاشمي. المملكة المغربية: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1983م.
- **ألفيَّة السَّنَد**، للزَّبيدي «ت 1205هـ»، تحقيق: محمد بن عزوز. بيروت: دار ابن حزم، ط1. 2006م.
- **تاج العروس**، للزَّبيدي «ت1205هـ»، تحقيق: عبد الستار فرَّاج وآخرين. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1965-2001م.
- **الرحلة الحجازية**، لابن الطيب الفاسي «ت1170هـ»، تحقيق: نور الدين شوبد. أبو ظبي: دار السويدي، ط1. 2014م.
- **رحلة العَبْدري** «ت بعد 700هـ»، حققها وقدَّم لها: علي إبراهيم كردي. دمشق: دار سعد الدين، ط1. 2011م.
- **الرحلة العياشية**، لأبي سالم العياشي «ت1090هـ»، حقَّقها وقدَّم لها: سعيد الفاضلي، وسليمان القرشي. أبو ظبي: دار السويدي، ط1. 2006م.
- **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بِمَن أُقبر من العُلماء والصلحاء بفاس**، لمحمد الكتاني «ت1345هـ»، تحقيق: حمزة الكتاني، وآخرَيْن. الدار البيضاء: دار الثقافة، ط1. 2004م.
- **عمدة الصفوة في حل القهوة**، لعبد القادر الجزيري «ت نحو 977هـ»، تحقيق: سلفستر دي ساسي «ضمن كتابه: الأنيس المفيد للطالب المستفيد»، باريس، 1806م.
- **عيون الموارد السَّلسلة مِن عيون الأسانيد المُسلسلة**، لابن الطيب الفاسي «ت1170هـ»، مخطوط بالمكتبة الأزهرية «283 مصطلح حديث / 23006».
- **معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية**، لأحمد تيمور باشا «ت1348هـ»، تحقيق: حسين نصار. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية «مركز تحقيق التراث»، ط2. 2002م.
- **معجم العين**، للخليل بن أحمد الفراهيدي «ت170هـ»، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي. القاهرة: دار ومكتبة الهلال، د.ت.
- **مقدمة في فضل البن**، لعلي بن محمد الأجهوري «ت1066هـ». مخطوط بدار الكتب المصرية «73 مجاميع»، ص49و - 50و.

من الحوار بين الحضارات إلى الدبلوماسية الحضارية

د. المحجوب بنسعيد

باحث في الاتصال والحوار الثقافي

المغرب

يعد الحوار قيمة من قيم الحضارة الإسلامية تستند إلى مبادئ الدين الإسلامي الحنيف وتعاليمه السمحاء. وهو موقف فكري وحالة وجدانية، كما أنه تعبير عن أبرز سمات الشخصية الإسلامية، وهي سمة التسامح لا بمعنى التخاذل والضعف، ولكن بمعنى الترفع عن الصغائر والتسامي على الضغائن والتجافي عن الهوى والباطل. وبناء على هذا المفهوم فإن الحوار من المنظور الإسلامي يقوم على ثلاث قواعد هي: الإيمان بالله ورسوله وكتابه وتقوى الله، والتأدب بأخلاق الإسلام والتأسي بسيرة الرسول الكريم وسيرة صحابته الكرام، ونشدان الحق والبحث عنه والسعي إلى الحقيقة والتماسها.

لقد انطلقت الدعوة إلى الحوار من القرآن الكريم في آيات كثيرة تعكس إشكالات متعددة من الحوار بمختلف المستويات وفي شتى المجالات مثل حوار الخالق مع خلقه ومع رسله، وحوار الأنبياء مع أقوامهم وحوار الأفراد فيما بينهم. قال تعالى: {وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا}، سورة الكهف، [الآية 34]. وفي سورة المجادلة ورد لفظ التحاور في قوله تعالى {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله، والله يسمع تحاوركما، إن الله سميع بصير} [الآية 1].

ويقر الإسلام الاختلاف حقيقة إنسانية طبيعية ويتعامل معه على هذا الأساس لأن الله تعالى خلق الناس مختلفين اثنيا واجتماعيا وثقافيا ولغويا، ولكنهم في الأساس «أمة واحدة» كما جاء في القرآن الكريم {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا} [سورة يونس، الآية 19]، {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ}[سورة الروم، الآية 22]، وقوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} [سورة هود، الآية 118]. ومن هنا فإن أهداف الحوار من منظور إسلامي هي إطلاع الآخر على وجهة نظر لا يعرفها ومحاولة إقناعه بالتي هي أحسن بموقف ينكره أو يتنكر له. وهو أمر يشكل في حد ذاته أحد أهم عناصر الاحتكاك الفكري والتكامل الثقافي والتدافع الحضاري بين الناس.

والحوار في الشريعة الإسلامية يدعو إلى الوسطية والاعتدال بالكلمة الراقية وبالمنهج السوي مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [سورة آل عمران، الآية 64]. ويحدد الإسلام للحوار منطلقات وموضوعات وأهدافا، ومن هذه المنطلقات الاحترام المتبادل والإنصاف والعدل ونبذ التعصب والكراهية، فالاحترام المتبادل بين الإطراف المتحاورة هو أحد أهم مرتكزات الحوار إذ ينهى المولى عز وجل المؤمنين عن اتباع أساليب السفهاء ومجاراتهم في السب والتسفيه لمعتقدات الآخر: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سورة الأنعام، الآية 108].

وتقوم العلاقات الإنسانية حسب المنظور الإسلامي على أساس التعارف والتعاون على البر والتقوى انطلاقا من وحدة الجنس البشري ووحدة الأصل المنبثق عن المشيئة الإلهية. فالتعاون في المصطلح القرآني يتعدى المعنى اللغوي المباشر إلى معاني أعمق مفهوما وأوسع دلالة في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [سورة الحجرات، الآية 13]. كما أن التعاون نتيجة حتمية للتعارف ما دام يسعى إلى البر والتقوى لما فيهما من خير ومنفعة للإنسانية في كل الأزمنة والأمكنة تتحقق بهما سعادة المجتمعات والأفراد، على عكس الإثم والعدوان اللذان يمثلان وجهان بارزان للصدام والصراع ومصدرا لجميع الشرور والأضرار والتشوهات المفضية إلى الحروب والنزاعات والصراع المدمر للحضارة الإنسانية.

ومما لا شك فيه أن القيم الإسلامية أولا ثم المبادئ الإنسانية والقواعد القانونية الدولية هي مرجعية ثابتة وموضوعية لجميع الفرقاء المشاركين في الحوار المعنيين به باعتبارها قيم ومبادئ تحكم العلاقات الإنسانية وتضع القواعد الثانية للتفاعل فيما بينهم.وتأسيسا على ذلك فإن الإسلام لا يؤمن بالصراع الحضاري أو الصدام الحضاري، بل يقول بالتدافع الحضاري. والمقصود بمفهوم التدافع الحضاري في الإسلام أن الحياة البشرية تشهد تصادما بين الخير والشر غير أن التدافع يبطل ذلك الصراع بانتصار الخير على الشر مما يجعل الحضارات تتواصل وتتلاقح وتتدافع ولا تتصارع، لأن مشيئة الله اقتضت أن تكون الغلبة للحق والعدل باعتبارهما قاعدتا الحضارة التي يسعد الإنسان في كنفها، ويبدع ويعمرالأرض، ويصلح ولا يفسد، وتلك طبيعة من طبائع الحضارات.

يدعو الحوار في الشريعة الإسلامية إلى الوسطية والاعتدال بالكلمة الراقية وبالمنهج السوي

ويستند المفهوم الإسلامي لحوار الحضارات إلى أمرين: حتمية الحوار من جهة، وكون الحضارات مسالمة بطبيعتها من جهة ثانية. والقول بحتمية الحوار يعود إلى أن نظرية الصدام الحضاري في رأي كثير من الباحثين وخبراء الدراسات المستقبلية لا تعدو أن تكون وهما وتصورا انطلق من فرضيات ذات ارتباط وثيق بمرجعية سياسية وإيديولوجية سعت إلى ملء الفراغ الفكري الناتج عن مرحلة ما بعد الحرب الباردة. ومع ذلك يمكن القول بأن نظرية الصدام الحضاري قد دفعت أصحاب النظر البعيد والحصيف من المثقفين والمفكرين في الغرب وفي العالم الإسلامي على السواء إلى إعادة النظر في هذه النظرية، والحديث عن بدائل لها مثل نظرية حوار الحضارات والتنوع الثقافي والتسامح والتعايش بين الديانات والثقافات.

لقد دعت محافل ومنظمات كثيرة إلى حوار الحضارات منذ الستينيات من القرن العشرين، كما أن الدعوة إلى هذا الحوار تعتبر سمة من سمات النصف الثاني من القرن العشرين. ويلاحظ أنه بعد سنة 2001 التي أعلنتها منظمة الأمم المتحدة سنة للحوار بين الحضارات، شكلت قضايا الحوار بين الحضارات والثقافات والديانات محور العديد من المؤتمرات والاجتماعات التي عقدتها الأمم المتحدة. وقد صدرت عن تلك المؤتمرات قرارات وإعلانات وبرامج كان لها أثر بارز، لاسيما فيما يتعلق بالتأكيد على وجوب تسخير الحوار لخدمة جملة من الأهداف، نذكر منها تعزيز أوجه التشابه والقيم المشتركة مع الحرص على احترام أوجه الاختلاف والعمل على تبني وتعزيز توجه يروم استئصال آفة الفقر والميز العنصري وكراهية الأجانب والإرهاب والتطرف وعدم التسامح باعتبار ذلك واجبا أخلاقيا على كل فرد.

وبذلك تشكل تيار قوي ما فتىء يتنامى على الصعيد الدولي يسعى جاهدا إلى تعزيز أطروحة مفادها أن الخيار البديل لصدام الحضارات هو أن تتفاعل الحضارات الإنسانية مع بعضها بما يعود على الإنسان والبشرية جمعاء بالخير والفائدة، على اعتبار أن التفاعل عملية صراعية ولكنها متجهة نحو البناء والاستجابة الحضارية لتحديات الراهن، عكس نظرية صدام الحضارات التي هي مقولة صراعية تدفع الغرب بإمكاناته العلمية والمادية لممارسة الهيمنة ونفي الآخر والسيطرة على مقدراته وثرواته تحت دعوى وتبرير أن نزاعات العالم المقبلة سيتحكم فيها العامل الحضاري، وأن مجالها الجغرافي سيكون بين العالم الإسلامي والعالم الغربي.

> **تقوم العلاقات الإنسانية حسب المنظور الإسلامي على أساس التعارف والتعاون على البر والتقوى انطلاقا من وحدة الجنس البشري**

لكن للأسف حصلت انتكاسات كثيرة عرقلت تحقيق حوار فعلي ومستدام بين الحضارات، وبالرغم من ذلك لم تستسلم الأسرة الدولية، وبادرت إلى التفكير في إيجاد وسائل جديدة لتعزيز الحوار بين الثقافات، فكانت فكرة التحالف بين الحضارات التي أطلقها رئيس وزراء إسبانيا السابق خوسي لويس رودريغيث ثابتيرو، والتي تبناها الأمين العام السابق للأمم المتحدة كوفي عنان، وأنشأ لها مفوضيةً سامية.

وبذلك تعززت فكرة الحوار الثقافي بفكرة التحالف الحضاري، ونشأ عن هذا الربط المحكم تطورٌ إيجابيٌّ يسير اليوم في الاتجاه الصحيح، مما أشاع قدراً كبيراً من الأمل والتفاؤل، وحفز إلى تجديد الثقة في القيم الإنسانية الخالدة التي انبثقت منها الفكرتان الرائدتان : الحوار والتحالف. كما شجعت التجارب الرائدة والناجحة للحوار بين الثقافات والتحالف بين الحضارات، على توسيع نطاق الحوار الثقافيّ والحضاري، ليشمل الحوار الدينيّ بين الأمم والشعوب.

لقد اهتم العالم الإسلامي حكومات ومؤسسات رسمية ومنظمات ومثقفين ومفكرين وأكاديميين بموضوع الحوار بين الحضارات. وكان ذلك الاهتمام نابع من حث الإسلام على الحوار سبيلا للمعرفة والتعاون، ولذلك كان العالم الإسلامي سباقا إلى المبادرة بالدعوة إلى الحوار بين

الحضارات في مسعى حميد منه انطلق من قيم الحضارة الإسلامية، لإشاعة ثقافة التعايش والتعاون على جميع المستويات، من أجل الوصول إلى توافق دولي يفضي إلى التغلب على المشكلات الناتجة عن سوء الفهم وعدم الثقة التي تسود بعض المجتمعات الإنسانية.

وتتبوأ الإيسيسكو مكانة متميزة في مصاف المنظمات الدولية المعنية بقضايا الحوار الذي لم يكن في رأيها شأناً فردياً أو مسؤولية جهة معينة دون غيرها، بل الحوار شأن الجميع، ورهان يجب على كل المعنيين وضعه في صميم أولوياتهم وممارساتهم، والعمل على تجويده وتعضيد ممارساته الفضلى، ترسيخاً لقيم السلم واحترام الآخر والعيش المشترك. وتفعيلاً لوثائقها المرجعية ذات الصلة بحوار الثقافات والحضارات، حرصت الإيسيسكو على دعم الجهود الإقليمية والدولية لتعزيز الحوار بين الثقافات والحضارات، وترسيخ القيم الإنسانية المشتركة، وعلى جعل قضية تعزيز الحوار من خلال الوساطة الثقافية، أولوية مشتركة في برامج التكوين لفائدة الشباب والأئمة والمرشدين الدينيين، والعاملين في مختلف مجالات الثقافة والدبلوماسية الموازية، كما جعلت من الوساطة الثقافية محوراً رئيساً في اللقاءات والندوات والبحوث والدراسات المتخصصة في قضايا الحوار بين الثقافات والحضارات.

واصدرت الإيسيسكو مجموعة من الوثائق المرجعية ذات البعد الدولي، منها : تعهدات الرباط من أجل تعزيز الحوار بين الثقافات والحضارات والأديان من خلال مبادرات ملموسة ومستدامة، والإعلان الإسلامي حول التنوع الثقافي، وإعلان تونس حول تحالف الحضارات، واستراتيجية التكافل الثقافي، واستراتيجية التقريب بين المذاهب الإسلامية، وكلها وثائق ارتقت بممارسة الحوار داخلياً كان أو خارجياً إلى درجة متقدمة ووسعت رقعة المشاركة والتفاهم لتحقيقه، وساهمت في نبذ كل أشكال التعصب والانغلاق.

ولئن كانت الإيسيسكو قد حققت قبل سنة 2019 بعضا من الأهداف التي رسمتها في مجال احترام التعددية الثقافية وتعزيز الحوار بين الثقافات والحضارات والأديان، فأن المتغيرات الدولية المتسارعة والمتعددة، بعد أزمة كوفيد، فرضت ضرورة الارتقاء بالحوار بين الحضارات إلى مستويات أخرى جديدة ومبتكرة.

ومن المبادرات المبتكرة لمنظمة العالم الإسلامي للتربية والعلوم والثقافة – إيسيسكو- الإعلان عن مفهوم جديد هو "الدبلوماسية الحضارية" الذي لا يقدّم نفسه بديلاً لمفهوم الدبلوماسية الرسمية، بل يسعى، في رأي المدير العام للإيسيسكو الدكتور سالم بن محمد المالك، إلى أن يكون رديفاً مؤازراً في ابتداع الحلول عبر النهج السلمي.

لقد أضحت الإيسيسكو اليوم مرجعًا دوليًا في هذا المجال بفضل مبادراتها النوعية وشراكاتها الواسعة، ومقاربتها التي تعلي من شأن التنوع والتفاهم بين الشعوب. إن رؤية الإيسيسكو لمفهوم الدبلوماسية الحضارية، حسب السفير خالد فتح الرحمن، مدير مركز الحوار الحضاري في الإيسيسكو، هي رؤية تطبيقية عملية لا تقتصر على الجانب التنظيري، ولذلك شرعت الإيسيسكو في مرحلة جديدة من الاشتغال على ملف الحوار بين الحضارات بالتركيز على الأنشطة والمبادرات الميدانية الهادفة إلى تعزيز الحوار الحضاري ونشر قيم التعايش والتسامح وبناء قدرات الشباب والنساء في القيادة من أجل السلام والأمن.

> **تتبوأ الإيسيسكو مكانة متميزة في مصاف المنظمات الدولية المعنية بقضايا الحوار الذي لم يكن في رأيها شأناً فردياً**

إن مفهوم " الدبلوماسية الحضارية"، الجديد الذي ابتدعته الإيسيسكو يستند إلى استراتيجية متجددة في مجال الحوار الحضاري تهدف في المقام الأول إلى بناء جسور التواصل وتعزيز السلام القائم على الاحترام المتبادل بين الثقافات. ولذلك تعتمد الإيسيسكو هذا المفهوم في رؤيتها، وقد سعت إلى تحويله إلى برامج ومبادرات ملموسة تستهدف تمكين المجتمعات، وخاصة فئة الشباب. ومن المبادرات التي يضطلع بها مركز الحوار الحضاري بالإيسيسكو في هذا المجال، "جائزة الحوار الحضاري للشباب"، و"منتديات التفاهم الثقافي"، وسلسلة من البرامج التدريبية التي تمكّن الجيل الجديد من أدوات الدبلوماسية الثقافية الحديثة. وفي مقاربتها المبتكرة أولت الإيسيسكو أهمية بالغة للابتكار واعتبرته عنصرًا محوريًا في تعزيز التبادل الثقافي والحوار الحضاري، إيمانًا منها بأن التفاعل الخلّاق بين الثقافات يحتاج إلى أدوات وأساليب مبتكرة تواكب تحوّلات العصر وتخاطب الأجيال الجديدة بلغتها ومفرداتها مع أهمية إشراك الشباب في مسارات الحوار الحضاري، وتمكينهم من فهم تراثهم وتقدير تراث الآخرين، معتبرًا أن الاستثمار في وعي الشباب هو الاستثمار الأذكى في مستقبل أكثر انسجامًا، وأكثر احترامًا للتراث الإنساني المشترك، وأكثر قدرة على ابتكار مسارات جديدة للتفاهم الإنساني العابر للثقافات.

وفي إطار تنزيل هذه المبادرة المبتكرة أعلنت الإيسيسكو عن إحداث كرسي علمي بحثي بجامعة القاضي عياض، يحمل اسم "كرسي الإيسيسكو للدبلوماسية الحضارية"، وذلك في ختام أعمال الندوة العلمية الدولية حول: «الدبلوماسية الحضارية.. قراءات متقاطعة»، التي عقدتها المنظمة بشراكة مع جامعة القاضي عياض في مراكش، وتم خلالها تسليط الضوء على «الدبلوماسية الحضارية»، كمفهوم جديد قيد التشكل، ضمن ما يعرف بالمسارات الجديدة للدبلوماسية التي ترمي إلى العودة إلى مداخل جديدة، تسهم في ترسيخ مبادئ السلم والتعايش والحوار، وتثمين قيم التعاون والتبادل والتفاهم.

وفي السياق نفسه، نظمت الإيسيسكو برنامجا تدريبيا متخصصا في الدبلوماسية الحضارية، ودورها في فض النزاعات باستخدام أدوات وتقنيات الذكاء الاصطناعي. بالتعاون مع كرسي الأمم المتحدة لتحالف الحضارات بالجامعة الأورومتوسطية بفاس. كما أصدرت كتابا مرجعيا بعنوان "الدبلوماسية الحضارية: مفهوماً جديداً"؛ وهو عمل يتناول المفهوم كـ"مسار جديد في العلاقات الدولية، يزاوج بين القوة الناعمة والتأثير الثقافي".

انتقل الاهتمام بمفهوم الدبلوماسية الحضارية من المستوى الإعلامي الإخباري إلى الدراسة العلمية التحليلية على المستوى الأكاديمي الجامعي

لقد انتقل الاهتمام بمفهوم الدبلوماسية الحضارية من المستوى الإعلامي الإخباري إلى الدراسة العلمية التحليلية على المستوى الأكاديمي الجامعي. وفي هذا الصدد نشرت المجلة العلمية لمختبر البحث في قانون الأعمال التابع لجامعة الحسن الأول بمدينة سطات المغربية في عددها رقم 58 « يونيو-يوليوز 2025» مقالة علمية للباحثة كريمة بلش في سلك الدكتوراة تخصص الدراسات السياسية والعلاقات الدولية، بعنوان "التكنولوجية والدبلوماسية الحضارية رؤية لعالم بلا حواجز». وتناولت في هذا المقالة دور الدبلوماسية الحضارية في تحقيق السلام العالمي، وتدبير الأزمات، وجلب الاستثمارات، وتقديم صورة مشرقة للحضارات والثقافات لمختلف الدول من خلال إظهار الجوانب الإيجابية من الاختلاف وقبوله. وأوضحت الباحثة أن الحضارات وجدت للتكامل والحوار لا للتنافر

لقد أكد البيان الختامي للندوة الدولية حول: «الدبلوماسية الحضارية.. قراءات متقاطعة» أن مفهوم الدبلوماسية الحضارية بحاجة إلى تضافر جهود مختلف الفاعلين في مجال التواصل الدولي

والصراع، كل هذا في ظل الثورة التكنولوجية المتسارعة، وأكدت أنه، وعيا بأهمية النقاش الفكري والأكاديمي في بلورة مفاهيم علمية جديدة وآليات عملية ناجزة، تم طرح الدبلوماسية الحضارية كمساهمة في توظيف المشترك الحضاري الإنساني لإرساء سلوك دولي يدعم تحقيق التنمية الإنسانية. واستنتجت الباحثة المذكورة أن الحوار الحضاري أصبح ضرورة قصوى، وهو لا يشمل فقط مسألة الديانات والثقافات كما هو متداول سابقا، وإنما يجب أن يتناول ميادين سياسية واقتصادية واجتماعية وبيئية وفكرية؛ ولا يمكنه إلا أن يكون عالمياً وشاملاً لينتظم به ومعه التنوع البشري بكل أشكاله ومصالحه.

وخلصت في بحثها إلى أن أساس الحوار بين الحضارات ينطلق عبر العلاقة المتبادلة بين الجماعات البشرية المختلفة، وهذا ما تسعى إليه الدبلوماسية الحضارية من خلال التقارب الحضاري، استنادا إلى حقيقة أن الحضارات الإنسانية تتجلى بكونها نتاج تعاون الشعوب كافة. ولكي يكون الحوار حوارا إنسانيا بعيدا عن خلفيات الهيمنة والاحتواء ويحقق الغايات المرجوة منه، ينبغي أن يؤسس على منظومة مفاهيمية حضارية إنسانية تدار من خلالها منهجيته، ولهذا تم التأسيس لمفهوم الدبلوماسية الحضارية التي تسعى من خلاله إلى التقارب الحضاري.

من خلال ما سبق، يتبين بجلاء أن مفهوم الدبلوماسية الحضارية هو امتداد طبيعي، وابتكار متجدد وقيمة مضافة، لاشتغال نظري وفكري عالمي انطلق بمناقشة صراع الحضارات، ثم الحوار بين الحضارات، وبعده التحالف بين الحضارات. وبهذا المفهوم تبرهن الإيسيسكو الجديدة على أنها هيئة مرجعية محكمة في مجال التعاون الدولي وإحلال السلم، زيادة على أنها المخاطب الرسمي في مجال حوار الثقافات وتحالف الحضارات. لقد أكد البيان الختامي للندوة الدولية حول: «الدبلوماسية الحضارية.. قراءات

متقاطعـة» أن مفهـوم الدبلوماسـية الحضاريـة بحاجـة إلـى تضافـر جهـود مختلـف الفاعـلين فـي مجـال التواصـل الدولـي مـن منظمـات ومؤسسـات ومراكـز وتمثيليـات دوليـة، فـضلا عـن ضـرورة المضـي فـي الاتجـاه الـذي يعـزز اسـتثمار السياسـي بالقـدر الكافـي لمـا هـو ثقافـي وقيمـي.

كمـا أن المفهـوم فـي حاجـة إلـى إجـراءات إداريـة وتنظيميـة داخـل الإيسيسـكو مـن بينهـا علـى سـبيل الاقتـراح إحـداث بنيـة إداريـة «قسـم الدبلوماسـية الحضاريـة تابـع لمركـز الحـوار الحضـاري»، وتعزيـز التنسـيق مـع قطـاع الثقافـة «الدبلوماسـية الثقافيـة» وقطـاع التربيـة «النهـوض بالتربيـة وفـق الحـوار والدبلوماسـية الحضاريـة» وقطـاع العلـوم الإنسـانية والاجتماعيـة «برنامـج سـفراء الـسلام الشـباب» وقطـاع الإعلام والاتصـال «تدريـب الإعلامـيين علـى نشر قيـم الدبلوماسـية الحضاريـة ».

المراجع

- القرآن الكريم.
- الحـوار والتفاعـل الحضـاري مـن منظـور إسلامـي، منشـورات الإيسيسـكو. 1997
- صراع الحضارات في المفهوم الإسلامي، منشورات الإيسيسكو. 2002.
- الكتاب الأبيض حول الحوار بين الحضارات، منشورات الإيسيسكو. 2002
- صموئيـل هنتغتـون، الإسلام والغرب،آفـاق الصـدام، ترجمـة مجـدي شرشر، مكتبـة مدبولـي، القاهـرة، الطبعـة الأولـى، 1995
- صموئيل هنتغتون، صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، ترجمة د مالك عبيد أبو شهيوة، ود. محمود محمد خلف، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، 1999
- عبد الله العليان، الإسلام والغرب، ما بعد 11 سبتمبر 2001، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، المغرب، 2005
- محمـد السـماك، موقـع الإسلام فـي صراع الحضـارات والنظـام العالمـي الجديـد، دار النفائـس، الطبعـة الأولـى، 1995
- محمـد السـماك، ورقـة عمـل بعنـوان «ثقافـة الحـوار فـي الإسلام»، قدمهـا خلال النـدوة الدوليـة حـول الحـوار بين الحضـارات: التنـوع فـي إطـار التكامـل. ولايـة هسـن بألمانيـا الاتحاديـة، 29 30- سـبتمبر 2003م.
- حامـد خليـل، الحـوار والصـدام فـي الثقافـة العربيـة المعـاصرة.دار النـشر للثقافـة. الطبعـة الأولـى 2001
- المهدي المنجرة، الحرب الحضارية الأولى، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1991
- عبـاس الجـراري، الـذات والآخـر، منشـورات النـادي الجـراري. الطبعـة الأولـى. الربـاط 1998
- حسـن عـزوزي، الإسلام والحضـارة الغربيـة المعـاصرة، وهـم الصـدام وحتميـة الحـوار، سلسـلة تصحيـح صـورة الإسلام، الطبعـة الأولـى، 2003
- أحمد السايح، أضواء على الحضارة الإسلامية، دار اللواء، الرياض، 1401ه
- المحجـوب بنسـعيد، الإسلام والإعلاموفوبيـا. الإعلام الغربـي والإسلام : تشـويع وتخويـف. دار الفكـر. دمشـق. الطبعـة الأولـى 2013
- إدريـس لكريني، الدبلوماسـية الحضاريـة وأنسـنة العلاقـات، مقالـة منشـورة فـي صحيفـة الخليـج الألكترونيـة بتاريـخ 21 يونيـو 2023
- كريمـة بلّـش، التكنولوجيـة والدبلوماسـية الحضاريـة رؤيـة لعالـم بلا حواجـز، بحـث منشـور فـي المجلـة العلميـة لمختبر البحـث في قانـون الأعمـال التابـع لجامعـة الحسـن الأول بمدينـة سـطات المغربيـة. عـدد 58 « يونيـو- يوليـوز 2025
- إعلان مراكـش نحـو تشـكيل مفهـوم الدبلوماسـية الحضاريـة الصـادر عـن النـدوة العلميـة الدوليـة: "الدبلوماسـية الحضاريـة.. قـراءات متقاطعـة". مراكـش 2-3 يونيـو 2023
- كلمـة المديـر العـام للإيسيسـكو فـي الجلسـة الخاصـة حـول "التبـادل الثقافـي والتعلّـم المتبـادل: إرث ثقافـي"، التـي عقـدت فـي بـكين ضمـن جلسـات المنتـدى الدولـي للحـوار الحضـاري، يـوم الجمعـة 11 يونيـو 2025
- كلمـة مديـر مركـز الإيسيسـكو للحـوار الحضـاري فـي افتتـاح القمـة الدينيـة العالميـة الأولـى. سـانت بطـرسبرج الروسـية، أكتوبـر 2024

جمعية عقيلات السفراء العرب ورؤساء المنظمات الدولية

دبلوماسية العلاقات الإنسانية

د. يسرى بنت حسين الجزائري
رئيسة اللجنة الثقافية للجمعية

في قلب الرباط، حيث تتلاقى الحضارات وتزدهر الثقافات، ولدت مبادرة نسائية استثنائية تجمع بين الدبلوماسية والإنسانية والثقافة. إنها جمعية عقيلات السفراء العرب ورؤساء المنظمات الدولية، المسجّلة رسمياً عام 2022 بالمغرب، لكنها تحمل تاريخ نشاط طويل قبل هذا التاريخ، جامعةً بين عقيلات السفراء العرب ورؤساء المنظمات الدولية والسفيرات العربيات ضمن فضاء ينبض بالعطاء والانفتاح، ليكون نموذجاً مشرّفاً للدبلوماسية النسائية الناعمة.

رسالة واضحة ورؤية ممتدة

تؤمن الجمعية بأن المرأة الدبلوماسية ليست على هامش العمل الدولي، بل في صميمه، حاملة قيم الرحمة والتلاقي والتعاون. لذلك، ركّزت أهدافها على تعزيز المشهد الثقافي العربي والمغربي، دعم المبادرات الخيرية والصحية للفئات الهشة، إحياء الأيام العالمية بمبادرات مؤثرة، بناء شراكات مع المؤسسات الرسمية والدولية وعلى رأسها الإيسيسكو، وأن تكون نموذجاً للدبلوماسية الناعمة التي تبني ولا تهدم وتقرّب ولا تباعد. وتترأس هذه الجمعية السيدة رانية الشوبكي، حرم سفير دولة فلسطين بالمغرب، وتضم في عضويتها عددا من عقيلات السفراء ورؤساء المنظمات الدولية المعتمدين لدى المغرب إضافة إلى العضوية الشرفية لسعادة سفيرات الدول العربية والإسلامية بالمغرب.

تؤمن الجمعية بأن المرأة الدبلوماسية ليست على هامش العمل الدولي، بل هي في صميمه

الثقافة جسراً للحوار

الخطوة الأولى كانت مع الفن، ففي رحاب الإيسيسكو، انطلقت أنامل نسائية عربية ودولية في معرض **"لوحة أمل"**، حيث امتزجت الألوان بقصص صمود وتفاؤل، لتصبح اللوحة نافذة للأمل ووحدة المشاعر الإنسانية.

ثم جاءت محاضرات "**رحلات رمضانية في أعماق النفس البشرية**"، التي استمرت عامين، لتربط بين عمق الفكر وبناء القيم الإنسانية. وفي جناح الإيسيسكو بمعرض الكتاب الدولي بالرباط، قدّمت الجمعية جلسة بعنوان: **"من الظلام إلى النور: كيف قاد العلم حياة النبي وأمتـه"، حيث تحولت الكلمة إلى جسر بين الماضي والحاضر.**

الأطفال لم يغفلوا عن الأنشطة، فالأيتام رافقوا الجمعية في جولات بالمعارض والمتاحف لتعزيز حب المعرفة منذ الصغر. أما ذوو الاحتياجات الخاصة، فكان للمكفوفين نصيب في دورة فنية مبتكرة تعتمد على حاستي الشم واللمس، لتفتح لهم أبواب الإبداع. ولا يمكن نسيان **مهرجان الأكل التراثي** في الإيسيسكو الذي جمع نكهات الشعوب وذاكرة الأوطـان على مائدة واحدة، لتأكيد أن الثقافة ليست فناً فحسب، بل أسلوب حياة يوحّد الناس.

الأيام العالمية: منصات للأمل

لم تتوقف الجمعية عند الفن والتعليم، بل تفاعلت مع القضايا الإنسانية الكبرى. في **اليوم العالمي للتوعية بسرطـان الثدي**، قدمت محاضرات توعوية وقوافل مجانية للفحص، وتكريم المتعافيات رمزاً للأمل. وفي **اليوم العالمي للمرأة**، احتفت بالإنجازات النسائية ودورهـا في المجتمع، بينما أظهـرت في **اليوم العالمي للتطوع** صورة التضامن العملي من خلال تكريم المتطوعات اللواتي منحْن وقتهن وجهدهـن للآخرين.

أنشطة خيرية: دفء إنساني متجدد

لم تكن الأنشطة موسمية، ففي رمضان وزعت **"قفة رمضان"** ونظمت موائد إفطار جماعية مع الأيتام، ومع الأعياد وزعت كسوة العيد والأضاحي للأسر المحتاجة. كما

> **أرادت الجمعية أن تكون نموذجاً للدبلوماسية الناعمة التي تبني ولا تهدم وتقرّب ولا تباعد**

دعمت التعليم عبر تجهيز الأطفـال لاستقبال العام الدراسي الجديد، وشاركت في جهود الحد من الهدر المدرسي، لتكون الانطلاقة الدراسية مناسبة أمل لا عبئاً اجتماعياً.

الصحة أولوية إنسانية

تؤمن الجمعية أن الكرامة الإنسانية تبدأ بالحق في العلاج. لذلك، دعمت **عمليات تصحيح النظر للأطفال**، وقدمت مساعدات **لأطفـال مرضى السرطـان** من أدوية وأجهزة طبية وكراسي وأسِرّة علاجية. كما نظمت زيارات للأطفال المكفوفين وذوي الاحتياجات الخاصة وكبار السن، وسارعت لتقديم مساعدات عاجلة للمتضررين من الكوارث الطبيعية، وشاركت في حملات التبرع بالدم، لتؤكد أن الإنسانية هـي البوصلة.

المجتمع فضاء للتواصل

لم تقتصر أنشطة الجمعية على الثقافة والخير، بل امتدت إلى الحياة الاجتماعية المغربية والعربية. نظمت **زيارات ميدانية للمدن** لتعزيز التعارف، وأقامت **البازارات العربية والدولية** وكذلك مع الاتحاد العام لنساء المغرب، جمعت بين العطاء والخير والتراث الثقافي. كما شاركت في ماراثونات رياضية، وأسهمت في حفلات زفاف جماعي لذوي الدخل المحدود، وقدمت عروض أزياء تراثية أبرزت جماليات القفطان المغربي، ودعمت الطلبة العرب المتأثرين بالأزمات السياسية، مؤكدة أن الهدف الأساسي هـو بناء روابط إنسانية متينة وصورة حيّة للتضامن.

> **مؤكدة أن الهدف الأساسي هو بناء روابط إنسانية متينة وصورة حيّة للتضامن**

> **ومع شراكاتها الممتدة وعلى رأسها الإيسيسكو، تواصل الجمعية كتابة قصة نجاح نسائية عربية، حيث يجتمع البعد الدبلوماسي مع التضامن الإنساني**

شركاء النجاح: الإيسيسكو في القلب

كانت **الإيسيسكو الشريك الأبرز**، احتضنت أنشطة الجمعية من معارض إلى محاضرات وندوات ومبادرات رمضان والأيام العالمية، وكان دعمها مادياً ومعنوياً، وقد كرّمت الجمعية **معالي الدكتور سالم بن محمد المالك، المدير العام للإيسيسكو**، تقديراً لدوره ولفريقه. كما دعمت السفارات العربية والمؤسسات المغربية والمجتمع المدني المشاريع، فيما برزت الشراكة مع وزارة التضامن والإدماج الاجتماعي والأسرة، لتأكيد تكامل الأدوار بين الدبلوماسية الرسمية والعمل المدني.

> **برزت الشراكة مع وزارة التضامن والإدماج الاجتماعي والأسرة، لتأكيد تكامل الأدوار بين الدبلوماسية الرسمية والعمل المدني**

خاتمة: بصمة ممتدة

بعد سنوات قليلة من تأسيسها الرسمي، أثبتت الجمعية أنها أكثر من إطار اجتماعي، فهي فضاء دبلوماسي وإنساني وثقافي يترك أثراً واضحاً في المغرب. ومع شراكاتها الممتدة وعلى رأسها الإيسيسكو، تواصل كتابة قصة نجاح نسائية عربية، حيث يجتمع البعد الدبلوماسي مع التضامن الإنساني، والثقافة مع العمل الخيري، لتبني جسور المحبة والإنسانية، وتجعل من العمل الإنساني والخيري ركيزة أساسية لبناء المجتمعات.

الأخـيرة

رأَيتُ .. في ما يرى القارئ

السفير خالد فتح الرَّحمن

مدير مركز الحوار الحضاري بالإيسيسكو

«1»

ورقةٌ بيضاءُ ناصعةٌ.. كضحكة طفلٍ غرير..

تصلُح، إذاً، مدخلاً للكتابة بعد طول انقطاع..

ورقةٌ بيضاء..

ثم.. لا شيءَ..إلا متعةَ مطاردة اللاشئ بالتحبير

«2»

"الوراقون .. لا يشيخون"

من أين و ثبت إلى العين هذه الفكرةُ العابثة !!

ألمْ يأتِها أن الجاحظَ -أشهرَ ورَّاقٍ في التاريخ- أردته أرففُ كتبه بعد أن ناءت بحمولة الأفكار قبل الأسفار،

فأوْرَدته حقيقةَ " الموت" بعد أن أورد الناسَ حديقةَ "الحيوان" !!

ألم يعمد "أبو حيانٍ التَّوحيديّ" إلى صحائفه الذاهلاتِ المُذهِلات، فيحرقها جميعاً، ذاتَ إحباط !!

يا لفداحةِ الخواءِ، جائزةً..

و الموتِ غنيمةً..

ولكن، من قال إنِّى قلتُ أَنْ بمقدور كاتبٍ الإفلات من: "لكلِّ أجلٍ كتاب"

الموتُ لا مفرَّ من ساعته حينَ تحين..

غيرَ أنَّ موتَ القلوب التي في الصدور..

موتَ القدرةِ على صناعةِ الجديدِ المغاير

موتَ حياةِ الحياة

ذاك موكولٌ بمجافاة الأوراقِ

قراءةً.. و القراطيسِ كتابةً :

" الوراقون.. لا يشيخون":

ليست فكرة عابثة..

«3»

و الفكرة - أيضاً- ليست عابرة

فما زلتُ لا أفهمُ كيف يَتَأَتَّى لقارئٍ أن يُطارِدَ الأفكارَ و يستحلبَ الأسرارَ من كتابٍ مرقومٍ على شاشةٍ تستنسف بصيرتَه بعدما تستنزفُ بصرَه..

فيشيخُ كلا المُسْتبصِرَيْن..

الورقَ.. الورقَ

و "ابنُ حجةَ الحموي" -أحدَ كبار الورَّاقين الرَّائقين- لم يتلفَّت ليختارَ عنواناً جديراً بواحدٍ من أمتع كتب تراثنا..

أسماه **"ثمرات الأوراق"..**

و..لعَمْرُك ما خانَ الأديبُ كتابَه .. فلا أحقَّ بوصف "المُثْمِرِ"، من كتابٍ يعتقلُ لحظاتِكَ: تبسُّماً..و قهقهةً .. و لهاثاً.. و غمزاً.. و إشباعا..

فمِن الثمراتِ ما يفعلُ ذلك كلَّه ..

«4»

و لا ورقَ.. إلا الورقُ

فالكتابُ الجديدُ *«عاشق الكتب »*، للمؤلفة الأمريكية"أليسون هوفر"، يستثيرُ الأنفاسَ و يقرعُ الأجراسَ في مكتبات أمريكا : جاذبيةٌ تفعل

فعلها، مُدافةً في حبكةٍ لا تمنحك حقّاً بالتساؤل عن حقيقة ما أنت فيه من أجواء.. حيثُ لا حاضرَ و لا ماضيَ و لا مستقبلَ .. "فكلُّ شيءٍ كَكُلِّ شيء"..

و السِّحر يتنقَّل بالقارئ بين دفَّتين، حولَ تاريخِ جمعِ الكتبِ.. و كيفيةِ تقنينِ البائعينَ للكتبِ..و طرائفِ اللُّصوصِ من سارقي الكتب..

«عاشق الكتب» !!

نعم.. و لكنَّ الجانبَ الآخرَ من الصورة تحتفظُ به محطة "كينغز كروس" لمن يعرفون

وسط لندن:

وقف المؤلفُ الشَّاب مزهُّواً بخروج كتابه من دفدفة الطِّباعة.. فرحةُ الشبابِ في عينيه تحملُ نسخاً لا تكاد تستقرُّ على الراحتين من فرط توقٍ إلى عيون القارئين.. يقترب من أحدهم، فيدور هذا الحوار:

خذ هذا الكتاب

لا أُريده..

خذه إنه كتابٌ جديدٌ جذَّاب

لا أُريده..

تفضَّل.. هو لك.. فأنا مؤلِّفه

قلتُ لك لا أُريده

سيِّدي إنه دونَ مُقابل..خذه مجاناً..

احتفظ به لنفسك .. لا أريده .. ثم يغيب الوجهُ المستخفُّ في الزِّحام، تاركاً علاماتِ التعجُّب تتقافز فى المكان

«!!!!!!!!»

و ما بينَ عاشقٍ للكتب..

و عازفٍ عن الكتب..

أبقَى مقتنعاً :

"الوراقون لا يشيخون"

الإيسيسكو تتسلم جائزة التواصل الحضاري في دورتها الخامسة عن مبادرة "360 درجة للسلام" - المملكة العربية السعودية - 16 سبتمبر 2025

JOIN US !
انضموا إلينا
REJOIGNEZ-NOUS